الأدب العربي في الأندلس

بحث بقلم

عبد العزيز محمد عيسى
مدرس بمعهد القاهرة

مطبعة الاستقامة

الأدب العربي في الأندلس

بحث بقلم

عبد العزيز محمد عيسى

هدية
الى جامعة كولومبيا
مع اطيب تحيات المؤلف
عبد العزيز محمد عيسى
المدرس بالازهر
القاهرة
١٩/٥/١٩٤٠

مطبعة الاستقامة
بشارع أم الغلام رقم ١٤ بالحسين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ،

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الدَّائِمَانِ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ وَأَفْضَلِ النَّبِيِّينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، مِنْكَ الْعَوْنُ وَالتَّوْفِيقُ وَبِكَ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ.

وَأَنْتَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

تمهيد

تقدمت بهذه الرسالة — الأدب العربى فى الأندلس — إلى لجنة الامتحان النهائى بقسم التخصص فى البلاغة والأدب، بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر، وما كنت معتزماً حين ذاك أن أجعل منها كتابا أنشره بين الناس وتتداوله أيديهم، وكنت جد قانع باطلاع أساتذتى عليها ونقاشهم لى فى بحوثها، وحسبى بعد هذا رضاهم عنها وحسن تقديرهم لها، وحسبها كذلك أن تكون وديعة مكتبة الكلية، شأن سائر الرسائل التى قدمها قبلى زملائى المتخرجون فى شعب التخصص.

غير أنّ بعضاً من أساتذتى الأفاضل، وجماعة من إخوانى وأصدقائى. حببوا إلىّ — بعد قراءتهم لها — أن أدفع بها إلى جمهرة القارئين، ففيهم كثير يعشق الأدب وتحنّ أسماعهم إلى الحديث عنه وتستروح قلوبهم للبحث فيه؛ وهم وقد أحسنوا الظنّ بمجهودى، لايسعنى غير شكرهم والثناء عليهم، والنزول عند حدّ إرادتهم ومشورتهم تلبية لهذا النداء الكريم، وقياما بالواجب نحو أدب

الأندلس الذى تعشقته من قديم وتوفرت حيناً من الوقت على مراجعة بحوثه واستطلاع مايتصل به ويمت بسبب إليه ؛ وكم كان يخفق قلبي كلما سمعت اسم الأندلس أو تحدّثت عنه ، حنيناً منه إلى ما كان هناك للإسلام والعربية من عز ومجد ، وقوة وسلطان .

قرأت فى مؤلفات القدامى ، وأخذت نفسى بشىء من الأناة والصبر ، فهى بوضعها غير مرتبة ولا مهذبة . وبعد جهد وعناء فى مراجعة هذه الكتب ، خرجت بشىء من أدب الأندلس وتاريخه ، ثم تبعت ذلك بمطالعة ما كتبه المعاصرون من شيوخ الأدب وأعلامه ، وذهبت فى منتديات الأندلس أستملح الطرف وأتخير الحديث ، ودلفت إلى مجالس الملوك أتسمع إلى وحى الشعر وسحر البيان ، وجعلت من ذلك ومن شبيهه لبنات فى صرح أدب الأندلس وعوامل ساعدت على نهضته ورفعته ، وانتهيت من هذا وذاك إلى ما قدمته للجنة الامتحان بالأمس ، ولمحبي تاريخ الأدب اليوم وأنت - بعد - واجد بين أعطاف الرسالة مباحث متنوعة وألوانا من الحديث مختلفة .

وقد أبحت لنفسى - فيما كتبت - أن أتخير بعض الآراء وأخالف بعض الكاتبين ، وأن أرجح مايطمئن إليه قلبي وتقوى فى نفسى الأدلة على أنه الحق ، وما ارتضيت من رأى ولا صدفت عن آخر إلا كان المنزع العقيدة .

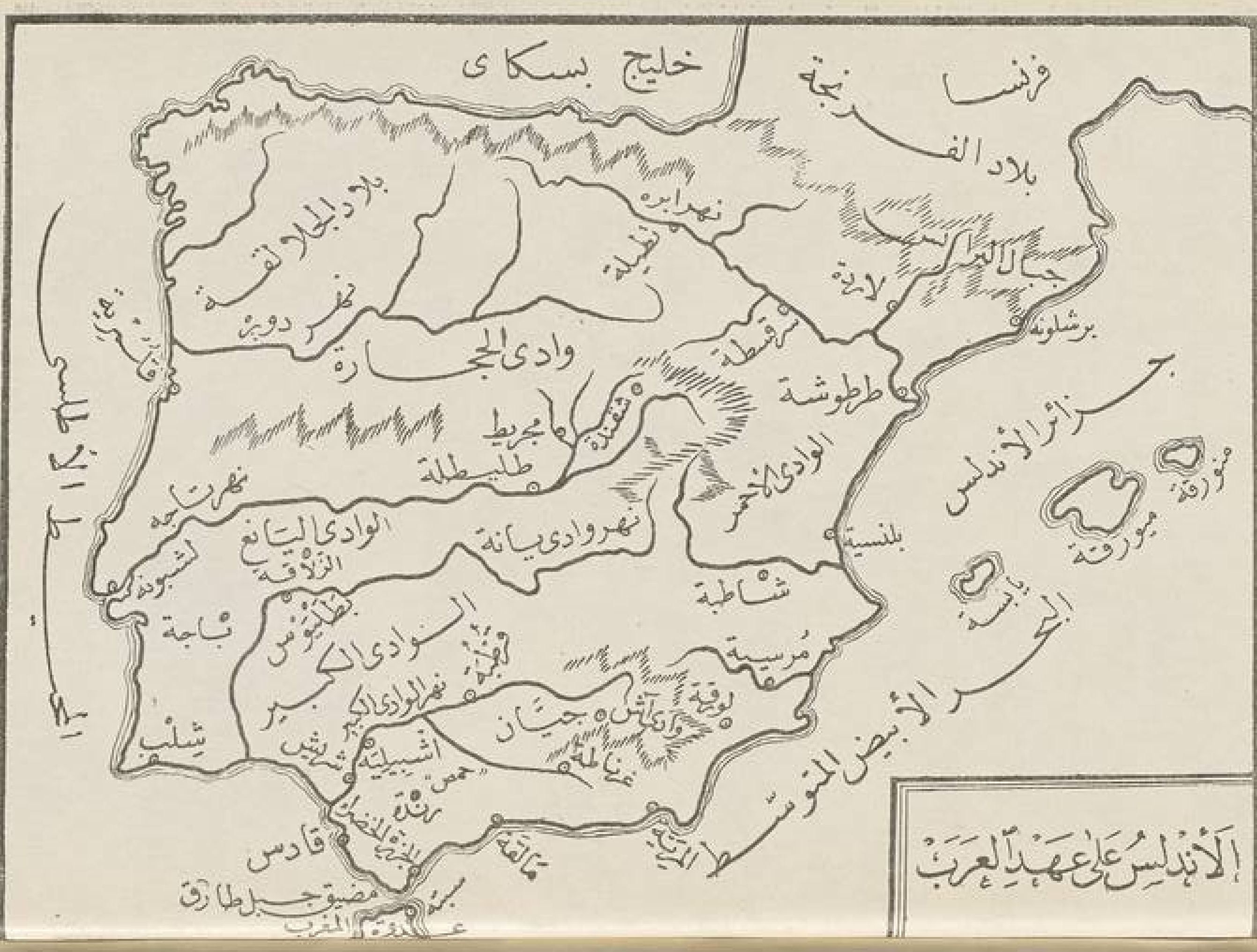
وشهد الله أنى ماقصدت فى ذلك إلى نصرة أحد أو محاباته ، ولكن إلى الحقيقة التى أرجو أن أكون قد أصبتها .

وبعد ، فإنّ لى كبير الثقة وعظيم الرجاء أن يكون القبول الذى تلقاه رسالتى عند جمهرة القارئين والمتأدّبين ، عين القبول الذى حظيت به عند حضرات أساتذتى الذين عهد إليهم أمر مراجعتها إذ كان لها منهم أجمل التقدير وأحسنه .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا
كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ،،

القاهرة فى : غرة المحرم سنة ١٣٥٥هـ
٢٤ مارس سنة ١٩٣٦م

المؤلف



الأندلس على عهد العرب

التعريف بالأندلس

الأندلس شبه جزيرة فى الجنوب الغربى من أوربة، يحدها شرقا البحر الأبيض المتوسط، وغربا المحيط الأطلسى، وشمالا خليج بسكاى، وجنوبا مضيق جبل طارق الذى يفصلها عن عدوة المغرب بأفريقية، كما تفصلها عن فرنسا جبال البرانس «أو الثنايا كما كان يسميها العرب» وهى فى شمالها الشرقى

وقد أسماها الإغريق «أيبريا» حين حكموها قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة، ولما استولى عليها الرومان أول القرن الثالث الميلادى سموها «هسبانيا»، ثم أغار عليهم الوندال واحتلوها منهم فخلعوا عليها اسما مأخوذا من اسمهم فقالوا «واندالوسيا» ولم تزل بهذا الاسم حتى أخذها العرب من القوط فسموها «أندلوش» - كما يقول ابن خلدون - ثم أطلقوا عليها اسم الأندلس وقالوا جزيرة الأندلس من باب التغليب لما رأوا من إحاطة الماء لمعظم جهاتها. كما قالوا فى شبه الجزيرة العربية: «جزيرة العرب»

والأندلس إقليم طيب التربة خصيب الأودية، به كثير من الجبال التى تكتنف مراعى واسعة وسهولا ممرعة. تشقها أنهار عظيمة وجداول كثيرة، وبه أشجار باسقة ورياض ناضرة. وبساتين حافلة ومزارع كثيرة وهو جم الخيرات وافر الفواكه، باسم الأزهار كثير الرياحين، كما قال ابن خفاجة يصف محاسنه:

يا أهل أندلس لله دركمو ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركمو ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وهو جيد الهواء معتدل المناخ ، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وسطة من الحال ، ولقد يشير إلى ذلك المرحوم أحمد شوقى بك أمير شعرائنا ، فى سينيته التى نظمها أيام منفاه بالأندلس إذ يقول :

يا ديارا نزلت كالخلد ظلا   وجنى دانيا وسلسال أنس
محسنات الفصول لا ناجرفيها   بقيظ ولا جمادى بقرس
لا تحس العيون فوق رباها   غير حور حو المراشف لعس

رأى العرب بعد استيلائهم على ذلك القطر صفاء جوه وخصب أرضه ، وجميل موقعه وازدهار رياضه ، فأقبلوا مدفوعين بحب العمران والتجديد . يزيدون فى تجميله ويبالغون فى زخرفته ، فتخيروا من المدائن أجملها وبالغوا فى تنسيقها وتنظيمها حتى اشتهر فى عهدهم أكثر من عشر عواصم وثمانين مدينة عظيمة ، كان منها قرطبة عاصمة الأمويين : ثم أشبيلية قاعدة بنى عباد . وغرناطة عاصمة بنى الأحمر . وطليطلة وسرقسطة وبلنسية وشاطبة . ومرسية وبطليوس . ومالقة والمرية ، وغيرها كثير تحدثوا عنه فى شعرهم ونعتوه بأجمل النعوت وأكثروا فى ذلك مما يدل على فرط حبهم لبلادهم وتلهفهم عليها ، ومن أحب شيئا أكثر من ذكره ، لا . بل عدوا ما فيها من معايب ، محاسن ومفاخر . كما نرى ذلك فى قول أبى الحسن بن حريق :

بلنسية قرارة كل حسن   حديث صح فى شرق وغرب
فإن قالوا محل غلاء سعر   ومسقط ديمتى طعن وضرب
فقل هى جنة حفت رباها   بمكروهين من جوع وحرب

وبنوا المساجد وشيدوا القصور ، وأقاموا المعاقل وأنشئوا الحصون ، وعنوا بالزراعة وفلاحة البساتين ، وافتنوا فى غرس الأشجار وتنمية الأزهار وأوصلوا إليها المياه من أعالى الجبال وأبعد المراحل ، وجلبوا من مصر والشام وغيرهما أنواعا كثيرة من النبات الذى لم يكن بالأندلس وعالجوا زراعتها حتى غدت صالحة لجو بلادهم . وأصبح قطرهم حقيقا بقول شاعرهم :

قطـــر كأن نسيمه نفحات كافور ومسك
وكأن زهر رياضـــه در هوى من نظم سلك

« فملك كل ذلك من نفس العربى ورقق من شعوره . وهذب من خياله وصقل من ذوقه . وزاد فى جمال شعره وفنون الكتابة لديه . وميزه بذلك من أهل المشرق . وجعل للأندلسيين صبغة خاصة فى الأدب العربى . وفتح أمامهم بابا واسعا من الخيال » .

أما سكان الأندلس فهم أمشاج من قبائل شتى تمثل الطوائف التى أتاح لها الزمن نزول تلك البلاد فى عصور التاريخ المتتابعة . فقد حدثوا أنه نزلها من قديم الأيام قبائل من جبال البرانس . ألعلهم الذين قال عنهم المقرى : إنهم قوم عمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرا على دين التمجس والإهمال والإفساد فى الأرض حتى أخذهم الله بذنوبهم وحبس عنهم الخيرات فهلكوا . ثم ابتعث الله لعمارتها من بعدهم قوما من الأفارقة أقاموا بها دهرا حتى أجلاهم غيرهم . وهكذا توالت عليها القبائل . وكل ذات شدة تنتزعها من أيدى القائمين عليها والمتمتعين بخيراتها . إلى أن عرفها الإغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد . ثم آلت إلى الرومان . ثم

إلى الواندال . ومن بعدهم جاء القوط فأجلوهم عن البلاد وألزموهم أن ينحسروا إلى جبال البرانس ، وظل القوط قائمين عليها . على استقلال تارة . وعلى تبعية للرومان أخرى . حتى افتتحها العرب فى أواخر القرن الأول الهجرى . ورفعوا لواءهم عليها ثمانية قرون وسنين .

ولم تك هناك ديانة ثابتة سيطرت على سكانها فى جميع العصور ومع اختلاف الحكام ، ولكنهم كانوا يتبعون من يلى أمورهم ويدينون بدينه وحين دعاهم العرب إلى الإسلام آمن به الكثيرون لما رأوا فيه من سماحة ويسر . وتباطأ البعض باقين على ما كانوا يعتقدون من يهودية أو نصرانية . وكانت الغلبة للدين الإسلامى فى كل جهة كان الحكم فيها للمسلمين . إلى أن زالت دولة العرب من الأندلس وامّحت صفحاتها هناك ، فأعلنت المسيحية وأكره من بقى من المسلمين بها على اعتناقها وتحولت مساجدهم كنائس وبيعا . ورنت فوقها دقات الأجراس بعد صوت الأذان . والنداء بحى على الصلاة . حى على الصلاة .

أكتب ذلك وفى القلب ما فيه من ألم ممض وهم لاعج . وحزن يقطع نياطه ويخترق شغافه أسفا . على ذلك الملك الذى ضاع . والحمى الذى انتهكت حرمته . والتراث الذى لم يحتفظ به وارثوه . وكان سبب فقدانه من أيديهم شهوة التغلب على كراسى الحكم . والتمتع بالرياسة والاستئثار بالملك . وانقيادهم لأهواء نفوسهم . وتخاذلهم عما يقوى سلطانهم ويشد عزائمهم . ولقد صدق الشاعر إذ يقول :

إذا ماأراد الله إذلال أمـــة   رماها بتشتيت الهوى والتخاذل

وأختم حديثى فى التعريف عن الأندلس بمـا كتبه أبو عمران موسى

ابن سعيد فى جوابه لأبى يحيى صاحب سبته لما استوزره مستنصر بنى عبد المؤمن . فكتب إلى موسى هذا يرغبه فى النقلة عن الأندلس إلى مراكش . فكان مما أجاب به موسى :

وأما ماذكر سيدى من التخيير بين الأندلس وبين الوصول إلى حضرة مراكش فكفى الفهم العالى من الإشارة قول القائل :

والعز محمود وملتمس   وألذه ما كان فى الوطن

ثم قال بعد أن مدحه :

«وبعد هذا فكيف أفارق الأندلس . وقدعلم سيدى أنها جنة الدنيا بما حباها الله به من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وكثافة الأفياء . وأن الإنسان لايبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس .

هى الأرض لاورد لديها مكدر   ولاظل مقصور ولاروض مجدب

أفق صقيل . وبساط مدبج . وماء سائح . وطائر مترنم بليل ، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟ فياسموأل الوفاء . وياحاتم السماح وياجذيمة الصفاء ، كمل لمن أملك النعمة بتركه فى موطنه . غير مكدر لخاطره بالتحرك من معدنه» .

ويعتذر بعد ذلك عن هذا الدلال فى أسلوب يحمل قارئه على تلبية طلبته . فيقول :

ورب قائل إذا سمع هذا التبسط على الأمانى : ماله تشطط وعدل عن سبيل التأدب وتبسط . ولاجواب له عندى إلاقول القائل :

فهذه خطة مازلت أرقبها   فاليوم أبسط آمالى وأحتكم

الأندلسيون قبل دخول العرب

كان سكان الأندلس فى سابق عهدهم أهل بداوة وهمجية ، لم يعلم التاريخ لهم مدنية ولا ثقافة . ولم يعرفوا بوحدة قومية أو رابطة وطنية . وكان كل من يغير عليها يحتل مايتاح له من أجزائها . ويسيطر على من يطمئنون إلى المقام معه والركون إليه ، ويلقنهم ماله من معارف وماهو عليه من عادات وأخلاق .

ولم يزل أهلها كذلك . ينتقلون من حكم قوم إلى حكم آخرين . حتى حكمها الإغريق واطمأنت جمهرتهم إلى سكناها فلقنوا معاشريهم . من أهل البلاد مالهم من ثقافة وأخلاق . ولما احتلها الرومان وشمل سلطانهم معظم جهاتها . نشروا فى سكانها معارفهم وحضارتهم . وأذاعوا بينهم لغتهم وآدابهم وأنشئوا المدائن وشادوا القصور . وحرضوا على الفروسية والشجاعة ، فاستيقظ أهل البلاد من سباتهم وتنبهوا من غفلتهم . وتلقوا بشغف ورغبة ماأذاع الرومان بينهم من أنواع المعارف وألوانها . فانتقلوا إلى حال جديدة سداها ولحمتها تقليد الرومان فى عاداتهم وأخلاقهم . والتنافس فى محاكاتهم بإنشاء القصور وإقامة الأبنية واتخاذ الرياض والبساتين . والافتنان بعد فى مظاهر البهجة والسرور والترف والنعيم .

وفى أوائل القرن الخامس الميلادى استولى القوط على بلاد الأندلس بعد أن طاردوا قبائل الواندال وأسكنوهم رءوس الجبال - كما تقدم - وحين تم لهم ماأرادوا من بسط نفوذهم على تلك البلاد وأهليها . امتزجوا بهم وخالطوهم . ونشروا لهم - كما نشر غيرهم - مدنيتهم وفنهم . وما كانوا عليه من حضارة وعادات . فعكف أهل البلاد على تقليدهم . وأولعوا بمحاكاتهم

كما أولعوا من قبل بمحاكاة الإغريق والرومان .

وقد قدمت أنه لم تكن بالأندلس ديانة ثابتة سيطرت على سكانها فى جميع العصور ومع اختلاف الحكام . ولكنهم كانوا يتبعون من يلى أمورهم ويدينون بدينه ؛ وأذكرهنا: أنه فى عهد القوط كثر مجىء القسيسين إلى الأندلس وتغلغلهم فى أنحائها. يبشرون بالمسيحية ويدعون إليها . وتم الأمر بدخول النصرانية البلاد واعتناق الملك لها حول سنة ٥٨٨ م وتابعته رعيته فى ذلك واقتدت به ، « والناس على دين ملوكهم » .

وكان ماكان من تحكم رجال الدين فى الشعب . ومن استبداد الملوك والغلو فى فرض الضرائب والمكوس. وإثقال كواهل القوم بكل مايجرح عزتهم ويدمى أفئدتهم ، أقول كان من ذلك وغيره : ماجعل المحكومين يئنون من هذه المعاملات القاسية وذلك الحكم البغيض . ويتحينون الفرص للخروج على تلك الحكومة الجائرة الباغية . ويتطلبون الخلاص من هذا العهد المظلم والليل المدلهم . فكان أن اقتحم العرب بلادهم ، وغزوهم فى عقردارهم . فلم يجدوا منهم مقاومة تصدهم عن امتلاك المدن والقرى ، لما كانوا يحملون للذريق مليكهم من حقد وكراهية ؛ ولم يمض غير قليل حتى خضعوا للعرب ودخلوا فى طاعتهم .

حملهم على ذلك ـ إلى جانب ماتقدم ـ ماسمعوه من حسن معاملة العرب للبربر جيرانهم بأفريقية ، وسماحة الإسلام ، وجمال تعاليمه ، فطرحوا تعاليم القساوسة وأوامرهم ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً . واهتدوا بهدى القرآن ونوره .

ورحب (القوم) بالإسلام حين رأوا أن السلام وأن العدل مغزاه

فتغيرت حال البلاد ، وتبدلت أخلاق أهلها وعاداتهم إلى أحسن مما كانت عليه من قبل ، وأضافوا ماورثوه من هؤلاء الحكام السابقين وغيرهم إلى ما علمه لهم المسلمون . وما كسبوه من حكومتهم العادلة ، وذلك ما نتحدث عنه — إن شاء الله تعالى — عند الكلام على «الأندلس بعد فتح العرب»

فتح الأندلس

أشرقت شمس الإسلام على الأمة العربية وانتشر شعاعها فى كثير من بقاع الأرض بفضل سماحة الدين وقوة أهله . وشجاعتهم النادرة وهمتهم الأبية . وإقدامهم على الغزو والجهاد ، غير هيابين ولا وجلين . يريدون نشر الدين الإسلامى وإعلاء كلمته فى كل بقعة تطلع عليها شمس النهار . لما بدا لهم من مزاياه وعرفوا من محاسنه .

وقد أحدثت عزة الظفر فى نفوس قوادهم تطلعاً إلى فتح البلاد النائية والممالك البعيدة . ليخلصوا أهلها من رجس الشرك والوثنية . ومن المظالم التى كانت تصب عليهم ، وكان من ذلك رغبة القائد موسى بن نصير فى فتح بلاد الأندلس . لما بلغه من كثرة خيراتها . وجمال موقعها . وخصب أرضها . واضطراب الأحوال فيها ، فوجه إليها مولاه طارق بن زياد والى طنجة . سنة ثنتين وتسعين هجرية على رأس جيش يزيد على اثنى عشر ألف مقاتل من العرب والبربر . فعبروا البحر بين طنجة والجزيرة الخضراء «بالأندلس» ونزلوا جبل الفتح الذى سمى بعد جبل طارق . والتقى جيش المسلمين وجيوش القوط ودارت الحرب وكان النصر لطارق وصحبه .

وسار موسى حين علم بذلك إلى الأندلس سنة ٩٣ هـ فى مدد تمم به مع طارق فتح البلاد وإخضاعها . وأورثهم الله أرض أعدائهم وديارهم وأموالهم (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم)

عصـــر الولاة

بعد أن أسس موسى وطارق بالأندلس دولة واسعة وشادوا ملكا عريضاً . رجعا عنها إجابة لرغبة الخليفة الوليد بن عبد الملك . وخلف موسى عند رجوعه ابنه عبدالعزيز واليا عليها .

منذ ذلك الحين صارت الأندلس ولاية تابعة للخلفاء الأمويين بدمشق وما زالت تختلف عليها الولاة من قبلهم ويخطب باسمهم فيها إلى أن أفل نجمهم بالمشرق سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية حين استولى العباسيون على الخلافة منهم . فتبعتهم الأندلس فيما تبعهم من بلاد الإسلام . وحكمها عمال من قبلهم مباشرة . أو من قبل من كانوا يولونه القيروان أو مصر وظلت كذلك إلى أن استقل بها عبد الرحمن الداخل وانتزعها من يدى عاملهم يوسف بن عبدالرحمن الفهرى . بعد موقعة بظاهر قرطبة انكشف فيها يوسف وانفض عسكره من حوله سنة ١٣٨ هـ فى عهد المنصور العباسى .

وقد حكم الأندلس فى الفترة التى بين الفتح واستيلاء الداخل عليها عشرون واليا «من قبل الأمويين والعباسيين» أولهم عبد العزيز بن موسى ابن نصير الذى ألف لجنة تضع القوانين للتوفيق بين مصالح الغالبين والمغلوبين وشجع على الاختلاط بالمسيحيين ومصاهرتهم بزواجه «أيلونا» أرملة «لذريق» ملك القوط الذى قتله طارق ، وآخرهم يوسف الفهرى الذى

غلبه عليها الداخل فانتقلت بذلك إلى عصر جديد وحكم مستقل غير تبعى .

وفى عصر الولاة لم يشتهر بالأندلس علم ولا أدب . لاشتغالهم بإخماد الفتن وتثبيت الأركان وتقرير الأمن . ولأن العناية بهذين من سيما الملوك الذين يرون فى العناية بهما تنوية لملكهم ورفعة لشأنه .

الدولة الأمـــوية

حينما استلب العباسيون الخلافة من بنى أميـة بالشام وتتبعوهم بالقتل . فر عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان «المقلب بالداخل» ولحق بالمغرب ومنه بعث مولاه بدراً إلى من بالأندلس من موالى المروانيين وكان يعلم مابها من عصبية حامية الوطيس بين اليمنيين والمضريين .

وإذ عرف استعدادهم لنصرته وتطلعهم إليه . جاز البحر سنة ١٣٨ هـ ونزل بأرض الأندلس فبايعه بإمارتها كثير من أهلها ودخل فى طاعته جمع من رؤساء المدائن . وانتهى أمره بالتغلب عليها واعتلاء عرشها .

جدّد عبدالرحمن بذلك : السلطان للأمويين بأوربة . وأسس هناك دولة مستقلة ثابتة الدعائم وطيدة الأركان . زاهرة بالعلوم والآداب وضروب الإصلاح . ورغّب فى الهجرة إليها فأمّها جمهرة من المشارقة كانت لهم ـ بفضل مساعدته ـ أياديض فى نشر العـلوم والمعارف هناك . كل ذلك فوق اشتغاله بالأمور السياسية وصدّ غارات المهاجمين من الأعداء وإطفاء الفتن التى كادت تذهب بالبلاد لولا حكمته ومضاء عزمه .

وورث أبناؤه وأحفاده ذلك الملك الضخم وتلك الدولة الممتعة ، وازدهرت الحضارة وعلا شأن المملكة فى زمن الناصر (عبد الرحمن

الثالث) ثامن خلفائهم حتى خطب الملوك المعاصرون له وده وحملوا إليه الهدايا وعقدوا معه معاهدات الصداقة وحسن الجوار ، وبقى ذلك فى عهد ابنه الحكم الذى اشتهر بحبه للعلم وكتبه وسعة الإنفاق عليها وتوسيع المكاتب لها .

ولما تولى من بعده ابنه هشام المؤيد كان صغير السن فحجبه «الحاجب» محمد بن عبد الله بن أبى عامر فى القصر واستبد هو بالسلطة دونه وصار يعمل باسمه فى رسوم الخلافة وتسمى بالمنصور وأمر أن يحيا بتحية الملوك وخلف المنصورَ فى ذلك ابناه عبد الملك وعبد الرحمن فسارا على سنن أبيهما ، بل رأى عبدالرحمن أن يستأثر بما بقى من رسوم الخلافة . فطلب إلى هشام ذلك فولاه عهده . فكانت تلك التولية سبب خروج الأمويين والقرشيين على هشام وخلعه وتولية غيره ، وصارت الأندلس فوضى لا نظام لها واضطرب أمر الخلافة وتطلع كثيرون إلى مقامها لظنهم فى أنفسهم القوة ومعالجة الأمور بالحكمة والسداد أكثر ممن يلون أمورهم .

وفى تلك الفترة الأخيرة «من حكم الأمويين» ظهر من المغرب : القاسم وعلىّ ابنا حمود ودعوا لأنفسهم بالخلافة وساعدهم كثير من البربر حتى قتلوا المستعين الأموى وملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة هجرية . ودانت البلاد لهم ثم خرجت من أيديهم ثم رجعت إليهم . وهكذا كان الحكم متنازعا بين الحموديين تارة والأمويين أخرى حتى خلع الجند المعتز آخر الأمويين فاستبد بأمر قرطبة سنة ٤٢٢ هـ : الوزير أبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور فى وقت كانت الأندلس تموج فيه بالفتن الداخلية وتذخر بكثير من الاضطرابات التى أدت إلى هلاك الكثيرين وتخريب المدن

وهدم القصور . ومنذ تلك السنة «سنة ٤٢٢ هـ» ابتدأ عهد ملوك الطوائف.

هذا، وعصر بنى أمية أسمى عصور المدنية الإسلامية بالأندلس وأزهرها وأحدبها على الأدب وأهله والعلم وكتبه . وهم أصحاب الفضل فى كل ماجاء بعدهم من وسائل التشجيع والرقى .

ملوك الطـــوائف

بعد ما انتهى عهد الخلافة واضطرب الأمر آخر حكم الأمويين وتفرقت جماعات المسلمين وكلمتهم صار ملك الأندلس بين الموالى والوزراء ووجوه العرب، فاقتسموا خططها واستقل كل بما فى يده منذ سنة ٤٢٢ هـ حين استبد ابن جهور بأمر قرطبة . وظل ذلك العهد إلى سنة ٤٨٤ هـ

وكان من أشهر هؤلاء الملوك : بنو عباد بأشبيلية ودانت لهم قرطبة بعد أن غلبوا بنى جهور عليها ، ثم بنو هود بسرقسطة وبنو صمادح بالمرية وبنو الأفطس المعروفين ببنى المظفر يبطليوس .

وهؤلاء الملوك المتعددون الطامع كل منهم فى مملكة غيره وضمها إليه قد دب بينهم كذلك الشقاق والفوضى . وحالفهم التخاذل والاضطراب وأكرهوا على دفع الجزية لملك الإسبان الذى انتهز فرصة انشقاقهم وتفرقهم . فأخذ يثل عروشهم واحدا إثر آخر . فاستنصروا عليه بأمراء المغرب الذين نصروهم لهوى فى نفوسهم ظهر بعد . وصارت عروش أولئك الملوك نهبا بين ملك الإسبان ويوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش حتى استولى عليها وغلب الإسبانيين على أمرهم وألزمهم جانب الدفاع .

وعصر ملوك الطوائف ؛ وإن ضعفت فيه الحال السياسية فهو ؛ عصر رقى للغة وآدابها وازدهار للعلوم والفنون . لانتفاعهم بماترك الأمويون من مدارس ومكاتب . وتنافسهم فى جذب الأدباء إليهم . واشتراك كثير من ملوكه ـ ولا سيما بنى عباد ـ فى الشغف بالأدب ومجالسه وعنايتهم بالشعر ونظمهم فى أغراض مختلفة منه .

ولولا ما كان هناك من شقاق قضى على هؤلاء الملوك فى النهاية . لكان ماوصلوا إليه من العلوم والآداب مضرب المثل فى جميع العصور .

دولة المرابطين

فى آخر عهد ملوك الطوائف . كان من قسوة الإسبان عليهم وإرغامهم لهم على دفع الإتاوات لجباتهم . ماحدا بالمعتمد بن عباد ـ أعظم ملوكهم ـ أن يجتاز البحر إلى أفريقية مستصرخا بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين . فلبى يوسف دعوته ودخل بجيشه بلاد الأندلس فانضم أهلها إليه وقابلوا الإسبانيين عند مدينة الزلاقة فحملوا عليهم حملة كان النصر فيها حليف المؤمنين . ورجع المرابطون إلى أفريقية وكلهم أمل فى ضم الأندلس إليهم وشغف بما فيها من جمال وثروة . وماهى عليه من ضخامة ملك وطيب عيش ، فأمطروها الرسل والرسائل مهيئين بذلك لما أملوا من امتلاكها . وجاء يوسف إليها ثانية يرد عدوان ملك الإسبان ، بطلب ابن عباد ، وانتهى أمره بضم الأندلس إليه بعد خلع ملوك الطوائف سنة ٤٨٤ ﻫ غير آبه بما التزمه من عهود وما أخذ على نفسه من مواثيق ، وتلك عاقبة من يستعين بغيره ويطمئن إليه فى نصرته ولا يعتمد على نفسه فى حفظ مملكته وتقوية دولته .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة　　ونام عنها تولى رعيها الأسد

من ذلك الوقت تبعت الأندلس حكومة مراكش . إلا سرقسطة فإنها بقيت فى يد بنى هود لاعتصامهم بالفرنجة وظلت الأندلس فى حكم المرابطين إلى أن دب الشقاق بين أحفاد ابن تاشفين وشغلوا عن رعاية مصالح الناس . بل أساءوا إليهم ، فاضمحل ملكهم سنة ٥٤٢ ﻫ وقامت دولة الموحدين على أنقاض دولتهم

وفى عصر المرابطين فتر نشاط الأدب وركدت ريح العلوم . بل نكصت على عقبها ورجعت القهقرى خطوات عدة . لاشتغال الناس بالمظالم والنكبات التى حلت بهم ، عن كل علم وفن .

دولة الموحـــدين

أسس الموحدون دولتهم بمراكش بعد أن غلبوا أحفاد ابن تاشفين وانتزعوا الملك من أيديهم . ومؤسس هذه الدولة محمد بن تومرت الحسنى الملقب بالمهدى . الذى تلقى العلم على كثير من مشيخة المشارقة كالغزالى والشاشى وابن عبد الجبار ، وقد عمل على أن ينال الحكم من طريق العقائد والأمر بالمعروف . فتصدى لتدريس علم الكلام فى المغرب . ونشر مذهب الأشاعرة به . وادعى — حين رأى كثرة أشياعه — أنه المهدى المنتظر ، ولانتشار الجهالة والأمية بين طبقات البربر وافقه الكثير على دعواه والتفوا حوله .

ومنذ استنجد به الأندلسيون عبرت جيوشه البحر ودخلت البلاد وأزالت منها بقايا المرابطين ، وظل حكمهم من سنة ٥٤٢ ﻫ إلى سنة ٦٢٨ ﻫ :

وإذ استشعر ابن تومرت من نفسه دنو الأجل . بايع عبد المؤمن بن على

وزيره وقائد جيوشه وساعده فى قيام الدولة، ثم اطرد الملك فى أبناء عبد المؤمن إلى أن ضعفوا عن حماية الأندلس بعد «وقعة لورقة»، فسمت رجالات الأندلس وأعقاب العرب وأجمعوا أمرهم على إخراجهم، فثاروا بهم لحين وأخرجوهم، وتولى كبر ذلك محمد بن هود الجذامى «من أعقاب بنى هود أصحاب سرقسطة من ملوك الطوائف» وتغلب على شرقى الأندلس غير أنّ دولته كانت قصيرة الأجل لم تتجاوز أعواما قليلة قام فى آخرها ثائر فى كل جهة من جهات الأندلس يطلب الملك لنفسه أو يدعو به إلى غيره، فاضطرب حبل المملكة واسترجع الإسبان معظم بلاد الأندلس ولم يسلم من غائلتهم إلا ما بقى لبنى الأحمر بعد. وهو ماوراء غرناطة فى الجنوب الشرقى من ذلك القطر الفسيح.

وفى عصر الموحدين ابتدأ الانتعاش يتمشى إلى العلوم وعكف بعض العلماء على أشياء كانوا ممنوعين من ذكرها. وساعد على ذلك إظهار بعض خلفائهم الرغبة فى إحياء مادرس على أيدى المرابطين، وفى الحق إنّ تشجيعهم للعلماء لم يكن متوسعا فيه ولم يطل أمده لذا لم ينل الأدب من عنايتهم قليل ولا كثير.

دولة بنى الأحمر

كان قيام دولة بنى الأحمر حين كثر الثوار بالأندلس آخر عهد بنى هود «الذين اغتصبوا الملك من الموحدين» فقد رأى مؤسس دولتهم محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر ـ المنتهى نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصارى سيد الخزرج ـ توغل «ملك إسبانيا فى بلاد المسلمين هناك

منتهزاً فرصة انشقاقهم بعضهم على بعض ، فهب مدافعاً عن المسلمين وبويع له بالأمر فأقام أركان دولته حول سنة ٦٣٠ هـ وأنشأ حكومة قاومت الإسبانيين قرابة خمسين ومائتين من السنين. واتخذت غرناطة مقرّاً لها.

وقد عمل ابن الأحمر على استرجاع ما استولى عليه الإسبان من الثغور والقواعد ولكن الحيل أعجزته والقوة أعوزته فلم يرجع غير القليل من ذلك بمساعدة السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى صاحب مراكش على عهده ، وتداول بنو الأحمر الملك واحداً إثر آخر حتى جاء محمد بن يوسف الملقب بالمخلوع فى المدة الثانية فقوى جيوشه وأساطيله واسترد كثيراً من المدن والحصون . ومنع الإتاوة التى كان يدفعها سلفه للإسبانيين ، وكادت البلاد تستعيد مجدها السابق . لولا الشقاق الذى دب بين وارثى الملك وشهوة السلطان التى جعلتهم يستعينون بعدوهم بعضهم على بعض ويعاودون دفع الجزية له عن يد وهم صاغرون .

ولم تزل الحال تنتقل من حسن إلى سيء . ومن سيء إلى أسوأ إلى أن ولى عرش غرناطة أبو عبد الله محمد بن على بن سعد آخر ملوك بنى الأحمر . لا بل آخر ملوك المسلمين بالأندلس فواجهه زواج «فرديننده ملك ارغون «بايزابلا» ملكة قشتالة وتكوينهما جيشاً لجباً للقضاء على تلك البقية الباقية من بلاد المسلمين فلم يقدر أمام استعدادهما وقوتهما أن يعمل شيئاً وخاصة بعدما صارحه عامة شعبه أنهم لا يستطيعون القتال وأنهم مستعدون لقبول شروط الصلح التى يعرضها ملك الإسبان عليهم .

لم يجد أبو عبد الله ـ حين ذاك ـ بدّاً من تسليم غرناطة ونزوله عن عرش الحمراء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ تفيض عينه بالدم

الحائر. ويتقطع قلبه حسرة وأسفا على ذلك الملك الضائع والمجد الذاهب . مخلفا وراءه القصور تنعى من بناها . والحصون تبكى حراسها وأجنادها وتندب حظها العاثر وعزها المفقود ، وغادر أبو عبد الله الأندلس إلى « فاس » مستصحبا أسرته وبطانته . كما غادرها كثير من المسلمين الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وتحملوا كثيرا من الأذى فى سبيل بقائهم على الإسلام واحتفاظهم بدينهم ، وأصبحت الأندلس من المسلمين وملوكهم كأن عمرو بن الحارث الجرهمى عناهم بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العواثر

وكما قال الرندى ـ شاعرهم ـ فى رثائه :

أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان

وكان عصر بنى الأحمر عصر نور وعرفان وتشجيع للعلوم والآداب وإكرام لذويهما والمبرزين فى فنونهما ، ولولا القدر الذى حكم بضياع تلك الدولة الناهضة . لكان ماوصلت إليه فى العلوم والمعارف خير معين يرده الكتاب والمنشئون . وأسمى غاية يسير إليها عشاق العلم والأدب

الأندلس بعد فتح العرب

أسلفنا أن الأندلسيين كانوا قبل الفتح فى همجية وفوضى . لا نظام يجمعهم ولا قومية تضمهم ، وأنهم لم يتذوقوا الثقافة ولم يعرفوا طعم الحضارة إلا فى بعض أيام الإغريق والرومان والقوط ، على أنهم قد

شغلهم عن ذلك وبغضهم فيه ، ما أكرهوا عليه من ضرائب ومكوس . وماتحملوه من مغارم وإتاوات ، ونفرهم من أصحاب تلك الحضارة وذلك النظام كثرة مظالمهم وعنتهم . وتشتيتهم لهم فى أطراف الجبال والكهوف وإحداث فوارق بين أبناء الشعب الواحد من شأنها أن تغضب النفوس وتثير العواطف . وتهيج غرائز الحقد والضغينة .

لذلك كان عامة الشعب فى تطلع إلى حاكم جديد يلى أمورهم ويتنفسون الصعداء من حكامهم القدامى بين يديه ، وكان ذلك إلى جانب اعتداء «لذريق» على كرامات الأشراف وفعله بابنة يُليان المرباة فى قصره (١) من أهم الأسباب المهيئة لسيطرة العرب على الأندلس واستتباب أمرهم فيها

نعم دخل العرب الأندلس . وقد غلت صدور القوم . وضاقوا ذرعا من قسوة حكامهم وجور حكومتهم . وضربت الفوضى أطنابها ، وبلغت القلوب الحناجر من هول ماحل بها من العسف والاستبداد ، فبدلوا الناس من خوفهم أمنا ومن تشتيتهم اجتماعا ومن الجور عدلا ورحمة وأزالوا الفوارق التى كانت تفصل بين الطبقات . وقضوا على امتياز الأشراف ورجال الدين .

(١) روى المؤرخون أنه كان من عادة الإسبانيين تنشئة بنات الأشراف فى قصر الملك ليؤدبن بالآداب الملوكية على حسب ما كانوا يرون ، فإذا بلغت إحداهن مبلغ النساء زوجها الملك لمن يرى فيه الكفاءة لها بمحضر من وجوه المملكة وبطارقتها فكان فى ضمن أولئك ابنة يوليان حاكم الجزيرة الخضراء ، وقد حدثوا أن الملك «لذريق» رآها يوما فأعجبته . فدعاها إلى نفسه فأبت عليه وقالت لا والله حتى تحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجنى بعد مشورة أبى . فغلبته نفسه فمسها على كره منها فكتبت إلى أبيها تعلمه بذلك فنقم على الملك وأضمر له الضغينة وكشف للعرب عن عورة القوط فانتهزوا الفرصة .

سنوا المساواة لاعرب ولاعجم مالامرئ شرف إلا بتقواه

وفرضوا الضرائب على الجميع بالقسط وأباحوا لمن شاء من اليهود والنصارى أن يظل على دينه وأن يحتكم إلى من يريد من أهل ملته أو غيرهم لايخشى ظلما ولا يرهب عنتا ، واختلط العرب بأهل البلاد وسلالات الملوك اختلاط الحاكم العادل بالمحكوم المطيع . وصاهروهم وأنجبوا من نسائهم من تولى الخلافة وساس الناس . وامتزجت عادات الغالبين بعادات المغلوبين وأخلاق هؤلاء بأخلاق أولئك . فتكون من الكل شعب جديد جمع مواهب وميزات تلك الشعوب التى نعمت بسكنى الأندلس وتأثرت ببيئتها وجمال الطبيعة فيها . وضم إلى حضارته ومدنيته حضارتها ومدنيتها وما ورث من معارف وصناعات ، فكان لذلك كله أثر واضح فى أدب الأندلسيين ولغتهم . وظهور جلىّ فى الحياة الاجتماعية الجديدة . تمثل فى عناية العرب بالمبانى العظيمة وأنواع الزخارف ، وفى الولوع باتخاذ الحدائق والرياض . والتفنن فى الأثاث والرياش ، والشغف بالموسيقا ومجالس الغناء .

ولم يكد يستقر ملك العرب وتهدأ حال البلاد من الفتن والاضطرابات حتى أخذ الخلفاء والأمراء فى توسيع دائرة العلم . وكان أول ماوجهوا همتهم إليه أن شجعوا علماء المشرق على الهجرة إلى الأندلس . فهرع إليها كثير منهم استلانوا معيشتها واستطابوا هواءها فخلعوا على أهل تلك البلاد ثقافة عقلية اقتبسوها من دراسة العلوم والفلسفة بالمشرق . واستنبطوها بالعكوف والتوفر على مزاولة تلك الفنون التى لم تكن بالأندلس قبل رحلتهم . فنمت وازدهرت وأتت أكلها سائغا شهيا ، وكانت بعد مادة للإفرنج بنوا عليها

معظم أسس مدنيتهم الحالية . التى كان الفتح العربى سببا فيها .

ثم بدا لهم أنّ الدولة لا يرتفع شأنها . ولا تبقى لها مكانتها بين الممالك . وأنّ الدين الإسلامى لا سبيل إلى تفهمه وتذوق أسراره . وتضوّع أريجه وانتشار ضوئه . إلا بالعناية بلغة القرآن وأدب تلك اللغة . وبذل الجهود فى نشرها وتعميم معرفتها . حتى يستطيع من يودّ عرفان ذلك الدين الجديد فهم أسرار الكلام العربى . والوقوف على مافى لغة الدين من جمال وروعة وما فى دستوره من عظات وعبر ، فعنوا بذلك كله وتوسعوا فيه إلى الغاية وبنوا المعاهد والجامعات . وأثابوا المبرزين من العلماء والأدباء . وعملوا من وسائل التشجيع ما تقدم بفنون العلم والأدب خطوات واسعة جريئة ولم يبالوا بما بذلوا فى سبيل ذلك من نضار . ولا بما أنفقوا من النفائس حتى ازدهرت اللغة وأينعت آدابها . وبلغت من الرفعة والسمو والتغلغل فى النفوس مكانا عليا .

وإجمال القول أن الفتح العربى أوجد شعبا أندلسيا جديدا . تغلب عليه الصبغة العربية . ويتحلى بصفات ومزايا كسبتها إياه الأحداث الدينية والسياسية والاجتماعية هناك ، وجعلته يتأثر بها فى كل شىء . ويخرج للناس من العلوم والمعارف والآداب مالا يزالون ينتفعون به إلى اليوم .

الحياة العقلية بالأندلس

شُغل العرب - منذ استقروا فى بلاد الأندلس وأمنوا على أنفسهم من غارات الإسبانيين. وحروبهم - بالعكوف على دراسة العلوم الشرعية واللسانية ونقلوا كثيرا من كتب المشارقة وتوفروا على دراستها وحذق مافيها . ورحلوا إلى الشرق للاستزادة والتخصص فى أنواع العلوم وفروعها ؛ وقد أمدتهم بلادهم الجميلة بصفاء الفكر وحسن القريحة . وقوة الذهن وسرعة الخاطر ؛ فبرعوا فى علوم الدين واللغة والأدب وبلغوا فيها جميعها مبلغا عظيما . تلمحه فى إنتاجهم الكثير الزائد . وفى مؤلفاتهم العدة وماهى عليه من جودة المادة ، وحسن التقسيم والتبويب .

وهم وإن سَبقوا فى ذلك وتقدموا إليه مسرعين ، فقد تأخروا فى الاشتغال بالعلوم الدخيلة كالفلك والرياضيات وعاقوا سير الفلسفة وباعدوا بين علمائهم والتوسع فى دراسة المنطق والعلوم الحكمية . بل منع الكثير من الملوك مزاولة فروع هذه المواد والعكوف عليها. حدث صاحب نفح الطيب حين استعرض حال الأندلسيين فى فنون العلم قال :

« وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فان لها حظا عظيما عند خواصهم ولا يُتظاهر بها خوف العامة . فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم . أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ، فان زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيرا ما يأمر

ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور ابن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجارى » .

وترجع أهم الأسباب التى جعلتهم ينفرون من هذه العلوم ويتركونها جانباً فى كثير من أيامهم . إلى : عدم التشجيع على نشرها ، بل إلى التعصب ضد من يظهر أنه يشتغل بها ويتوفر على دراستها ، وتغلب العصبية الدينية على كثير من ملوك الأندلس وأهلها . واعتقادهم أن هذه العلوم تنافى الدين ولا تتفق مع تعاليمه ، ومحاربتهم أربابها وإساءتهم اليهم ، ورميهم بالكفر والزندقة والإلحاد ، وترك جهلة العامة يشنعون عليهم بما يشاءون بل إباحتهم لهم التمثيل بمن يقضى نحبه منهم ونبش قبره وإحراق رفاته ، هذا إلى بعض مآرب سياسية هى التى حملت فريقا من الملوك على الممانعة فى دراستها وإحراق كتبها ومضايقة أهليها . كما فعل المنصور بن أبى عامر بتلك الكتب القيمة . التى جمعها الحكم بن الناصر . إذ أمر بإحراقها إزدلافا إلى العامة . وتقربا إلى الفقهاء الذين كانوا يشنعون على أصحابها ويرمونهم بكل نقيصة ليبرر بفعلته هذه استئثاره بالأمر من دون الخليفة . وكما فعل غيره بكتب الغزالى . فقد قيل : إن يوسف بن تاشفين جمعها وأحرقها . وتوعد من يجد عنده شيئا منها باستصفاء أمواله وسفك دمه .

ولم يعن الأندلسيون بتلك العلوم إلا بعد القرن الخامس الهجرى . حين أبيح للعلماء أن يجهروا بآرائهم فى هذه الفنون . بعد أن كان ظهور أى أمارة على الاشتغال بشىء منها ومزاولة أبحاثه كافيا فى تشريد المشتغل به وتعذيبه وإذاقته صنوف الإرهاق والأذى ، حينذاك برهن الأندلسيون

على أنهم أصحاب مواهب فذة وملكات قوية وعقول جبارة ، وجددوا معالم الفلسفة وأحيوا علوم المنطق والحكمة بعد أن كاد يمحى رسمها بالمشرق لاستيلاء السلاجقة ثم إغارة التتار على بغداد .

هذا من الناحية العلمية ، ومن ناحية الدين لم تكن الأندلس مرتعاً للنحل المختلفة والفرق المتباينة والمذاهب المتعددة - كما كانت الحال بالمشرق - بل كانت جمهرتها الغالبة على مذهب أهل السنة فى العقائد ، وسيطر عليها مذهب أبى عمرو بن عبدالرحمن الأوزاعى إمام أهل الشام المتوفى ببيروت سنة ١٥٧ هـ . ثم قلدوا مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه وانتشر بينهم بعد أن نقله اليها تلميذه يحيى بن يحيى الليثى وصارت الفتيا عليه . ولم يشذ عنه إلا أفراد قليلون لايحسب لهم بجانب الأغلبية الساحقة حساب ؛ لذلك تمكنت العقيدة الدينية من نفوس الأندلسيين ، وتمهد غرسها وإنماءها الفقهاء . والمحافظون وفق رغباتهم . وإرشاداتهم .

وكان للفنون الجميلة من عناية العرب هناك أوفى حظ وأوفر نصيب ، فقد شغفوا بالنقش . والتصوير . والزخرفة والنحت . وأتقنوا فن البناء وما إليه . ولهم فى كل ذلك إحسان وإتقان ، وآثار جميلة وصنعة محكمة لاتزال بقاياها تتحدث بالعظمة والافتنان إلى اليوم .

ولم يقفوا من الموسيقى موقف الجامد المتردد . بل أقبلوا عليها وعلى الغناء فساروا بهما فى مدرجة الكمال سراعا . وعلوا بهما ذرى الإتقان والإبداع وأخضعوا للغناء الشعر . فجاءت على ألسنتهم الموشحات . فى أوزان موسيقية وألفاظ غنائية . ترقق العاطفة وترقى الوجدان وتأسر الألباب .

هذه صورة من حياة الأندلسيين العقلية ، فهل كان لتلك الحياة أثر فى أدبهم ؟ وهل انطبع بطابعها ؟

هذا هو الذى أرمى إليه فى البحث التالى لهذا ؛ ولعلى أوفق لإصابة المرمى

أدب الأندلسيين أدب مستقل

كان لكل ما قدمنا — فى الحياة العقلية — أثره البين فى أدب الأندلسيين وإنتاجهم فقد انتحى بهم ناحية خاصة باغ فيها السماك . تلك هى ناحية التعبير عن خاجات النفوس ورغبات العواطف . والوصف فى جميع ألوانه وأشكاله وبخاصة وصف مناظر الطبيعة ومظاهر الكون وقصّر فى ناحية أخرى . ناحية الحكم والأمثال والتصورات الفلسفية وما إليها ، فلم نر فى أدبهم مثل شعر المعرى فى تصوراته الفلسفية ، ولم يوجد بينهم أمثال أبى العتاهية فى نزعته إلى الزهد والتصوّف . ولا مثل المتنبى فى أمثاله السائرة وحكمه الغالية ، بل تجرد كل ماقالوه فى ذلك وفى غيره - شعرا كان أو نثرا - عن التصوّرات الفلسفية والمعانى البعيدة المستغلقة وكان واضحا جانحا إلى المعانى السائغة الصريحة ، القريبة التناول ، البعيدة عن تعمل أهل الفلسفة وتصنع ذوى المنطق والحكمة .

وإذاً فقد كان أدب الأندلسيين تابعا لبيئتهم الجميلة السهلة وصورة من ثقافتهم العقلية التى عرفنا ، ولم يكن تابعا لأدب المشارقة ولا محتذيا حذوه كما يقول البعض

وكان منشأ خفاء هذا النوع الفلسفى من الأدب وعدم ظهور أدباء ذوى آراء جديدة ومذاهب مبتكرة من هذا الباب . تلك البيئة اللينة السهلة

التي لم تنتشر فيها الفلسفة ولم يتوسع أهلها في دراسة كتب المناطقة والحكماء ولم يعنوا بالطبيعيات والإلهيات ولم يترجموا من كتب اليونان والفرنجة كثيرا

ولو سلمنا أن الأندلسيين «كانوا يحاكون المشرقيين في أساليبهم ومعانيهم وكان قصارى جهدهم أن يحلقوا في سمائهم ويجاروهم في مضمارهم»، لوجب أن نسلم أنهم لم يكونوا يبتدئون بقول حتى يكونوا قد اطلعوا على ما كان مثله للمشرقيين قبل. وأنهم مجردون من صفة الأديب القادر على اختراع القول وتصوير الخيال. وصوغ المعاني وابتكار التشبيهات. وكيف والمعاني - كما يقول الجاحظ - مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك!

أفيعاب الأندلسيون بعد ذلك حين ينظمون في المعاني التي نظم فيها المشارقة. ويُدعى أنهم يحاكون أقوالهم ويقلدون أدبهم؟! ذلك ما لا أراه من الإنصاف للأندلسيين ولا من العدالة في شيء.

ثم كيف ننسى أن الجالية العربية وقبائلها كانت هناك من الكثرة بمكان وأنهم وجدوا بيئة شاعرية حملتهم - إلى جانب استعدادهم الطبيعي - على صوغ الشعر ونسج النثر دون مثال يحتذونه أو أصل يرجعون إليه:؟ ومن ذا الذي حكم هذا الحكم الذي غمط فيه حق الأندلسيين.؟ لا أستطيع أن أقول إلا أنه مشرقي تعصب للمشارقه فلم يحفل بما كان للأندلسيين من ابتكار واختراع.

نعم كان هناك بعض أفراد قد تلمح من قولهم احتذاء المشارقة وتقليدهم. لصوغهم فيما صاغ فيه هؤلاء من المعاني والأغراض، وقد بالغ في

الاحتجاج بذلك بعض الكاتبين المتعصبين للمشارقة ، والحق أن ذلك ليس من قبيل التقليد . ولكنه من باب المنافسة وإظهار المقدرة على قول مثل قول من سبق ، ولكونه فى بحره وقافيته . يكون أدل على المقصود وأثبت للمراد

ولو أنك قرأت تلك الأبيات التى نسبت الرشيد العباسى :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ۞ وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها ۞ وأطيعهن وهن فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى ۞ وبه قوين أعز من سلطانى

ثم قرأت بعد ذلك أبيات المستعين الأموى أبى أيوب سليمان بن الحكم

عجبا يهاب الليث حد سنانى ۞ وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لامتهيبا ۞ منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى ۞ زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر ۞ من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال وتلك بنت المشترى ۞ حسنا وهذى أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلوّ إلى الصبا ۞ فقضى بسلطان على سلطانى
فأبحن من قلبى الحمى وثنيننى ۞ فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى ۞ ذل الهوى عز وملك ثانى
ما ضر أنى عبدهن صبابة ۞ وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ۞ كلفاً بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمن إلفه ۞ خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى ۞ عاش الهوى فى غبطة وأمان

أقول لو أنك قرأت هذه وتلك . لأحسست فى قول المستعين « الأندلسى »

قوة بلاغة ومتانة رصف . وجودة سبك وزيادة معان . ولعلمت أن ذلك شعر من لا يقلد ، ولكنه شعر مطبوع رقيق الحس عذب الألفاظ بديع الأسلوب ، فكيف يؤخذ ذلك دليلا على التقليد والجرى وراء رسوم المشرقيين ؟ .

وفى الكتب من هذا النوع كثير يدل على أن الأندلسيين كانوا شديدى الرغبة فى منافسة غيرهم لا فى تقليده . ومن ذلك مارواه المقرى عن الحميدى قال :

« أنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق » . وهى :

وماذا عليهم لو أجابوا فسلموا ... وقد علموا أنى المشوق المتيم
سروا ونجوم الليل زهر طوالع ... على أنهم بالليل للناس أنجم
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم ... فنم عليهم فى الظلام التبسم

فأفرط بعض الحاضرين فى استحسانها وقال ـ مغريا ـ هذا ما لا يقدر أندلسى على مثله ، وبالحضرة أبو بكر يحيى بن هذيل فقال بديها :

عرفت بعرف الريح أين تيمموا ... وأين استقل الظاعنون وخيموا
خليلىّ ردانى إلى جانب الحمى ... فلست إلى غير الحمى أتيمم
أبيت سمير الفرقدين كأنما ... وسادى قتاد أو ضجيعى أرقم
وأحور وسنان الجفون كأنه ... قضيب من الريحان لدن منعم
نظرت إلى أجفانه وإلى الهوى ... فأيقنت أنى لست منهن أسلم
كما أن إبراهيم أول نظرة ... رأى فى الدرارى أنه سوف يسقم

ألست ترى فى ذلك رقة على البداهة وجمالا فى المعنى وسلاسة فى النظم وجودة فى الصياغة ، على حين لا تشعر بذلك كله فى كلام المشرقى مع إعداده

وتزويره ؟ فكيف يكون هؤلاء القوم الموهوبون . محاكين للمشارقة ومقتفين أثرهم !.

على أنه إن كان هناك تقليد من بعض الأشخاص وجرى وراء رسوم المشرقيين ، فليس من العدالة أن نجعل فعل هؤلاء سبب الحكم على أدب الأندلسيين جميعه . بأنه تابع لأدب المشارقة ، وأن جل همهم أن يقولوا مثل قولهم ويحاكوهم فى تصوراتهم وأسلوبهم .

ذلك وماير فى تضاعيف الكلام وماقدمنا ـ فى التعريف بالأندلس ـ يستخلص منه أن لإنتاج الأندلسيين وأدبهم صبغة خاصة ميزته عن سواه . وأنه تابع لبيئتهم التى لم تمدهم بالمعانى الفلسفية والمنطقية ، وأنه صورة مما كانت عليه معارفهم وثقافتهم وأنهم ليسوا محاكين للمشارقة فيما صاغوا من شعر ونثر .

والرأى عندى : أن الأندلسيين تتلمذوا للمشارقة بادئ الأمر . وتلقوا عنهم ـ فيما تلقوا ـ علوم اللغة وآدابها . ثم لم يلبثوا أن بذوهم وخلفوهم وراءهم فى كثير مما اشتركوا فيه ، شأنهم فى ذلك شأن الطالب وأستاذه يأخذ عنه العلم ويثقف عقله بمعارفه ومعلوماته ، ثم يكون له من حظه وبيئته المحيطة به وظروف حياته ماقد يجعل أستاذه بالأمس . أقل منه فى المعرفة والدراية اليوم .

ولست أشك أنهم فى أدبهم مبتكرون مخترعون . غير تابعين لأحد ولا خاضعين إلا لما أملته عليهم أرواحهم الأدبية الخفيفة . وعواطفهم الشعرية الجميلة ، ـ وبذلك أدين .

**

إلى هنا ، وأبتدئ الكلام عن الصور التى تمثل فيها أدب الأندلسيين الخطابة . والكتابة . والشعر . متبعاً ذلك طائفة من العوامل التى أثرت فيه . ورفعت من شأنه وساعدت على رقيه . متحدثا بعد عن صورة من أدب النساء هناك . وعن الثقافة العلمية . التى كان لها على ذلك كله أكبر الفضل وأعظمه .

وأنا أستمد من الله عز وجل التوفيق والمعونة ، وأستلهمه السداد والرشاد وأدعوه بقلب ملؤه الأمل أن يلغنى ـ فى ذلك جميعه ـ من الإحسان ما أريد ، وفوق ما أريد ، إنه تعالى خير مدعو مجيب .

الخطابة بالأندلس

دواعيها ومنزلتها ، أسلوبها ومميزاتها ، أنواع الخطابة ، الخطابة السياسية . الخطابة الاجتماعية . الخطابة الدينية ، الوصايا . أمثلة ذلك وشواهده .

دواعيها ومنزلتها :

الخطابة وليدة الثورات . وربيبة الإحن والحادثات . وظل الانقلابات السياسية والأحداث الاجتماعية ؛ لن يكون لها شأن مالم تكن هذه الأمور من موجباتها . وسببا قويا من أسباب نهضتها ؛ ولو أنك تتبعت تاريخها فى عصورها المختلفة لتبين لك بوضوح صدق هذه القضايا ، وأنه يعتورها العلو والانخفاض تبعا لتلك المؤثرات قوة وضعفا ، زيادة ونقصانا

والأندلس ـ على ما يحدث التاريخ عنها ـ منذ بدء حياتها العربية . قد توفرت فيها دواعى الخطابة وتضافرت أسبابها ؛ فقد كان هناك ـ إلى جانب ما منحه عربها من طلاقة الألسن وقوة البيان . وسرعة الخواطر وحضور البدائه . وما وهبهم الله من الاقتدار على التصرف فى مناحى القول والافتنان فيه ، وما أمدهم به من حسن اللسن وثبات الأجنان ـ أقول كان هناك إلى جانب ذلك أمور تدعو إليها . وتحمل الكثيرين على إرسالها .

فهذه الحياة السياسية الجديدة . كانت شديدة الحاجة إلى خطباء مفوهين يروجون لها ويحرضون على الدفاع عنها .

وهؤلاء اليمنيون والمضريون الذين استوطنوا الأندلس إثر فتحها . لم يكادوا يطمئنون فى مقامهم . حتى حالفتهم الأحقاد والضغائن . ودب

فى صفوفهم الانقسام والمنازعة فكانت تلك داعية أخرى للخطابة تتطلب من ذوى البيان وأرباب الفصاحة خطبا يستلون بها مواجد القلوب وأضغان الصدور .

وأولئك الأعداء الذين عمل العرب على غزوهم فى دورهم ونشر الدعوة الإسلامية بينهم . كان حب النصر عليهم والظفر بهم . من أقوى ما يدفع إلى قول الفاتحين فى استنهاض الهمم . وبذل الأرواح والمهج . وإرخاص النفوس والابتسام للمنايا .

وكان تطلع بقايا الإسبان إلى جلاء العرب . وتحينهم الفرص للانقضاض عليهم . داعيا إلى بقاء هذا السبب طوال حكم العرب بالأندلس .

ولم يكن أقل من ذلك ـ فيما يستدعيه ـ كيد بعض العرب لبعض ، وحدوث حروب أهلية داخلية يحرض كل حزب فيها مناصريه على إرغام خصومهم . والقضاء عليهم وإذهاب أثرهم ، ـ ولا تلك الحوادث التى كانت تقع بين أظهرهم فتزيد فى دواعى الخطابة من حين إلى حين .

تلك هى الأسباب التى استلزمت الخطابة بالأندلس . وتطلبت من ذوى اللسن خطبا فياضة وقولا مؤثرا ، فهل أثمرت ثمارها بالأندلس ولبى رجالها دواعيها وأجابوا نداءها ؟

ذلك ما اختلف فيه الكاتبون عن الأندلس ، إذ استقر رأى بعضهم على أنها أتت أكلها وحققت الغرض المطلوب منها . وأن الخطابة من أجل ذلك كانت قوية عظيمة الشأن ، شائعة تدوى بها ميادين القتال . وتهتز لها منابر المحافل ومجالس الملوك ؛

وقرر البعض الآخر ـ كما هو على النقيض مما تقدم . فزعم أنها لم تنل من

العناية مايناسب قدرها . ولم يكن لها من الشهرة مايتفق مع سمو منزلتها . واحتج لذلك بقلة المأثور عنهم ؛ وبطغيان الحياة الأدبية على كثير ممن ينتظر منهم إجادتها ؛ وبسرعة فناء الأحزاب وقضاء الولاة عليها واندماجها فى الغالب واعتمادهم على السيف دون اللسان .

وعندى أن الرأى الأول هو المقبول الذى يؤيده الواقع الملموس . ويشهد به الأندلسيون أنفسهم ، وهم أدرى بحالهم وما كان يجرى بين أظهرهم وليس عدم وجود كثير من الخطب الرائعة قادحا فى ذلك ، فإن عدوان الإسبان على الكتب التى جمعت كل شىء وإحراقها . ذهب بكل مافيها من خطب . بل ومن شعر ونثر . ولعلنا لو بحثنا فيما بقى من آثار العرب بمكاتب الأندلس وغيرها نجد ما نطمئن إليه . ونعتمد فى الإقناع عليه هذا إلى أن المسارعة إلى حفظ الخطب أقل منها إلى غير الخطب . لذلك كان المأثور منها قليلا ، وتلك علة نجدها فى عصر صدر الإسلام . فإن ماأثر عنه جد قليل بالنسبة لما أنتجه خطباؤه مع أنه أزهر عصور الخطابة بل هو العصر الذى لم ترزق الخطابة من الحظ فى غيره مثل مارزقت فيه .

وأدباء الأندلس أنفسهم عدول عندنا فيما يقررون من أحكام تشهد بشيوع الخطابة وتقدمة رجالها وكثرتهم ، فابن بسام يقول فى الذخيرة : « إن أهل هذه الجزيرة كانوا رؤساء خطابة » ، وقد يشهد لما صرح به ابن بسام . قول ابن شهيد ـ لصاحبه الجنى حين سأله بمن يريد أن يبدأ ـ على ماذكر فى الكتابة ـ : « الخطباء أولى بالتقديم . لكنى إلى الشعراء أشوق » وابن بسام وابن شهيد ليسا خطيبين حتى يعد قولهما تعصبا لشيعتهما « وقاسم ابن عبود الرياحى ينظم فى زجله مايؤيد تلك الدعوى السابقة . إذ يقول :

وإن رأيت فضولي   فقـــل أى تمـــور
كمش عى وجهـــك   فإن رآك نفـــور

****

يهرب عنك خايف   ويبـــق مـــريب
وامش أنت موقـــر   كأنك   خطيـــب

أليس يدل كل ذلك على أن طغيان الحياة الأدبية لم يقض على الخطابة ولم يذهب بمنزلة رجالها ؟ .

وسرعة فناء الأحزاب لاتنهض دليلا على ضعف الخطابة كما يزعمون فإن ترقب عدوهم بهم الدوائر . وعدم انقطاع الحروب بينهم وبينه . جعلهم يحذرون منه ويحرضون فى كل آن على الإيقاع به والثبات عند ملاقاته .

على أننا لو راجعنا تفاصيل تاريخهم لوجدنا أنه لم يدم بالأندلس حزب غالب ، وأنه ماكان يفنى حزب فى آخر إلا ليبتدئ من جديد استعداداً لما وطن نفسه عليه ؛ ومن هنا كثرت الثورات الداخليـة والحروب الأهلية ؛ وفى ذلك من الحاجة إلى الخطابة مافيه .

وليس الاعتماد على السيف مانعا كذلك من رقى الخطابة وشيوعها ، ذلك لأن الجنود والقواد . وحملة السيوف والمحـاربين . لن تنبعث فى نفوسهم الحماسة . ولن يتسابقوا إلى الغزو والجهاد إلا بالترغيب فيـه . والإقناع بثمرته وفائدته ؛ فكيف يكون ذلك سببا من أسباب ضعفها وقلتها . وهو بالعـكس داع إلى قوتها وانتشارها ! ولا حجة لهم كذلك فيما استشهدوا به من قول ابن عمار ـ فى مدحة المعتضد ـ :

السيف أصدق من زياد خطبة   فى الحرب إن كانت يمينك منبرا

فإنه لم يشأ أن يدعى لهـا الضعف وعـدم التأثير فى السامعين . ولـكنه

يقول . إذا التحمت الجيوش فالسيف أقطع . وإعمال حده أدعى إلى النصر والغلبة . ولا سيما إن كان في يمينك ؛ ولو علم ابن عمار أن بيته هذا سيدعى دليلا على ضعف الخطابة ماضمنه قصيدته ولباعد بينها وبينه ، وكما لا يصح أن نجعل دليلا على ضعف الكتابة بالأندلس قولَ القائل :

وحكم السيف لا تعبأ بعاقبة　　　وخلها سيرة تبقى على الحقب

فما تنال بغير السيف منزلة　　　ولا ترد صدور الخيل بالكتب

ولكن شاهداً على أنه إذا التقت الصفوف فليس بنافع غير الضرب والطعن . فكذلك بيت ابن عمار سواء بسواء .

وفوق ذلك . كانت الخطابة لغة السفراء والمبعوثين لا ستنجاد الهمم . وطلب المهادنة وعقد الصلح . فإن لسان الدين بن الخطيب . حين بعثه السلطان محمـــد بن يوسف إلى المغرب ليستنجد بملوك بنى مرين على الإسبان . لم يتحدث إليهم فى ذلك الشأن بالشعر ولم يحفزهم إلى الجهاد بقصائد غررمع مايعلم من تأثير الشعر ووقعه فى النفوس وسيطرته عليها . وقدرته هو على ذلك ، ولكنه عدل إلى الخطابة لشرفها وعلو منزلتها .

ونستطيع أن نقول إن الفتور الذى أصاب الأدب أيام حكم البربر للبلاد لم يصب الخطابةَ منه ماأصاب غيرها . فإنها لم تزل فى هذه المدة يستشفع بها للمظلومين ويحرض بها على الجهاد والمقاتلة ويحذر بها من الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء . وسنثبت فى أنواع الخطابة دليلا على ذلك خطبةَ ابن الفخّار التى استشفع بها للقاضى الوحيدى بين يدى يوسف بن تاشفين . ونعجّل هنا بما رواه صاحب المعجب عن يوسف هذا . أنه لما رأى كثرة جيوش الإسبانيين واستعدادهم ـ أيام

استنجد به ملوك الطوائف - قال للمعتمد: ما كنت أظن هذا الخنزير - يعنى ملك الإسبان - لعنه الله يبلغ هذا الحد. وجمع أصحابه. وندب لهم من يخطبهم، ويعظهم ويذكرهم ويحرضهم على الثبات فى ميدان الحرب والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة.

وإنك لتقرأ فى المعجب كذلك لمحمد بن تومرت مؤسس دولة البربر الثانية خطبة تعترف بعـدها. أن الخطابة لم تزل، حتى فى ذلك العهد، حافظة مكانتها مقدمة على غيرها. أليس فى كل ذلك تأييد لما نختار؟.

ولن ننسى فى إثبات ماندعيه للخطابة أنها كانت - دون غيرها - المقدمة فى الحفل الجامع والمقام المشهود. والمعـبرة عن سطوة الملك. وعظم المملكة، وقوة السلطان.

الحق أنه ليس من السهل أن نسلم بضعف الخطابة بالأندلس. وقد كان هناك ما يبعثها قوية متأججة، فليس بدعا بعد الذى قدمنا إذن أن نعترف بأنها كانت هناك عظيمة الشأن قوية التأثير، وأن رجالها هم أصحاب الشرف وذوو التقدير فى كل عصورها.

وأول خطبة هب نسيمها على تلك البلاد. بل أول بذرة من بذور الأدب العربى هناك خطبة طارق بن زياد فاتح الأندلس. التى تدل على تمكنه من القول وتملكه أعنة البيان. وقدرته على التأثير فى سامعيه بما حرضهم وحذرهم. مرهبا من الهزيمة والفرار. مرغبا فى النصر والظفر. والتمتع بخيرات البلاد.

استمع إليه إذ يقول بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه:

«أيها الناس. أين المفر؟ البحر من ورائكم. والعدو أمامكم. وليس

لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مادبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه . وأسلحته وأقواته موفورة . وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم . ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم . ولم تنجزوا لكم أمرا . ذهب ريحكم وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة . وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت .

وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ عنها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فيما حظكم فيه أوفر من حظى .

وقد بلغكم ماأنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات الرومان . الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان . المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان . وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته . وإظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم . والله تعالى ولى إنجادكم على مايكون لكم ذكرا فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه . وأنى عند ملتقى الجمعين حامل

بنفسى على طاغية القوم «لذريق» فقاتله إن شاء الله تعالى . فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره . ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه . وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه . واحملوا بأنفسكم عليه . وأكفوا الهم من فتح هذه الجزيرة فإنهم بعده يخذلون ...

ونحن نثبت هذه الخطبة . لا لأنها من خطب الأندلس . ولا لأنها من نتاج الحياة الأدبية بتلك البلاد ، إذ لم يكن أدب الأندلسيين فى ذلك العهد خُلق . ولا برز إلى عالم الوجود ، ولكننا نثبتها لأنها الجد الأعلى للخطابة فى الأندلس . والغرس الطيب الذى صادف أرضا خصبة . فأثمر وأينع ونما وترعرع وآتى أكله وأفاد الجميعُ من ثمره .

ثم كان للولاة المتعاقبين خطب فى التحريض على الجهاد ، والسعى فى فض المنازعات وإطفاء الفتن ومواراة الأحقاد . لم تتناقلها كتب الأدب وبعبارة أخرى أقرب إلى الواقع . لم يعثر الكاتبون على شىء يعتد به منها وكانت للأمويين من بعدهم كذلك خطب يدعون بها إلى تأييد مملكتهم الجديدة . ولقد أثر عن الداخل من ذلك ماجعله فى عداد الخطباء المصاقع

ولعل ماأثر عن الداخل فى ذلك العهد كان نموذجا يسير عليه خطباء عصره ويحتذيه من بعدهم إلى حين . ولعل فى ذلك كذلك مايشير إلى أسلوبها فى عهدها الأول .

أسلوبها ومميزاتها

بدأت الخطابة بالأندلس بعيدة عن الصنعة . لم تعرف إلى الزخرفة اللفظية سبيلا . سلسة الأسلوب قريبة المعانى تتبين من خلال ألفاظها ماعليه قائلوها من سذاجة . ونوع حياتهم ومعيشتهم ، وكان أصحابها يميلون إلى تقصيرها ويجانبون الإطناب فيها كما يجانبون الحوشى والغريب لجريانهم على السليقة العربية الفصيحة ؛ وقد ظل ذلك طابعها إلى أمد غير قريب وإنك لتقرأ للوليد بن عبد الرحمن بن غانم خطبته التى يعتذر فيها عن صديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز. بين يدى محمد بن عبدالرحمن الأوسط فترى ماقدمنا واضحا جليا . استمع إليه وهو يقول :

«أصلح الله تعالى الأمير . إنه لم يكن على هاشم التخير فى الأمور . ولا الخروج عن المقدور ؛ بل قد استعمل جهده . واستفرغ نصحه . وقضى حق الإقدام . ولم يكن ملاك النصر بيده . فخذله من وثق به ونكل عنه من كان معه : فلم يزحزح قدمه عن موطن حفاظه . حتى مُلك مقبلا غير مدبر مُبْليا غير فَشِل . فجوزى خيرا عن نفسه وسلطانه ، فإنه لاطريق للملام عليه وليس عليه ماجنته الحرب الغشوم ، وأيضا فإنه ماقصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير . واجتنابا لسخطه ، فإذا كان مااعتمد فيه الرضا . جالب التقصير . فذلك معدود فى سوء الحظ . . .

ولما استفحل العمران وعظم الملك . وأمدتهم المدنية بزخرفها وتذوقوا سلسالها . أخذ التنسيق يدب إلى الخطابة . وابتدأت الصنعة تلمع بين فقرها . غير أنهم لم يخرجوا فى ذلك عن المقبول المستساغ. بل عمدوا - فى قصد - إلى السجع

وبعض أنواع البديع . وإطالة القول وتزويره . إقرأ خطبة منذر بن سعيد البلوطي . في الاحتفال بقدوم وفد صاحب القسطنطينية على الناصر الأموى يطلب وده ويقوى أواصر الصداقة بينه وبينه . ففيها شاهد لذلك إذ يقول في أثنائها . مشيدا بذكر الناصر وارتقاء المملكة في عهده وأياديه على أهلها: —

أنشدكم بالله معشر الملأ . ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ، ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها . ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته . حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم ، وصرتم يدا على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم .

فأنشدكم الله . ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة . نافذة ثاقبة ، وريح هابّة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور . تحت عدل مشهور . متحملا للنصب ، مستقلا لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها . ولم يبق لها غارب إلا جبه . ولا نجم لأهلها قرن إلا جده ، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا . وبلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال

الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا، ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر مابعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية. تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا».

ثم كان من أمر الرحلة من الشرق وإليه ما كان، واطلاع الأندلسيين على نوع نثر المشارقة وتعملهم فيه، فأحبوا أن يظهروا بمظهر المنافس الذى لا يعجز عن شىء مما امتاز به منافسه. وبأنهم ذوو ملكات تستطيع أن تجول فى كل ميدان، فافتنوا فى الصناعة اللفظية. وبالغوا فى العناية بها. والتزموا السجع والتجنيس التزاما دعا إلى السأم من طريقتهم ونفر كثيرا من الأدباء منها. وأمعنوا فى إطالة القول إدلالا ببراعة وتعريفا بمقدرة فاصطبغت الخطابة بصبغة جديدة ليس بينها وبين حالها الأول صلة أو قربى.

ولم يكن ذلك فحسب، بل زادوا أمورا تجعل الخطب أكثر تعقيدا وأعز مطلبا وأبعد منالا لوعورة ذلك المسلك، وصعوبة معالجته؛ وقد كانت هذه الأمور سببا فى جعل الخطب التى التزمت فيها جافة غير سلسة، قريبة إلى الإغراب بعيدة عن الوضوح. وليس أدل على ذلك من أن تقرأ للقاضى عياض خطبته التى ضمنها سور القرآن إذ يقول فيها:

«الحمد لله الذى افتتح بالحمد كلامه. وبين فى سورة البقرة أحكامه. ومد فى آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه، وجعل فى الأعراف أنفال

توبة يونس والر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصديق فى دار الكرامة، وسبح الرعد بحمده، وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ إلا إليه ولا يظلمون قلامه، وجعل فى حروف كهيعص سرا مكنونا قدم بسببه طه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على سائر الأنبياء، ليظهر إجلاله وإعظامه وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان. والشعراء صاروا كالنمل ذلا وصغارا لعظمته، وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم وأيقنوا أنه كلام الحى القيوم نزل به الروح الأمين على زين من وافى يوم القيامة وأوضح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لرب الأحزاب. فسبا فاطر السموات أهل الطاغوت وأكسبهم ذلا وخزيا وحسرة وندامة، وأمديس صلى الله عليه وآله وسلم بتأييد الصافات. فصاد الزمر يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم فى القليب مكدوس ومكبوب حين شالت بهم النعامة وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدريين رضى الله عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله ... الخ».

ولعل ما فى هذه الخطبة من تعمل وتعمق يبعدانها عن الفصاحة ويَعزلانها عن بليغ الكلام، هو الذى حمل المقرى ـ رحمه الله ـ أن يقول بعد ما أوردها «وفى نفسى من نسبتها له شىء، لأن نَفَس القاضى فى البلاغة أعلى من هذه الخطبة، والله تعالى أعلم».

ولو أنك قرأت خطبة أحمد بن الحسن الزيات التى تجنب فيها الألف على كثرة دورانها فى الكلام وتردادها على الألسن لشهدت بما تقدم وحكمت ببعدها عن الفصاحة ومجانبتها رقّ الكلام، وإن اعترفت إلى

جانب ذلك بمقدرته على الافتنان وتمكنه من الألفاظ يلعب بها كيف شاء، وإليك طرفا من هذه الخطبة على مارواه لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة، إذ يفتتحها بقوله :

« حمدت ربى جل من كريم محمود. وشكرته عزمن عظيم معبود. ونزهته عن جهل كل ملحد كفور، وقدسته عن قول كل مفسد غرور »

ويقول فى أثنائها :

« ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه وسلم عليه، رسوله وخير خلقه، ونعلن بنهوضه فى تبيين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته وكريم هديه، وبين لقومه كيف يركنون ففازوا بقصده وسديد سعيه بشر مطيعه فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشقى بنقمته

وبعد فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون. وهديتكم لو كنتم تعلمون، بُصرتم لو كنتم تبصرون. وذُكِّرتم لو كنتم تذكرون. ظهرت لكم حقيقة نشركم وبرزت لكم حقيقة حشركم، فكم تركضون فى طلَق غفلتكم وتغفلون عن يوم بعثكم. وللموت عليكم سيف مسلول وحكم عزم غير معلول. فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه، ويخبر بجميع كسبه، ويفرق بينه وبين صحبه ويعدم نصرة حزبه. ويشتغل بهمه وكربه، عن صديقه وتربه. وتنشر له رقعة، وتعين له بقعه ؟ فربح عبد نظر وهو فى مهل لنفسه وترسل فى رضى عمل جنة لحلول رمسه. وكسر صنم شهوته ليقر فى بحبوحة قدسه ».

ونجتزئ فى التدليل على ذلك - إلى جانب هذين - بقطعة من خطبة لسان الدين بن الخطيب حين بعثه خليفة بنى الأحمر إلى ملوك بنى مرين

بالمغرب يستعين بهم على الإسبان إذ يقول :

« أيها الناس - رحمكم الله تعالى - إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو - قصمه الله تعالى - ساحتهم ؛ ورام الكفر - خذله الله تعالى - استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم - بعزة الله تعالى - أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله فى الإسلام ، الله الله فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله . الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة . واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتابُ الله بين أيديكم . وألسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم » وبما صح عنه قوله « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمهما الله على النار » « لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا » . أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت . احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده . جاهدوا فى الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنبيكم — وطريق هذا العذر غير ممهد

إن قال : لم فرطتموا فى أمتى وتركتموهم للعدو المعتدى ؟
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

وفى الجزء الرابع من نفح الطيب بقيتها وكذلك خطب غيرها تضارعها وتزيد عنها للسان الدين ولغيره .

هذا ولم يهمل الخطباء فى جميع العصور بالأندلس أن يقتبسوا من القرآن الكريم آيات يحلون بها خطبهم ، ومن أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه كذلك مايتفق وموضوع كلامهم ، يدرجون ذلك مع التنبيه عليه حيناً وبدونه أحياناً أخرى .

كذلك كانوا يعرضون لأمثال عربية وأبيات شعرية فيجعلونها ضمن خطبهم مؤيدة لدعوى يتحدثون عنها وشاهدة على حكم يريدون تقريره .

ونستطيع أن نقول إنهم كانوا يستفتحون خطبهم بما يجب أن تستفتح به من حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة والسلام على نبيه سيدنا محمد صلى الله وسلم عليه ـ وإن كانت الكتب التى روت خطبهم لم تثبت ذلك فى أوائل الجميع ـ لأن الناحية الدينية كانت متغلبة عليهم ومالكة زمام الكثير منهم .

أما ختامها فتراه تارة بكلمات من القرآن الكريم : وتارة بالصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم . وتارات أخرى بجمل دعائية تناسب المقام

أنواع الخطابة

ترشد ظواهر الأحوال بالأندلس . إلى أن الأندلسيين لم يدعوا موطناً من المواطن التى تستدعى قولا صائباً وكلاما مبينا ، إلا قالوا فيه وأجادوا وقد ترى فى خطبهم شواهد صادقة على كثير مما كان بينهم من حوادث اجتماعيـة وغير اجتماعيـة . كما ترى فيها كذلك عنايتهم بالتذكير بأمر الدين ، والدعوة إلى التمسك بأهدابه والاستعداد للحياة الآخرة .

وذلك الذى قدمت دفعنى إلى تقسيم الخطابة إلى أنواع . والتحدث عن كل نوع بمـا يشرحه مكتفياً بالقليل من الشواهد مضافة إلى ماأسلفت .

وفيما أتبع به هذا ، حديث موجز عن أنواع ثلاثة . هى التى استطعت أن أحصر خطابة الأندلسيين فيها . وذلك مايأتى : —

١ — الخطابة السياسية :

وهى ما كانت تقال فى الدعوة إلى حزب دون حزب ، والحض على مناصرة فريق دون آخر ، وشرح المنهج الذى يريد الخليفة أن يسير عليه مدة توليه الحكم .

وإنّ حوادث الأندلس وأحوالها الاجتماعيـة لتفيد أنّ المـأثور من هذا النوع كان وافراً مستفيضاً ، فمـا هى شواهده إذن ؟

أقول إنّ ماأصاب الكتب فى الثورات الأهلية . ويد الإسبان قدأضاعها فيما أضاع ، وأمرٌ آخر هو أنّ الخطب السياسـية قلما تدوّن ، لمـا تحويه من أفكار ثورية . وعبارات يخشى منها على نظم الحكومات وأمن الشعب

ولا زلت أقول كذلك : لعلنا لو بحثنا فى مخلفات الأندلسيين بالمكاتب وبخاصة الأجنبية منها ـ نجد مايشفى الغلة ويذهب الشكوك .

ومن هذا النوع خطابة المعارك الحربية والتحريض على ملاقاة العدو واقتحام الصفوف . والتنفير من الهزيمة والتولى والفرار .

٢ ـ الخطابة الاجتماعية:

وهى ماقيلت حين استقبال الوفود . أو فى تهنئة بفتح ونصرة على عدو، أو استشفاع لمظلوم أو اعتذار عنه ، كخطبة أبى عبد الله بن الفخّار التى استشفع بها للقاضى أبى محمد الوحيدى ، بين يدى يوسف بن تاشفين، بحضرة جماعة من أصحابه ، وفيها يقول بعد كلام من أولها مخاطبا ابن تاشفين :

«شكوى قمت بها بين يديك فى حق أمرك الذى عضده مؤيده . لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مالقة الأحكام ، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام لم يزل يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته ، ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريرته ، ما علمنا عليه من سوء ، ولا درينا له موقف خزى ، ولم يزل جاريا على ما يرضى الله تعالى ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرضت بنو حسّون للطعن فى أحكامه ، والهدم أعلامه ولم يعلموا أن اهتضام المقدّم . راجع على المقدِّم . بل جمحوا فى لجاجهم . فعموا وصموا وفعلوا وأمضوا مابه هموا ؛ وإلى السحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين ونهر»

فلما سمع ابن تاشفين بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه .

ويدخل فى هذا النوع ، تلك الخطب التى يقصد بها إلى تهذيب الأخلاق

والتحلى بالفضائل والابتعاد عن سفساف الأمور. ومن أمثلتها خطبة المنصور ابن أبى عامر حين رد على من أراد انتقاص أبى عمر يوسف الرمادى الشاعر فى مجلسه، بقوله :

«ما بال أقوام يشيرون فى شىء لم يستشاروا فيه . ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضى أم يسخط ؟ وأنت أيها المتبعث للشر دون أن يبعث . قد علمنا غرضك فى أهل الأدب والشعر عامة . وحسدك لهم لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضـ ـلا عليهـم حسـدوه

وعرفنا غرضك فى هذا الرجل خاصة . ولسنا إن شاء الله نبلغ أحدا غرضه فى أحد ، ولو بلغنا كم بلغنا فى جانبكم»

ثم يأخذ فى توجيه كلام الرمادى ، ويعجب من سرعة بديهته وحسن مدحه ، على قلة من الإحسان الغامر ويفهم جلوسه - وفيهم ذلك الحاسد - أن ما يكون منه من التغير ليس للبغض ولا للانحراف عن الأدباء ، بأسلوب متين وعبارة جزلة ، ويختم ذلك بقوله :

«والعجب من قوم يقولون : الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب ، نعم ، ذلك لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها . ولا أياد يرغب فى نشرها ، فأين الذين قيل فيهم :

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعنـد المقلّين السماحة والبذل

وأين الذى قيل فيه :

إنمـا الدنيا أبو دلف بين مَبْـداه ومُحتضره

فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيـا على أثره

أما كان فى الجاهلية والإسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول؟ بلى، ولكن صحبة الشعراء والإحسان إليهم أحيت غابر ذكراهم. وخصتهم بمفاخر عصرهم، وغيرُهم لم تخلد الأمداح مآثرهم فدثر ذكرهم ودرس فخرهم.

٣ ـــ الخطابة الدينية :

وهى مادعى فيها إلى التمسك بآداب الدين والتحلى بحلاه ، وبعث فيها على العمل للحياة الباقية ونبذ زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فى الأموال والأولاد وكل مايشغل عن الله تعالى وعن عبادته ـــ وأغلب ماتكون هذه فى الجمع والأعياد والمواسم وأوقات الوعظ ، ومن أمثلتها خطبة لسان الدين بن الخطيب التى يقول فيها :

« إعلموا - رحمكم الله - أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان وماأملاه الملوان ، فإن الحق نور لايضره أن صدر من الخامل ، ولايقصر بمحموله احتقار الحامل ، وأنتم تدرون أنكم فى أطوار سفر ، لاتستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا تتأتى معها إقامة ولامهلة ؛ من الأصلاب إلى الأرحام . إلى الوجود إلى القبور إلى النشور إلى إحدى دارَى البقاء . أفى الله شك ؟ فلو أبصرتم مسافرا فى البرية يبنى ويفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركاكة عقله ؟ ووالله ما أموالكم ولاأولادكم ، وشواغلكم عن الله التى فيها اجتهادكم إلا ابقاء سفْر فى قفر ، أوإعراس فى ليلة نفر ، كأنكم بها مُطَّرحة تعبر فيها المواشى ، وتنبو العيون عن خبرها المتلاشى ، « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم » مابعد المقيل إلا الرحيل ، ولابعد

الرحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الوبيل ، وإنكم تستقبلون أهوالا سكرات الموت بواكر حسابها. وعَتَب أبوابها ؛ فلو كشف الغطاء عن ذرة منها الذهلت العقول وطاشت الألباب . وما كل حقيقة يشرحها الكلام «يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور »

وكذا خطبة منذر بن سعيد التى خطبها فوجه فيها الخطاب لنفسه فقال :

«حتى متى وإلى متى أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا أنزجر ؟ أدل الطريق إلى المستدلين وأبقى مقيما مع الحائرين ! كلا ؛ إن هـذا لهو البلاء المبين ! إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، اللهم فرغنى لما خلقتنى له ، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به ، ولا تحرمنى وأنا أسألك ، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك . يا أرحم الراحمين»

وتؤلف معظم الوصايا جمهرة هذا النوع من الخطابة، وفيما يلى ذلك، الحديث عنها

الوصـــايا .

من حق الكاتب عن أدب الأندلسيين - وخاصة إذا كان غير ملتزم لمنهج يقيده ، أو خطة دراسية لا تسمح له بالعدول عنها - أن يعرض للحديث عن هذا النوع المتصل بالخطابة والمعروف لدى الأدباء باسم « الوصايا » لما فيها من تذكير وموعظة هما جل غرضها والسبب الفذ الباعث على إنشائها وصوغها .

ومانقرؤه فى المأثور عنهم يدلنا على أنه كانت لهم وصايا نافعة وعظات

بالغة مؤثرة ؛ وفي هذه الوصايا والعظات نلمح نواحي نظرهم للحياة وأملهم فيها . ومبلغ عناية الموصين ببنيهم وفلذات أكبادهم ومن يسدون إليهم نصحهم ممن يهتمون بشئونهم ، ويحبون هناءتهم وإسعادهم

وقد سايرت الوصايا الأندلسيةُ الخطبَ هناك . وكانت حالها كحالها . وأسلوبها كأسلوبها ، فابتدأت قصيرة غير متكلفة ، بعيدة عن التعمق والتعمل ليس فيها من الصناعة اللفظية المقصودة شيء ، وظلت على تلك الحال أمداً بعيدا وإنك لتتأكد من ذلك حين تقرأ لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي موعظته للأفضل بن أمير الجيوش . إذ ينصحه فيها بقوله :

«إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك ؛ فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله عزّ وجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل ، واعلم أن الله عز وجل آتى سليمان بن داود مُلك الدنيا بحذافيرها ، فسخرله الإنس والجن ، والشياطين والطير ، والوحوش والبهائم ، وسخرله الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عز من قائل : «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» فما عدّ ذلك نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن يكون استدراجا من الله عز وجل فقال : «هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر» فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم»

ثم عَدَت عليها عوادي الصنعة اللفظية ـ كما عدت على الخطابة ـ واهتم قائلوها بالسجع والتجنيس وأنواع البديع ؛ وأطالوا فيها إطالة من شأنها أن تذهب ببهجة الموعظة وتجعل الموصَى بها في حيرة من أمره واضطراب من

تفكيره إذطول الكلام ينسى بعضه بعضا ، وازدحامه فى السمع - كما يقول عتبة بن أبى سفيان - مَضَلة للفهم .

ومن أمثلة ذلك وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده ، وقد اتجه فيها إلى الناحية الدينية فحرضهم على التمسك بالكتاب والسنة وشرح لهم فيها قواعد الإسلام ومايتصل بها ، وأوصاهم أن يمضوا على ذلك كله بالنواجذ وأبان لهم العلوم التى ينبغى لهم أن يحصلوها والتى يجمل بهم مجانبتها والابتعاد عنها . وقد أوردها المقرى فى الجزء الرابع من نفح الطيب . فارجع إليه إن شئت قراءتها .

وعلى نحوها فى الطول وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه علىّ حين أراد السفر إلى القاهرة ، صدرها بالقصيدة المشهورة التى مطلعها :

أودعك الرحمن فى غربتك ... مرتقبا رُحماه فى أوبتك

وهى وصية جمعت فأوعت . ورسمت دستورا واضحا يبين للنشء ولغيرهم طريق الحياة المطمئنة . وكيف يسيرون فى أعمالهم ومعاملاتهم ليضمنوا فى دنياهم عيشة راضية وراحة من الهموم والأحزان .

وإنى أختم كلامى عن الوصايا بإيراد طرف من هذه الوصاة الغالية . إعجابا بها وبحسن نسقها . وجميل نصائحها وثمين عظاتها ؛ استمع إليه يقول فى أثنائها :

« وأصغ يابنى إلى البيت الذى هو يتيمة الدهر وسلم الكرم والصبر :

ولو ان أوطان الديار نبت بكم ... لسكنتم الأخلاق والآدابا

إذ حسن الخلق أكرم نزيل ، والأدب أرحب منزل ، ولتكن كما قال بعضهم فى أديب متغرب : «وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد . وإليه

قصد . غير مستريب بدهره ولا منكر شيئا من أمره » . وإذا دعاك قلبك إلى صحبة من أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلف له سلما . وهبّ فى روض أخلاقه هبوب النسيم ، وحلّ بطرفه حلول الوسن ، وأنزل بقلبه نزول المسرة . حتى يتمكن لك وداده ويخلص فيك اعتقاده . وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا ترخص فى جانبه لحسود لك منه . يريد إبعادك عنه لمنفعته ، أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك . ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته . ولا تتمهد بدوام رقدته ، فقد ينبهه الزمان . ويغير منه القلب واللسان ، ولذا قيل : «إذا أحببت فأحبب هونا ما ففى الممكن أن ينقلب الصديق عدوا . والعدو صديقا» وإنما العاقل من جعل عقله معياراً وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله ، وجعل نصب ناظره قول أبى الطيب :

ولما صار ود الناس خِبا جزيت على ابتسام بابتسام

وفى أمثال العامة : «من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل» . فاحتذ بأمثلة من جرب واستمع إلى ماخلد الماضون ـ بعد جهدهم وتعبهم ـ من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم وزبدة تجاربهم . ولا تتكل على عقلك . فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم . يربحك ويقع عليك رخيصاً وإن رأيت من له مروءة وعقل وتجربة فاستفد منه . ولا تضيع قوله ولا فعله . فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك . وحثالك واهتداء .

وإياك أن تعمل بهذا البيت فى كل موضع : «والحر يخدع بالكلام الطيب» فقد قال أحدهم : «ماقيل أضر من هذا البيت على أهل التجمل» وليس كل ماتسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فإن كان موافقا لعقلك مصلحاً لحالك . فراع ذلك عندك وإلا فانبذه نبذ النواة ،

فليس لكل أحد يبتسم ، ولا كل شخص يكلّم ، ولا الجود مما يعم به ،ولا حسن الظن وطيب النفس مما يعامل به كل أحد . ولله در القائل :

ومالى لا أوفى البرية قسطها ... على قدر ما يعطى وعقلى ميزان»

ويكلفه بعد ذلك نصائح ترتفع به إلى المجد . مكثرا من ضرب الأمثلة مستشهدا بأبيات فيها حكم وعبر ، وينتهى من ذلك كله إلى قوله :

«واعتقد فى الناس ماقاله القائل :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وقريب منه قول القائل :

بقدر الصعود يكون الهبوط ... فإياك والرتب العالية

وكن فى مكان إذا ماسقطت ... تقوم ورجلاك فى عافية

وتحفّظ بما تضمنه قول الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

ولله در القائل :

ما كل مافوق البسيطة كافيا ... فإذا قنعت فكل شىء كافى

والأمثال يضربها لذى اللب الحكيم . وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل . ويستدل باليسير .

والله سبحانه خليفتى عليك ، لارب سواه»

الكتابة بالأندلس

تمهيد ـ أقسام الكتابة ـ (الكتابة العلمية والكتابة الأدبية) ـ أنواع الكتابة الأدبية ـ كتابة الدواوين ـ كتابة الرسائل الكتابة الوصفية ـ الكتابة الخيالية ـ أمثلة متنوعة من كل ذلك ـ حال الكتابة وأسلوبها ومميزاتها ـ أسباب رقي الكتابة .

تمهيد :

كان للكتابة بالأندلس حظ عظيم ، إذ تفرعت إلى فروع كثيرة ، وتنوعت إلى أنواع اقتضتها مصالح تلك الدولة الواسعة وحاجات الملك بها ، وما جد فيها من حضارة استدعت من الكاتبين أن يتحدثوا عنها . ويذكروا نواحيها . ـ وتنوعت أساليبها بتنوع الأغراض واختلاف الأشخاص . وكثر المنشئون . وعُرف كل منهم بأسلوبه وصوغه ، ودرت عليهم الأرزاق الوفيرة . والعطايا الجمة . من الخلفاء والأمراء . وعشاق الأدب ومحبيه . فتأنقوا في كتابتهم . وكدوا قرائحهم . وافتنوا في الأساليب وهدوا إلى طريف الأخيلة . وإلى الطيب من القول وبديع التشبيه : فطلعوا على الناس بما شُغفوا بقراءته واستحبوا سماعه

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسنا ويعبده القرطاس والقلم

وتناولوا كل مناحي القول . وجالوا فيها جولات موفقة . حتى فيما كان يختص بالشعر ويستأثر به ، وأبدعوا في ذلك كله وأتوا فيه بالمستملح المعجب

وكان لتلك البيئة المترفة الناعمة أثرها فى صقل أقلامهم . وترقيق أسلوبهم وتخيرهم أسلس الألفاظ نطقا . وأظهرها معنى . وعنايتهم ببلاغة العبارات وجزالتها . وتناسق وضعها وإحكامها . وبعدهم عن الحوشى والغريب . ومجانبتهم غامض التراكيب . وخفى المعانى .

وكانت الكتابة فى أول عهدها هناك . يتولاها الوالى بنفسه . ثم صار للولاة كتّاب يملى عليهم الولاة أنفسهم مايريدون أن يبعثوا به إلى دار الخلافة أو أطراف ولايتهم . وممن وقفت على اسم كاتبه . يوسف الفهرى فقد استكتب أمية بن يزيد .

ولما ازدادت مطالب الدولة - فى عهد الأمويين - واتسع العمران . وشغل الملوك بتصريف شئون دولتهم وما يحتاج إليه ذلك السلطان الواسع من تفكير وجهد ، صار الكاتب يكتب من إنشائه على نحو مايرسم له الخليفة . ثم لم يلبث أن استقل فيما يصدره من منشورات ورسائل . أو أوامر مصرفة للأحوال على نحو مايتطلبه النظام المرسوم وتستدعيه أغراض الدولة وتسنه دساتيرها .

وكان لهذا الكاتب (الرسمى) المختص بحاكم البلاد حظ فى القلوب والعيون عند أهل الأندلس . وأشرف أسمائه (الكاتب) وبهذه السمة يخصه من يعظمه فى رسالة .

وكما كان له ذلك . كان ملحوظا منهم بالنظر . ومحلا لمدحهم أو قدحهم على حسب مايستجلب لنفسه بفنّه . لايدعون التصريح بنقده خوفا منه أو رهبة من تقربه إلى السلطان . بل يجأرون بما يرون فيه من عيب . ويصرحون بما يلمسونه من نواحى نقصه . ولايكادون يغفلون عن عثراته

لحظة ، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن فى المحافل ، والطعن عليه وعلى صاحبه»

وعندى أن ذلك سبب فى رقى الكتابة بالأندلس . ونهوض أمرها هناك ، وتجويد أصحابها لها وعنايتهم بها ؛ ذلك لأن المنقود يخشى صولة الناقد فلايزال يبالغ فى التهذيب حتى لاتقع عين خصمه منه على مايكره وكذلك الناقد . لايحب أن يرى منه من ينقده عيبا قد أخذه هو عليه . أو تقصيرا فى ناحية يرى من واجبه إعطاءها أو فى نصيب من عنايته .

ولست أشك أن ذلك مما يرتفع بالكتابة ويهذبها . ويجعل أهلها شديدى الرغبة فى إتقانها والإبداع فيها .

والنصوص الآتية بعد - بمشيئة الله تعالى - أعدل شاهد لذلك وأنطق لسان به .

أقسام الكتابة

انقسمت الكتابة بالأندلس إلى علميـــة . وفنية .

فالأولى كتابة التدوين والتصنيف :

وهى ماتناولت شرح الحقائق وتوضيحها . من أقرب السبل وأيسرها فى أسلوب هادئ . لاغموض فيه ولا التواء . يقصد به إلى تقرير المعنى المراد وإفهامه من غير لجأ إلى أنواع المجاز ومحسنات البديع .

وقد برع الأندلسيون فى كتابة التآليف هذه . وسلست أساليبهم فيها ووضحت عباراتهم ؛ وإنك لتقرأ الكثير من تلك الكتابة فى جمهرة

مؤلفاتهم . فى فنون مختلفة وأغراض شتى . فلا تكاد تشعر بحاجة إلى كد فهم وإتعاب ذهن . بل ترى سهولة فى الألفاظ . ووضوحا فى المعانى وإلى القارئ الكريم . أمثلة متنوعة . ونماذج من مؤلفات عدة ، عساها تصدق ذلك القول الذى قدمته ، وتؤيده وتنصره ، وأبتدئ هذه بتقدمة من تقدمات أبى عمرو أحمد بن عبد ربه لأبواب كتابه (العقد الفريد) وهى ماصدر بها كتاب الياقوتة فى العلم والأدب . إذ يقول بعد أن أشار إلى مضمون الكتاب السابق :-

«ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه فى العلم والأدب ، فإنهما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا . وفرق ما بين الإنسان وسائر الحيوان وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية ، وهو مادة العقل وسراج البدن . ونور القلب . وعماد الروح ، وقد جعل الله بلطيف قدرته وعظيم سلطانه . بعض الأشياء عمدا لبعض ، ومتولدا من بعض ، فإجالة الوهم فيما تدركه الحواس . تبعث خواطر الذكر ، وخواطر الذكر تنبه روية الفكر ، وروية الفكر تثير مكامن الإرادة ، والإرادة تحكم أسباب العمل . فكل شىء يقوم فى العقل ويمثل فى الوهم يكون ذكرا . ثم فكرا ، ثم إرادة . ثم عملا ، والعقل متقبل للعلم ، لا يعمل فى غير ذلك شيئا والعلم علمان . علم حُمل . وعلم استعمل . فما حمل منه ضر . وما استعمل نفع ؛ والدليل على أن العقل إنما يعمل فى تقبل العلوم كالبصر فى تقبل الألوان ، والسمع فى تقبل الأصوات : أن العاقل إذا لم يعلم شيئا كان كمن لا عقل له ، والطفل الصغير لو لم تعرفه أدبا وتلقنه كتابا كان كأبله البهائم وأضل الدواب .

فإن زعم زاعم فقال : إنا نجد عاقلا قليل العلم فهو يستعمل عقله فى قلة علمه فيكون أسد رأيا . وأنبه فطنة ، وأحسن موارد ومصادر من الكثير

العلم مع قلة العقل ؛ فإن حجتنا عليه ماقد ذكرناه من حمل العلم واستعماله . فقليل العلم يستعمله العقل خير من كثيره يحفظه القلب .

وإليك من كلام أبى القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٢ ﻫ ما كتبه فى مؤلفه (طبقات الأمم) إذ يقول فى حديثه عن العلوم فى الأندلس :

«وأما الأندلس فكان فيها أيضا بعد تغلب بنى أمية عليها جماعة عنيت بطلب الفلسفة ونالت أجزاء كثيرة منها ، وكانت الأندلس قبل ذلك فى الزمان القديم خالية من العلم . لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به ؛ إلا أنه يوجد فيها طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة منها . وقع الإجماع على أنها من عمل ملوك رومية . إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم .

ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة إلى أن افتتحها المسلمون فى شهر رمضان سنة ٩٢ ﻫ فتمادت على ذلك أيضا لايعنى أهلها بشىء من العلوم إلا بعلوم الشريعة وعلم اللغة . إلى أن توطد الملك لبنى أمية بعد عهد أهلها بالفتنة ، فتحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلوم . وتنبهوا لإشارة الحقائق»

وهذه كلمة من كتاب المخصص لأبى الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى ، المعروف «بابن سِيدَه» المتوفى سنة ٤٥٨ ﻫ :

باب مايهمز فيكون له معنى فإذا لم يهمز كان له معنى آخر .

«يقال : قد رَوَّأْتُ فى الأمر . وقد روّيْتُ رأسى بالدهن ، وقد تَمَلَّأْتُ من الطعام والشراب . وقد تمليّت العيش : إذا عشتُ مليا . أى طويلا ، وتقول : قد تَخَطَّأْتُ له فى هذه المسألة . وقد تَخَطَّيْتُ القدم ، لأنه من الخطوة . وقد قرأت القرآن ، وما قَرَأَت الناقة سَلًا قط . أى لم تلق ولدا

أراد أنها لم تحمل ، وقد قَرَيْت الضيف»

ومن كلام الإمام الشاطبي فى كتاب (الاعتصام) قوله :

(فصل) ومما يتعلق به بعض المتكلفين : أن الصوفية هم المشهورون باتباع السنة ، المقتدون بأفعال السلف الصالح المثابرون فى أقوالهم وأعمالهم على الاقتداء التام . والفرار عما يخالف ذلك . ولذلك جعلوا طريقتهم مبنية على أكل الحلال . واتباع السنة والإخلاص ؛ وهذا هو الحق . ولكنهم فى كثير من الأمور يستحسنون أشياء لم تأت فى كتاب ولا سنة ، ولا عمل بأمثالها السلف الصالح فيعملون بمقتضاها . ويثابرون عليها ، ويحكمونها طريقاً لهم مهيعاً . وسنة لا تخلف . بل ربما أوجبوها فى بعض الأحوال »

ومن كتاب التسهيل لابن مالك (صاحب الألفية) فى باب الأحرف الناصبة الاسم الرافعة الخبر :

« فصل يجوز دخول لام الابتداء بعد إنّ المكسورة . على اسمها المفصول ، وعلى خبرها المؤخر عن الاسم . وعلى معموله مقدما عليه بعد الاسم ، وعلى الفصل المسمى عماداً ؛ وأولُ جزئى الجملة الاسمية المخبر بها . أولى من ثانيهما . وربما دخلت على خبر كان الواقعة خبر إن ؛ ولا تدخل على أداة شرط ولا على فعل ماض متصرف خال من قد . ولا على معموله المتقدم . خلافاً الأخفش . ولا على حرف نفى إلا فى ندور . ولا على جواب الشرط خلافا لابن الأنبارى . ولا على واو المصاحبة المغنية عن الخبر خلافا للكسائى ؛ وقد يليها حرف التنفيس خلافا للكوفيين »

وفى كتاب فلسفة الأخلاق لابن حزم . فصل فى العلم يقول فيه :

« لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويحبونك . وأن العلماء يحبونك ويكرمونك . لكان ذلك سببا إلى وجوب طلبه . فكيف بسائر فضائله فى الدنيا والآخرة ؟ ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبطه نظراؤه من الجهال لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار منه . فكيف بسائر رذائله فى الدنيا والآخرة ؟ لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التى لا تفيد غير الهم ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس لكان ذلك أعظم داع إليه ، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره . ومن أقلها ما ذكرناه مما عليه طالب العلم »

ومن كلام الإمام الفيلسوف أبى الوليد بن رشد فى كتابه (المقدمات) قوله فى كتاب الحج بعد أن ذكر شرائط وجوبه وعد منها الاستطاعة :

« فصل » والاستطاعة القوة على الوصول إلى مكة . إما راكباً . وإما راجلا ، مع السبيل الآمنة المسلوكة ، وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاستطاعة : أنه الزاد والراحلة ، معناه عندنا . فى البعيد الدار الذى لا يقدر على الوصول إلى مكة راجلا إلا بتعب ومشقة ، فاذا كان لا يقدر على الوصول راجلا لبعد بلده إلا بالمشقة التى ذكرها الله تعالى حيث يقول : (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) فلا يجب عليه الحج حتى يقدر على الراحلة بشراء أو كراء »

على هذا النحو : من السهولة والسلاسة . وإفادة الغرض فى وضوح وجلاء ؛ كان أسلوب الكتابة العلمية بالأندلس ، وظل ذلك الأسلوب على هذا الطابع اللين السهل إلى أمد بعيد فى كل مؤلفاتهم .

ثم عنى الأندلسيون بنوع من هذه الكتابة عبارة وأسلوبا ، وافتنوا فيه افتنانا كاد يستجلب له خصائص الكتابة الأدبية . حتى عده بعض الكاتبين - لذلك - من النثر الفنى ؛ - ذلك هو كتابة التراجم . والتواريخ ؛ وكتبُ الفتح بن خاقان من أمثلة ذلك وشواهده ، استمع إليه حين يترجم فى « قلائدالعقيان » للمعتصم بن صُمادح ملك المَرِيَّة فيقول :

«ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع فى انتظام مجالسها واتساقها وأوضح رسمها . وأثبت فى جبين أوانه رسمها ؛ لم تخل أيامه من مناظرة . ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة ، إلا ساعات أوقفها على المدام . وعطلها من ذلك النظام ، وكانت دولته مشرعا للكرم ، ومطلعا للهمم ، فلاحت بها شموس ، وارتاحت فيها نفوس ، ونفقت فيها أقلام الأعلام وتدفقت بحار الكلام»

واستمع إليه كذلك إذيعرف فى(مطمح الأنفس) بالفقيه أبى بكر محمد ابن الحسن الزبيدى ، فيقول بعد ذكر اسمه .

«إمام اللغة والإعراب وكعبة الآداب . أوضح منها كل إبهام . وفضح دون الجهل بها محل الأفهام ، وكان أحد ذوى الإعجاز . نجَم والأندلس فى اقتبالها ، والأنفس أول نهمها بالعلم واهتبالها ، فنفقت عندهم البضاعة واتفقت على تفضيله الجماعة وأشاد الحكم بذكره . فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار العين للخليل ، وهو معدوم النظير والمثيل ، ولحن العامة ، وطبقات النحويين ، وكتاب الواضح ، وسواها من كل تأليف مخجل لمن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع كأنما يتفجر من ينبوع »

وهذا الأسلوب بعينه تقرؤه فى الذخيرة لابن بسام إذ يقول فى ترجمة أبى عامر بن شهيد :

«كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها ، ينبوع آياتها ، ومادة حياتها وأساتها . ومعنى أسمائها ومسمياتها . نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسجع الحمام ، وإن جد فزئير الأسد الضرغام ، نظم كما اتسق الدر على النحور ، ونثر كما خالط المسك . والكافور »

ويقول كذلك فى ترجمة أبى حفص عمر بن الشهيد :

«وأبو حفص هذا كان فارس النظم والنثر ، وأعجوبة الزمان والعصر ، ونهاية الخَبَر والخُبْر ، رقم برود الكلام ، ونظم عقود النثر والنظام ، وهو وإن لم يَزِر الملك ، ولا درات عليه رحى ملك ، فليس بمتأخر عن طبقات المحسنين ، ولا بسكّيت فى حلبات الكتاب المجيدين »

والمتتبع لأسلوبى ابن بسام وابن خاقان يرى فى الأول رقة وعذوبة لايراهما فى الثانى فى تراجم كثيرة ، لأن ابن خاقان خضع للصنعة اللفظية أكثر مما ينبغى ، وحكّم السجع فى أسلوبه إلى حد بعيد ، فكان ذلك سبباً فى ذهاب رونق كثير من كتابته وضياع بهجتها ، واستثقال السمع لها ، على حين جرى ابن بسام على الطبيعة السهلة ولم يجعل للسجع حكما عليه وإرادة على أسلوبه وإن وجد فى كثير مما كتب .

وأجتزئ فى ذلك — إلى جانب ما نقلته عن هذين الأديبين — بما كتبه لسان الدين فى الإحاطة وهو يترجم للسلطان محمد بن يوسف من بنى الأحمر إذ هو مما تمثلت فيه عناية الأندلسيين بذلك النوع من الكتابة .

ويعجبنى من ابن الخطيب أنه لم يلتزم السجع فيما كتب فى هـذه الترجمة مع أنه ممن شهر بحبه له والتزامه إياه فى معظم كتابته . إستمع إليه إذ يقول فى حال ذلك السلطان بعد أن عرّف به وذكر أوليته :

« هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبة ، وأسعدهم ميلادا وولاية . قد جمع الله له بين حسن الصورة واستقامة البنيـة . واعتدال الخلق وصحة الفكر وثقوب الذهن ونفوذ الإدراك . ولطافة المسائل وحسن التأنى ، وجمع له من الظرف مالم يجمع لغيره ، إلى الحلم والأناة اللذين يحبهما الله ، وسلامة الصدر التى هى من علامة الإيمان . ورقة الحاشية وسرعة العبرة والتبريز فى ميدان الطهارة والعفة إلى ضخامة التنجد واستحداث الآلة . والكلف بالجهاد وثبات القدم وقوة الجأش ومشهور البسالة . وإيثار الرفق ونجح المحاولة . زاده الله من فضله . وأبقى أمره فى ولده .

وهذا الأسلوب الذى انتهجه بعض مؤلفى الأندلس فى ذلك النوع من الكتابة العلمية . لم يؤثر على من عداهم من المؤلفين فى غير ذلك من أغراض التأليف . ولا يصح أن يقال — من أجل فقر وردت فى أثناء حديث عن موضوع أو تقرير لمسألة — : إن ذلك الأسلوب طغى على الكتابة حتى أصبح الإنسان لا يكاد يجد كتابا غير مسجوع »

ولم أجد فيما وقفت عليه من مؤلفاتهم أثرا لذلك الأسلوب الصناعى . اللهم إلا فى مقدماتها وخطبها ، ولعل الذى حدا بمؤلفيها إلى ذلك : أن الخطب — كما يقول الشيخ عبد القاهر فى أسرار البلاغة — : « من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع . فإنها تروى وتتناقل تناقل الأشعار . ومحلها محل النسيب والتشبيب من الشعر . الذى هو كأنه لا يراد منه إلا

الاحتفال فى الصنعة والدلالة على مقدار شوط القريحة ، والإخبار عن فضل القوة . والاقتدار على التفنن فى الصنعة »

ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو حيان فى صدر كتابه (البحر المحيط)، إذ يقول :

« وبعد ، فإنّ المعارف جمة ، وهى كلها مهمة ، وأهمها مابه الحياة الأبدية والسعادة السرمدية . وذلك علم كتاب الله تعالى ، هو المقصود بالذات ، وغيره من العلوم كالأدوات ، هو العروة الوثقى . والوزر الأوقى ، والحبل المتين ، والصراط المبين ؛ ومازال يختلج فى ذكرى ، ويعتاج فى فكرى أنى ، — إذا بلغت الأمد الذى يتقضض فيه الأديم ، ويتنغص برؤيتى النديم ، وهو العقد الذى يحل عرى الشباب . المقول فيه : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب — ألوذ بجناب الرحمن وأقتصر على النظر فى تفسير القرآن ، فأتاح الله لى ذلك . قبل بلوغ ذلك العقد . وبلغنى ما كنت أروم من ذلك القصد . وذلك بانتصابى مدرسا فى علم التفسير . فى قبة السلطان القاهر ، الملك الناصر الذى رد الله به الحق إلى أهله . وأسبغ على العالم وارف ظله . واستنقذ به الملك من غُصّابه . وأقره فى منيف محله وشريف نصابه »

وفى الموافقات ، والجامع لأحكام القرآن وكثير غيرهما ترى ذلك الأسلوب فى خطبها ومقدماتها لا فى صلب موضوعاتها .

ذلك إجمال لما كانت عليه حال الكتابة العلمية بالأندلس ولعله رسم ظاهر لها ، ولعل لى عذرا فى الإكثار من الشواهد والأمثلة فالحديث مبنى عليها ؛ وما حكم به بعض الكاتبين من شيوع السجع والصنعة فى كتابة الأندلسيين جميعها ، دفعنى - زيادة على ذلك - إلى الإكثار من النماذج إظهارا للحقيقة فى ثوبها الشفاف .

والثانيـة مايسمونهـا الكتابة الأدبية :

وهى البرهان الساطع ، والمظهر الدال على الإجادة فى التعبير. والإبداع فى التخيل ، والمرآة التى ترتسم عليها خلجات النفوس ومكنونات السرائر واللسان الذى يحدثك عن براعة الكاتب ومقدرته على التصرف فى مناحى القول ، ويهديك إلى تمكنه من أساليب الكلام وفنون البلاغة وسحر البيان .

وهـذا النوع من الكتابة معرض للتأثر بما يحدث للغة فى كل عصر تعيش فيه . وللاصطباغ كذلك بما تلون به الحياة الاجتماعية من ألوان المدنية والحضارة ، وبما يصادفها من أسباب الضعف والقوة ، من أجل ذلك نراه يظهر فى كل بيئة بما يلائم حال معيشتها ونظم حياتها ، ويتأثر بما يعتورها من الانحطاط والرفعة . وبما يكتنفها من عوامل الطبيعة ومظاهر الكون .

ونستطيع أن نلمس ذلك بأيدينا إذا نحن عرضنا لمأثور الأندلسيين ، وماروته الكتب عن المبرزين منهم ، غير أنه ليس من الممكن أن ننظم ذلك المأثور جميعه فى سلك واحد . لما بينه من اختلاف فى المقاصد وتباين فى الأغراض ، ولكننا نقسمه إلى أنواع يهدينا هو بنفسه إليها ؛ وتلك ماننسق الحديث عنها فيما يلى :

١ ـ كتابة الدواوين:

وهى ما كانت تصدر عن الخلفاء ووزرائهم وعمالهم . مصرفة لأعمال الدولة ومنظمة لشئونها ، ومبينة لما يجب أن يسير عليه الولاة أو العامة ومن إليهم ، فى عبارة مراعى فيها بسطة القول ووضوح المعانى . كما ترى

ذلك فى منشور الخلافة الذى أصدره عبد الرحمن الناصر إلى جميع الجهات بالأندلس حين ضعف أمر الخلفاء ببغداد وبلغه أن مؤنسا (الخادم) قتل مولاه الخليفة المقتدر بالله العباسى . وإليك نصه على ما روته الكتب :

« أما بعد ، فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ماألبسه ؛ للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه . ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل لدولتنا مرامه ؛ وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا » وأعان من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا ، — والحمد لله ولى الإنعام بما أنعم ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين . وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه .

فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به . وأجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله ، والله المستعان »

وكما تراه فى منشور تحريم الفلسفة . الذى أصــدره منصور بنى عبد المؤمن بعد محاكمة الإمام الفيلسوف ابن رشد ونفيه إلى اليسابة (بلدة قرية من قرطبة سكانها من اليهود) وفى هذا المنشور يقول مخاطبا أهل الأندلس والمغرب :—

« ومازلنا — وصل الله كرامتكم — نذكرهم على مقدار ظننا فيهم » يعنى المشتغلين بالفلسفة وكتبا ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله

سبحانه ويدنيهم ، فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وُقف لبعضهم على كتب مسطورة فى الضلال ، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشح بكتاب الله ، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله ، لُبس منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون فى صورة السلم ، مَزَلة الأقدام ، وهم يدب فى باطن الإسلام ، أسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فإنهم يوافقون الأمة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونها بباطنهم وغيهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذى فى جفن الدين ، ونقطة سوداء فى صفحة النور المبين ، نبذناهم فى الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة ، وأبغضناهم فى الله ، كما أنا نحب المؤمنين فى الله . وقلنا : اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين . . . الخ »

ومن هذه الكتابة . كتابة العهود التى يفوض بها الخلفاء أمر الخلافة من بعدهم لمن يشاءون . رغبة فى تولية مضطلع بالأمر قادر عليه . أو خشية من اختيار من لا يريدون توليته من غير أهليهم وبطانتهم ؛ وأبرز ما رأيته منها : العهد الذى كتبه أبو حفص بن برد على لسان الخليفة ، المؤيد بالله هشام الأموى . عاهدا بالأمر من بعده لأبى المظفر عبد الرحمن بن المنصور العامرى ، وهو فى الجزء الرابع من تاريخ العلامة ابن خلدون « العبر وديوان المبتدإ والخبر » صفحة ١٤٨

ومنها كذلك تلك الجمل الموجزة التى كان يثبتها الخليفة أو الأمير مبيناً بها رأيه فيما يرفع اليه من رقاع أو شكاوى ، والتى أطلق عليها الأدباء اسم « التوقيعات » ومن أمثلتها ما وقع به الأمير عبد الرحمن الأوسط فى رقعة رفعت اليه وهو :

«من لم يعرف وجه طلبه ، فالحرمان أولى به »

وما وقع به محمد بن محمد بن يوسف من بنى الأحمر . فى شكوى رفعت له فى أحد الأجناد ، وكان قد تعرض لنساء بعض العامة . وهو :

« يخرج هذا النازل ، ولا يعوض بشىء من المنازل »

وما وقع به كذلك على رقعة كان رافعها يسأل التصرف فى بعض الشهادات ويلح فى ذلك ، وفيه تورية لطيفة إذ يقول :

يموت على الشهادة وهو حى   إلهى لا تمته على الشهادة

٢ — كتابة الرسائل :

وهى نجوى النفس وأنشودة الروح. والصورة الماثلة الناطقة . المعبرة عن وحى الخاطر ، وحديث الوجدان . وقد تناولت هذه من الأغراض ما تناول الشعر ، مما كان مستعصياً قبل على النثر ، كالعتاب والاعتذار . والمدح . والافتخار ، والهجاء ، والرثاء ، والتهنئة والشوق ، وما إلى ذلك مما يصور عواطف الأفراد ، ويظهر ما استكن فى نفوسهم . على أسلات أقلامهم نثرا رقيقاً ، يهتز له القلب ، ويهفو لحسنه الفؤاد .

وتكون الرسائل الإخوانية : الجمهرة الغالبة من هذا النوع ، ومن أمثلته ما كتبه المنذر بن عبد الرحمن الأوسط إلى أبيه عبد الرحمن ، يستعطفه ويستلين قلبه ، ليرده من ذلك المكان الموحش الذى نماه إليه تأديباً له على ما كان منه من سوء خلق وكثرة إصغاء إلى أقوال الوشاة وتشك منهم إلى والده حتى أضجره ؛ وفى هذا الكتاب يقول . وقد أخذ منه المنفى مأخذه وأثر فى نفسه :

«إنى قد توحشت فى هذا الموضع توحشا ماعليه من مزيد، وعدمت فيه من كنت آنس إليه، وأصبحت مسلوب العز، فقيد الأمر والنهى، فإن كان ذلك عقابا لذنب كبير ارتكبته وعلمه مولاى ولم أعلمه، فإنى صابر على تأديبه، ضارع إليه فى عفوه وصفحه.

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر، لاعار بما فعل الدهر»

وما كتبه أبو عبيد البكرى، مهنئا أبا الوليد بن زيدون بالوزارة فى رقعة قال فيها: —

«أسعد الله بوزارة سيدى الدنيا والدين، وأجرى لها الطير الميامين ووصل بها التأييد والتمكين.

والحمد لله على أمل بلّغه، وجذل قد سوغه، وضمان حققه، ورجاء صدقه، وله المنة فى ظلام كان — أعزه الله — صبحه. ومستبهم غدا شرحه وعطل نحر كان حليه. وضلال دهر صار هديه.

فقد عمر الله الوزارة باسمه ورد إليها أهلها بعد إقصار»

ومن الرسائل المطولة - فى هذا النوع - رسالة الوزير ابن زيدون، التى بعثها وهو فى سجنه إلى أبى الحزم ابن جهور، يستعطفه ويستجلب مودّته. ويعتذر له متبرئا مما نسب إليه، معرضا بالوشاة النمامين، الذين أوقدوا نار الفتنة وأغضبوا عليه رئيسه؛ كل ذلك فى أسلوب رقيق جذاب. يخيل لكثير أن فى استطاعتهم محاكاته وصوغ مثله؛ لضمه شوارد من نصوص الأدب ليس للكاتب فضل اختراعها؛ حتى إذا رازوا أنفسهم، واختبروا قرائحهم، أقروا بالعجز، واعترفوا بأنه السهل الممتنع، والقريب البعيد وإليك طائفة من هذه الرسالة الفذة فى موضوعها إذ يقول فى أولها: —

« يامولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة ، إن سلبتنى - أعزك الله - لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى بَرُود إسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستحمادى إليك ، فلا غرو ، قد يغص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الحساد »

ثم يتعلل بالآمال ، ويمنى نفسه بانكشاف الغمة ، وقرب إدراك العفو فيقول :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يريبنى من سيدى إن أبطأ سيبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشيا أحفلها ، وأنفع الحيا ما صادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه فى اغتفاله ،

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً   فأفعاله اللاتى سررن ألوف »

ويقف فى ساحة عفو سيده مستصغراً ما ارتكبه . مستجلبا عطفه بمدحه فى أسلوب تستشعر منه بكاءه إذ يقول :

« وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ، والجهل الذى

لم يات من ورائه حلمك ، والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو أن أكون بريئا فأين العدل ، أومسيئا فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واسع   أوكان لى ذنب ففضلك أوسع »

ثم تأخذه عزة نفسه فيصرح أنه لا يقيم على ضيم يراد به ، وأن فى استطاعته مفارقة ذلك المكان الذى يهان فيه إلى حيث يعترف له بالفضل ويطيب العيش ، ولكنه يؤثر البقاء بأرض نشأ بها ، وتربى فيها ، ويغالى - إلى جانب ذلك - بعقد جوار الأمير ويفخر به فيقول :

« ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحول إذا بلغتنى الشمس ، ونبا بى المنزل ، وأصفح عن المطامع التى تقطع أعناق الرجال ، فلا أستوطئ العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور ، ومن الأمثال المضروبة : (خامرى أم عامر) وإنى مع المعرفة بأن الجلا : سِبا ، والنُقلة : مُثلة .

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى   مصارع مظلوم مجرّا ومسحبا

وتدفن منه الصالحات وإن يسئ   يكن ماأساء النار من رأس كبكبا

عارف أن الأدب الوطنُ لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زياله والنسيب لا يخفى والجمال لا يجفى ، ثم ماقران السعد للكواكب أبهى أثرا ولا أثنى خطرا من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقا معه ، فإن الحائز لهما ، الضارب بسهم فيهما - وقليل ماهم - أينما توجهه ورد منهل بر ، وحط فى جانب قبول ، وضوحك قبل إنزال رحله ، وأعطى حكم الصبى على أهله ، وقيل له :

أهــلا وسهلا ومرحبا   فهذا مبيت صالح ومقيل

غير أن الوطن محبوب والمنشأ مألوف واللبيب يحن إلى وطنه ، حنين النجيب إلى عطنه ، والكريم لا يجفو أرضا فيها قوابله . ولا ينسى بلدة فيها مراضعه ، قال الأول :

أحب بلاد الله ما بين منعج إلىّ وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها حلّ الشباب تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

هذا إلى مغالاتى بعقد جوارك . ومنافستى بلحظة من قربك . واعتقادى أن الطمع فى غيرك طبَع ، والغنى من سواك عَنا ، والبدل منك أعور ، والعوض لفاء ، وكل الصيد فى جوف الفرا

وإذا نظرت إلى أميرى زادنى ضناً به نظرى إلى الأمراء »

ومن ذلك ما كتبه الأديب أبو جعفر اللمانى فى رسالة يعزى بها أبا جعفر بن عباس فى أبيه فيقول :

« إن لم أجد التأبين ، فإنى أجيد البكاء والحنين ، وإن لم أحسن التملق والإطراء ، فإنى أحسن الإخلاص والدعاء : اتصل بى موت الوزير أبيك — لقاه الله غفرانه . وكوّنك بفضله مكانه — فروع جنان الصبر . وأخرس لسان الشكر . بدر أفل . وهلال استقل . أعزيك فأسليك . قدر مصابك . قدر ثوابك ، صبرا جميلا عليه لتؤجر ، وفعلا حميدا بعده لتذكر ، أصاب العزة فأصب ، وأتعب أهل زمانه فأتعب ، أقول محققا ، وأستشهد لى مصدقا . أولانى من البر مالا أدفعه ، وألبسنى من الإكرام مالا أخلعه

ستسفح عينى عليه دما إذا ماالعيون سفحن الدموعا
وقد كان غصنى به ناعما وروضى أنيقا ودهرى ربيعا

٣ ـ الكتابة الوصفية :

وهى ذلك النوع الدقيق الرقيق ، الذى يعمد به المترسل إلى تحديد الغرض وتبيين الحقيقة ، والإفصاح عن الخبيء الكامن والمستتر الخفى ؛ وهى أحوج ما تكون إلى ثروة عظيمة من الألفاظ والتشابيه . وقدم راسخة فى ساحة الأدب وميدان البلاغة ، وليس بعجيب أن تعد نوعا مستقلا . وقسما ليس تابعا لغيره ، لأنّ الأندلسيين برعوا فى تلك الناحية وبلغوا فيها شأوا لم تتهيأ أسبابه لكثير غيرهم .

وكان لما حباهم الله به من صفاء الجوّ ورقة النسيم وخصب التربة وكثرة الرياض . وضحك الأزهار وشدو الأطيار ، وجمال الطبيعة واعتدال الفصول ـ كان لذلك كله أثره البين فى افتتانهم فى الوصف وحبهم له وإكثارهم منه .

والمتتبع لمأثورهم فى هذا النوع ، يرى أنهم وصفوا كل ماشاهدوه ، وما وقع تحت حواسهم ، واشتملت عليه بلادهم ، فهذا أبو عمرو الباجى يحدثك عن قحط عمهم فآلم الأفئدة وروع القلوب ، وأهاج الأحزان وأثار الشجون ، ثم أعقبه الله غيثا أزال به الكُرب وبعث فى النفوس الأمل بعد اليأس والطمأنينة إثر القلق ؛ يصف تلك الحال بأسلوبه الرقيق السهل فيقول بعد تقدمة قصيرة : ـ

«وإنه بعد ما كان من امتساك الحيا وتوقف السقيا الذى ريع به الآمن واستطير له الساكن ، ورجفت الأكباد فزعا ، وذهلت الألباب جزعا . وأذكت ذكاء حرّها . ومنعت السماء درّها . واكتست الأرض غبرة بعد

خضرة، ولبست شحوبا بعد نضرة ، وكادت برود الأرض تطوى ، ومدود نعم الله تذوى . نشر الله تعالى رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح منته ، وأزاح محنته . فبعث الرياح لواقح ، وأرسل الغمام سوافح ، بماء دفق . ورواء غدق ، من سماء طبق ، استهل جفنها فدمع ، وسح دمعها فهمع ، وصاب وبلها فنقع ، فاستوت الأرض ريا ، واستكملت من نباتها أثاثا وريا ، فزينة الأرض مشهورة وحلة الروض منشورة ، ومنة الرب موفورة . والقلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها . وآثار الجزع ممحوة ، وسور الحمد متلوة »

ويروى صاحب المطمح عن أبى يوسف بن الأعلم وصف فرس أعجبه منظره وسره مخبره فقال :

أنظر إليه سليم الأديم ، كريم القديم ، كأنما نشأ بين الغبراء واليحموم نجم إذا بدا ، ووهم إذا عدا ، يستقبل بغزال . ويستدبر برال . ويتحلى بشتات تقسيمات الجمال »

ومما يشهد لافتنانهم فى الوصف وتمكنه من نفوس كتابهم ، ذلك الفصل الممتع الذى كتبه أبو عامر بن شهيد معرفا ببراعته وابتكاره . وتهديه إلى مالم يتهد إليه غيره . إذ يصف لنا «البرغوث» الذى يراه الكثيرون ولا يعيرونه التفاتة ولا يخصونه بتفكير ولا يسمحون لأقلامهم أن تجول فى وصفه وتوضيح شأنه ، فيقرر بكلامه حقائق مسلمة . لا يستطيع أن ينكرها إنسان ، فيقول :

«أسود زنجى ، أهلى وحشى ، ليس بوان ولا زميل ، وشونيزة . وثبها غريزة . ونقطة مداد ، وسويداء قلب فؤاد ، شربه عب . ومشيه وثب يكمن نهاره ، ويسير ليله ، يدرك بطعن مؤلم ، ويستحل دم كل مسلم ،

مساور للأساورة ، يجر ذيله على الجبابرة . متكفن بأرفع الثياب ويهتك ستر كل حجاب . ولا يحفل ببواب ، يرد مناهل العيش العذبة . ويصل إلى . . . الرطبة . لا يمنع منه أمير ، ولا تنفع فيه غيرة غيور . وهو أحقر من كل حقير ، شره مبثوث ، وعهده منكوث ، وكذلك كل برغوث » .

ولم يدعوا القلم والمداد وأدوات الكتابة وما إليها دون أن يصفوها لنا كغيرها . تقرأ ذلك فى قول أبى حفص بن برد :

« المداد كالبحر . والقلم كالغواص ، والألفاظ كالجوهر . والقرطاس كالسلك ، والدواة كالقلب . والقلم كالخاطر ، والصحيفة كاللسان .

العقل أب والعلم أم ، والفكر رأى ، والقلم خادم ؛ ما أعجب شأن القلم ، يشرب ظلمة ويلفظ نورا ! » .

وهذه الرياض النضرة والسحب الماطرة ، والغدران الحافلة بمياه الغمائم ، والأباطح ذات الورود والرياحين ، ومناظر الجو وأحداث الطبيعة يحدثنا ابن خفاجة عنها واصفا لها فى قوله :

« ولما أكب الغمام إكبابا ، لم أجد منه إغبابا ، واتصل المطر اتصالا ، لم آلف منه انفصالا ، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته . وينشر صحيفته فقشعت الريح السحاب كطوى السجل الكتاب وطفقت السماء تخلع جلبابها والشمس تميط نقابها . وطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت ، فذهبت فى لمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضا . ونطوى للتفرج أرضا . فلا أندفع إلا إلى غدير نمير ، قد استدارت منه فى كل قرارة ماء ، سحابة غماء ، وانساب فى تلعته حباب ، فترددنا بتلك الأباطح تتهادى تهادى أغصانها ، وتتضاحك تضاحك أقحوانها . وللنسيم

أثناء ذلك المنظر الوسيم ، ترسل مشى على بساط وشى ، فإذا مر بغدير نسجه درعا . وأحكمه صنعا ، وإن عثر بجدول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحا مملوءة سلاحا ، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول . وسيف مسلول »

وليس فى الوسع استقصاء مالهم فى هذا الباب فلعل ماأوردناه دليل على غيره ونموذج منه ، وطيب العرف ينم عن الزهر .

وقبل أن أدع الحديث فى ذلك النوع أقول : إنه من قبل حبهم للكتابة الوصفية أو من جهة طغيانها على أقلامهم ، كانوا يجنحون إليها فى كثير من رسائلهم وإن لم تكن من أغراضها ، كما ترى ذلك فى رسالة الوزير أبى المطرف بن الدباغ التى بعثها إلى صديق له يطلب إليه شهود مجلس أنس فيقول:

«يومنا يوم تجهم محياه ، ودمعت عيناه ، وبرقعت شمسه الغيوم ، ونثرت صباه لؤلؤه المنظوم ، وملأ الخافقين دخان دجنه ، وطبق بساط الأرض هملان جفنه ، فأعرضنا عنه إلى مجلس وجهه كالصباح المسفر ، وجلبابه كالرداء المحبر ، وحليه يشرق فى ترائبه . ونده يعبق فى جوانبه ، وطلائع أنواره تظهر ، وكواكب إيناسه تزهر ، وأباريقه تركع وتسجد ، وأوتاره تنشد وتغرد ، وبدوره تستحث أنجمها محيية ، وتقبل أناملها مفدية ، وسائر نغماتها ، خذ وهاتها ، وأمانا أن تحث خطاك حتى يلوح سناك ونشتفى بمرآك »

وكما تراه فى رسالة نسبها المقرى لبعض كبراء الأندلس وقد كتبها لبعض إخوانه يخبره بالمكان الذى هو فيه فيقول :

«كتابى هذا من وادى الزيتون ، ونحن فيه مختلفون . ببقعة اكتست

من السندس الأخضر ، وتحلت بأنواع الزهر ، وتخايلت بأنهار تخللها . وأشجار تُظللها ، تحجب أدواحها الشمس لالتفافها ، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها ، وماشئت من محاسن تروق وتعجب ، وأطيار تتجاوب بألحان تلهى وتطرب ، فى مثلها يعود الزمان كله صبا ، وتجرى الحياة على الأمل والمنى . وأنا فيها ـ أبقاكم الله سبحانه ـ بحال من طاب غذاؤه . وحسن استمراؤه ، وصحا من جنون العقار ، واستراح من مضض الخمار ، وزايلته وساوسه ، وخلت من الخباط هواجسه »

وكذلك فى رسالة بعث بها كاتب إلى صديق له مع أترجة أهداها إليه إذ يقول فى أسلوب ماجن ظريف :

« قد بعثت إليك من بنات الثمار أجلها ، ومن نتائج البستان أفضلها . فشربت على وردها رطلين ، وتناولتها بالراحتين ، فبحرمة الكأس التى رضعنا ، إلا ما رفعت قدرها ، وجعلت القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام وحجبتها عن عيون اللئام ، فخصالها عجيبة ، وصفاتها غريبة ، إن خزنتها عطرت أثوابك وإن أمسكتها أذهبت أوصابك ، وإن أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين ، وأرتك الكثيب على وجه الحبيب ، يالها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة ! سرقت من العاشق سيماه ، ومن المعشوق طعم ثناياه ! »

وفى القلائد والذخيرة وغيرهما نماذج كثيرة من هذا النوع تشهد بأنهم كثيرا ما كانوا ينزعون إليه ، ويعدلون عن الإسهاب فى المقصود إلى الإفاضة فيه »

٤ ـــ الكتابة الخيالية :

وهي ما أريد بها التفكهة والترفيه عن النفس : بإبراز الكلام في صورة اختراعية ، تستهوي القارئ ، وتملك مشاعره ، أو إظهار الحقائق الأدبية . في أسلوب قصصي ، يقصد به إلى تحقيق اللذة الفنية .

وما الأندلسيين في هـذه الناحية أوضح برهان على أنهم فرسان حلبتها . وأبطال ميدانها ؛ إذ كان لهم من نتاج أخيلتهم المخصبة وأفكارهم الصافية ألوان زاهية وصور جذابة ، تستهوي الأنفس وتملك القلوب وتأسر الألباب .

ولما كانت هذه الألوان والصور ، مختلفة فيما تناولته ، ومتباينة في الأغراض التي تحدثت عنها ، وكان ذلك فاصلا بين مأثورها الذي رواه الكاتبون . وهاديا إلى أنواع تخص الكتابة الخيالية وحدها . فإن من واجبي أن أتحدث عن كل نوع على استقلال . وذلك ما أنا بصدد ذكره فيما يأتي :

النوع الأول :

كتابة خيالية تناولت تبيين حقائق أدبية في أسلوب ممتع بديع ، عماده الخيال الشعري واللعب بالألفاظ والتراكيب ؛ تقرأ تلك واضحة جلية في رسالة أحمد بن أبي مروان بن شهيد التي كتبها إلى صديقه أبي بكر بن حزم يستعرض فيها صورة عامة للأدب وأهله . معرضا بمعاصريه الذين لم يألوا جهداً في الإساءة اليه والتنقيص من قدره . شغوفا بمعارضة السابقين من الكتاب والشعراء في أسلوب فكه طريف سماه ابن بسام ـ في الذخيرة ـ «هزليا» ، حين أراد أن يذكر من رسالته ما يعرف بها فقال :

« فصول من رسالة سماها « بالتوابع والزوابع » صدرت عنه مصدر هزل تشتمل على بدائع وروائع »

وقد تخللها كثير من شعره الرقيق ، الذى عارض به شعر سابقيه أو طارح به شعراء الجن أو نسبه إلى حيوانهم .

وهذه الرسالة الطريفة أو هذه القصة الممتعة ، قد سار فيها ابن شهيد على نسق الحكايات التى اشتهرت عن العرب من مقابلاتهم للجن واحتكامهم اليهم فى تفضيل الشعراء بعضهم على بعض ، وزعمهم أن لكل شاعر شيطانا يمده بالشعر ويجريه على لسانه ، ولم يقتف فيها أثر أبى العلاء المعرى ـ فى رسالة الغفران ـ كما يقول غير واحد من المتأدبين ، إلا أن أبا عامر بن شهيد كان فى خياله أطول باعا من قصاص الأعراب ، إذ كثيرا ما كانت مقابلاتهم تنتهى بمجرد الاستفسار عن أشعر الشعراء أو أحكمهم أو ما إلى ذلك ، وإن طالت فلا تتعدى إنشاد أبيات أو قصائد وتعريف من الجنى لصاحبه أو لمن يتحدث إليه أنه صاحب الفضل فيها ، ولولاه ما قدر أن يقول بيتا منها .

أمّا ابن شهيد فإنه يتحدث عن رحلة طويلة فى ديار الشياطين مع صاحبه الجنى « زهير بن نمير » الذى تصوّر له رغبة فى اصطفائه . ويروى عمن قابل من شياطين الأدباء السابقين : اعترافهم له بالفضل والسبق . وإجازتهم إياه على سرور من بعضهم كما كان من شيطان أبى نواس إذ شهد له بالاختراع وقبل ما بين عينيه . وعلى كره من بعض آخر كما كان من « أبى الطبع » صاحب البحترى إذ غادرهما وكأنما غشى وجهه قطعة من الليل وصاح بزهير قد أجزته ـ يعنى ابن شهيد ـ لا بورك فيه من زائر .

ويتخيل ابن شهيد فى رسالته هذه أن للجن حمرا وبغالا وطيورا ، وأنها كلها تعرف الأدب وتنشد الشعر وتستطيع المناظرة . وهو فى كل ذلك يقول على ألسنتها ما يعتقد من آراء . وينسب إليها ماهو فى الحقيقة منسوب إليه وتعبير عما يجول فى خاطره ويضطرب بين حنايا صدره .

هذا إلى أشياء كثيرة احتوتها الرسالة فجعلتها فذة فى موضوعها نادرة فى صوغها غير تابعة لمثال سابق ولا مترسمة خطة كانت قبل تأليفها . وهى على الوصف الذى هى عليه تجعل ابن شهيد مبتكرا لهذا النوع من الكتابة الخيالية القصصية . وسابقا إليه قبل سواه . وغير مقتف أثر المعرى ولا غيره .

وإن كان هذا الحكم فى حاجة إلى دليل يؤيده وحجة تدعمه . فقد أوضح ذلك الدكتور زكى مبارك ووفر علينا مؤنة البحث والتنقيب عن سبق ابن شهيد برسالته وتقدمه بتأليفها على تأليف أبى العلاء لرسالة الغفران ، إذ حقق فى كتابه « النثر الفنى » : أن أبا عامر بن شهيد ألف رسالته « التوابع والزوابع » قبل أن يخط أبو العلاء فى رسالة الغفران خطا واحدا بنحو عشرين سنة . وأن من المرجح أن أبا العلاء هو الذى قلد ابن شهيد واهتدى بأسلوبه وتفكيره فى تأليف رسالته . لوصول رسائل ابن شهيد إلى الشرق حال حياته ، وقبل أن توضع رسالة الغفران .

وإذ انتهيت إلى ذلك فإنى أثبت للقارئ الكريم طرفا من هذه الرسالة الفكهة التى يقول فيها :

« كنت أحن إلى الآداب ، وأصبو إلى تأليف الكلام ، فاتبعت الدواوين وجلست إلى الأساتيذ ، فنبض فىّ عرق الفهم . ودرّ لى شريان العلم ،

بسواد روحانية وقليل الالتماح من النظر يؤيدنى. ويسير المطالعة من الكتب يفيدنى إذ صادف شَن العلم منى طبقه، ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارا، ولا كالحمار يحمل أسفارا، فطعنت ثغرة العلم دراكا. وأعلقت أرجل طيره إشراكا فانثالت لى العجائب وانهالت الرغائب.

وكان لى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى، ثم لحقنى بعد ملل فى أثناء ذلك الميل فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال، فجزعت وأخذت فى رثائه وقد أبهمت علىّ أبوابى وانفردت فقلت:

تولى الحِمام بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذى كان فقلت:

وكنت مللتك لاعن قلى ولاعن فساد ثوى فى الضمير

فأرتج علىّ القول، فإذا أنا بفارس بباب المجلس، على فرس أدهم، كأنما بقل وجهه. قد اتكأ على رمحه وصاح بى: أعجزا يافتى الإنس؟ فقلت: لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان؛ فقال: قل بعده:

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته وقلت: بأبى من أنت؟ قال: زهير بن نمير من أشجع الجن، تصورت لك رغبة فى اصطفائك، قلت: أهلا بك أيها الوجه الوضاح صادفت قلبا إليك مقلوبا، وهوى نحوك محبوبا، — وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع، وقلت له: هل حيلة فى لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا، وطار عنى ثم انصرف وقد أذن له فقال: حل على متن الأدهم، فسرنا عليه، وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو،

حتى لمحت أرضا لا كأرضنا ، وشارفت جوا لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال : حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن تبدأ ؟ قلت : الخطباء أولى بالتقديم (١) ، لكنى إلى الشعراء أشوق . قال : فمن تريد منهم ؟ قلت : صاحب امرئ القيس ، فأمال العنان إلى واد ذى دوح تتكسر أشجاره وتترنم أطياره ، فصاح : ياعيينة بن نوفل ، بسقط اللوى وبحومل ، ويوم دارة جلجل إلا ماعرضت لنا . وسمعت من الأنسى وعرفتنا كيف إجازتك له »

وبعد أن استمع كل منهما إلى شعر صاحبه وأجازه عيينة ، سار مع زهير يتطلبان واحدا فآخر من شياطين الشعراء والكتاب ، وكل من يلتقون به من هؤلاء ، يدور بينه وبينهما حديث . ويُسمع ابن شهيد ويستمع إليه ويشهدله بالسبق والفضل ويجيزه .

النوع الثانى :

كتابة خيالية ، لم يقصد كاتبها إلى بيان حقيقة أدبية ، ولكن إلى إظهار براعته ومقدرته على التفنن وإنطاق مالا يعقل منه النطق ، كما ترى ذلك فى المناظرة بين بلدان الأندلس التى خاطب بها الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس ، الأميرَ عبد الرحمن بن يوسف بن عبدالمؤمن بن على ، فقد تصور فيها حواراً بين تلك البلدان . وتنافسا فى الاختصاص بالأمير . فكل

(١) لعل فى ذلك إلى ماروواه من قول شيطان الجاحظ له : إنك لخطيب ومن تحير الجن فى أمره أشاعر هو أم خطيب ، مايدل على علو منزلة الخطابة هناك وتمنى الأديب أن يوصف بها وهو ماذهبت إليه وما اخترت فيما تقدم
(راجع الخطابة — دواعيها ومنزلتها) .

واحدة تزعم الأحقية به وتذكر من محاسنها مايوجب رجحانها على سواها واستئثارها بالفضل دون غيرها ، وهى فى الجزء الأول من نفح الطيب ص ٨٢ فطالعها هناك إن أردت .

وكما تراه أيضا فى الفصول التى كتبها أبو حفص بن برد الأصغر فى تفضيل الورد وتقديمه على غيره من الأزهار ، وهى فريدة فى بابها ، عذبة الأسلوب طريفة الخيال ، تدل على سعة عقل منشئها وكمال براعته وحسن اختراعه ، وفيها يقول مخاطبا ابن جهور :

« أما بعد — ياسيدى ومن أنا أفديه — فإنه ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه ، وذوى الظرف المعتنين بملح معانيه : أنّ صنوفا من الرياحين وأجناساً من البساتين ، جمعها فى بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها ، وهاجس هجس فى ضمائرها ، لم يكن لهـا بد من التفاوض فيه والتحاور ، والتحاكم من أجله والتناصف ، وأجمعت على أنّ ماثبت فى ذلك من العهد ونفذ من التحالف ماض على ماغاب شخصه ، ولم يأن منها وقته ، فقام منها قائمهـا . فقال : يامعشر الشجر وعامة الزهر . إنّ الله تعالى لطيف خبير ، خلق المخلوقات ، وذرأ البريات باين بين أشكالهـا وصفاتها ، وباعد بين منحها وأعطياتها ، فجعل عبداً وملكا ، وخلق قبيحا وحسنا ، فضل بعضا على بعض حتى اعتدل بعدله الكل . واتسق على لطف قدرته الجميع ، وإنّ لكل واحد منها جمالا فى صورته ورقة فى محاسنه واعتدالا فى قده . وعبقا فى نسيمه . ومائية فى ديباجته .

وقد عطفت علينا الأعين ، وثنت إلينا الأنفس ، وزهت بمحاضرنا المجالس ، حتى سفرنا بين الأحبة ، ووصلنا أسباب القلوب . وتحملنا لطائف

الرسائل ، وصيغ فينا القريض ، وركبت على محاسننا الأعاريض ، فطفح بنا العجب وازدهى بنا الكبر وحملنا تفضيل من فضلنا ، وإيثار من آثرنا على أن نسيم الفكر فى أمرنا ، والتمهيد بعواقبنا ، والتطبيب لأخبارنا ، وادعينا الفضل بأسره ، والكمال بأجمعه . ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا ومن هو أولى بالرياسة منا ، وهو : «الورد» . إن بذلنا الإنصاف من أنفسنا ولم نسبح فى بحر عمانا ولم نمل مع هوانا . دنّا له . ودعونا إليه . فمن لقيه منا حياه بالملك ومن لم يدركه زمن سلطانه . ودولة أوانه . اعتقد ماعقد عليه وولى مادعى إليه »

وفيها كذلك يقول على لسان ماسمى من الأزهار بعد أن عد ماحضر ذلك المجلس منها :

« (فقال النرجس الأصفر) : والذى مهد لى حجر الثرى . وأرضعنى ثدى الحيا ، لقد جئت بها أوضح من لبة الصباح . وأسطع من لسان المصباح ولقد كنت أحتمل من التعبد له والشغف به . والأسف على تعاقب الموت دون لقائه . ماأنحل جسمى ، ومكن سقمى ، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد خف ثقل البلوى .

(ثم قام البنفسج) فقال : على الخبير سقطت ، أنا والله المتعبد له ، والداعى إليه المشغوف به ، وكفى مابوجهى من ندوب ، ولكن التأسى بك آنس

(ثم قام البهار فقال) : لا تنظروا إلى غضارة منبتى . ونضارة رونقى . وانظروا إلىّ وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه . وعينا شاخصة تندى بكاء عليه .

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

(ثم قام الخيرى) فقال : والذى أعطاه الفضل دونى ، ومد له بالبيعة

يمينى ماجترأت قط - إجلالا له واستحياء منه - على أن أتنفس نهارا أو أساعد فى لذة صديقا أو جارا . فلذلك جعلت الليل سترا واتخذت جوانحه كنا »

ويقولون إنّ أبا حفص مخترع هذا النوع ، وأول من كتب فى ذلك الموضوع ، وقد اقتفى أثره أبو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بحبيب ، أحد شعراء المعتضد بن عباد ، ولكنه لم يدرك من الإبداع ماأدرك ابن برد يعلم ذلك من يقرأ رسالته فى تفضيل البهار . ومن يقرأ قول ابن بسام فى ترجمته والموازنة بينه وبين ابن برد :

« وقد اقتضبت من الرسالتين بعض فصول . تخفيفا للتثقيل . وجمعا للشمل . ومقابلة للشكل . وقدمت رسالة ابن برد على حكم الإحسان ومقتضى النقد »

ومن هذا النوع ما كتبه الأديب أبو حفص عمر بن الشهيد على لسان الديك . وحكاية ما كان بينه وبين صاحبه من حوار ومراجعة بما يدل على نبوغه فى هذا الفن وإمعانه فى ضروب الخيال . استمع إليه إذ يروى عنه قوله :

« وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رءوسكم مرارا عدة . أوقظكم بالأسحار . وأؤذن بالليل والنهار . وقد أحسنت لدجاجكم سفادا . وربيت لكم من الفراريج أعدادا ، فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى . أنعى إلى دجاجى وتنحى الشفرة على أوداجى ! وحين أدركنى المشيّخ . يمزق لحمى ويطبخ ! يالكرام من ذل هذا المقام ! وجعلت دموعه تسفح من دمه والحزن يطبق على فمه . ثم غشى عليه . فاجتمعت الناس إليه . يضربون وجهه بالماء .

ويخلصون له فى الدعاء ، ثم أفاق من غشيته وأنشد :

علام يقتل شيخ من كل ذنب برىّ
محقق متحد موحد سنى
هل نص هذا كتاب أو قال هذا نبى؟
لاذنب لى غير أنى مؤذن بدوى

فرقت له أنفس القوم . وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم . فقال : ويحكم إنّ هذا الديك ذو نخز وصدرة . قد أصابتنى عليه ضجرة . ولى فى ذبحه سر . ولا بد أن تزين به قدر ، وتضرم تحته النيران ، ويشبع من لحمه الضيفان ، أما ترونه قرة القلوب والعين (١) ، سبيكة من لجين وتمثل :

ومن شيمتى مهما تزين منزلى لضيفى أن أقريه أحسن ماعندى
لو ان دمى خمراً لأرويته به ولوصلحت كبدى شويت له كبدى
بذلك أوصانى أبى مذ عقلته وقد كان أوصاه بذا قبله جدى

فقال الديك : لا أكذب ، الحق طريق مستبين ، واتباعه مروءة ودين ، أما إنه على خلق عظيم ، كريم ابن كريم ، غير أنه لؤم فى أمرى وأفرط ، وغلط ما شاء أن يغلط ، أما علم أن هرمات الديوك ، ليست من مطاعم الملوك ، وأنها بالأدوية أشبه منها بالأغذية وأقسم لو اتخذ (برمة) من فؤاد مهجور ، ووضعنى من مثله على تنور لا قضى به حاجة ، ولا عدم منى فقراً ومجاجة . فزكى قوله ، من حوله ، ولم يألوه تعظيما ، واتخذوه من ذلك اليوم حكيما »

(١) فى الأصل : «قرة العين والقلوب» ويظهر لى أن الصواب قرة القلوب والعين لانتظام السجعة

النوع الثالث

كتابة خيالية تناولت بعض الموضوعات العامة الفلسفية ، يقْصد بها الكاتب إلى تصوير فكرة يريد نشرها بين الناس فى قالب خيالى جذاب ، تألفا للقارئ واستجلاباً لرغبته وإقباله .

وأبرز مثل تلك الكتابة ، قصة « حى بن يقظان » التى كتبها أبو بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل يجمع فيها بين الشريعة والفلسفة ويقرر ما كان يعتقده من تدرج الإنسان فى مراتب الكمال ، واهتدائه بمجرد النظر وثاقب الفكر إلى صنوف المعرفة واليقين ودركه بذلك حقائق الأشياء وخواصها ، بعد بحثها واجراء التجارب عليها .

وفى تلك القصة يروى رأيين فى نشأة « حى بن يقظان » أحدهما يقول فيه إنه تولد فى جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء ، من غير أب ولا أم . على هيئة شرحها فى رسالته وأبان كيفيتها ؛ والثانى ينكر ذلك ويروى من أمره خبرا قصَّه فقال :

« إنه كان بإزاء تلك الجزيرة . جزيرة عظيمة متسعة الأكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة ؛ وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الأزواج إذ لم يجد لها كفئاً وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا على وجه جائز فى مذهبهم المشهور فى زمنهم . ثم إنها حملت منه ووضعت طفلا . فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته فى تابوت أحكمت زمه بعد أن أروته من الرضاع وخرجت به فى أول الليل فى جملة من خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة وخوفاً عليه . ثم إنها قالت : « اللهم

إنك قد خلقت هـذا الطفل ولم يكن شيئاً مذكوراً . ورزقتـه فى ظلمـات الأحشاء وتكفلت به حتى استوى وتم . وأنا قدسلمته إلى لطفك ورجوت له فضلك خوفاً من هـذا الملك الغشوم الجبار العنيد . فكن له ولا تسلمه ياأرحم الراحمين ، ثم قذفت به فى اليم فصادف ذلك جرى المـاء بقوة المد فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها ،

ثم إنه بعـد ذلك اشـتد به الجوع وهو فى تابوته فبكى وعالج الحركة فوقع صوته فى أذن ظبية فقدت طلاها ، فلمـا سمعت الصوت حسبته إياه فتبعته حتى وصلت إلى التابوت فأطارت بعض ألواحه ، وما إن رأت الصبي حتى حنت إليه وألقمته ثديها ، وأروته لبناً سائغاً ، ومازالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى إلى أن تم له حولان وتدرج فى المشى وأثغر ، ومازال على تلك الحال حتى أدرك ظبيتـه الموت ، وسكنت حركاتهـا ، وتعطلت أفعالها .

منذ ذلك الحين ابتدأ نظره إلى الأشياء ومعالجته لها وتدرجه فى مراتب الكمال آناً بعد آن ، ينقد أحوال نفسه وأحوال مااتصل بحسه من الحيوان والنبات . وعالم الأرض وعالم السماء . حتى فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير فى الوجود إلا الواحد الحى القيوم .

ثم صادف أن لقى أسالا [1] الذى كان قـد رحل إلى جزيرته طلبا

(١) هو شخص كان على دين سماوى صحيح ؛ رحل إلى جزيرة حى بن يقظان طلبا للعزلة والانفراد لعبادة الله تعالى وقد رأى منه حى أعمال العبادة فأحب أن يتعلمها ويؤديها فنقله أسال - أولا - إلى ألسنة الأناسى بعد أن كان يتكلم بلغة الحيوان ، ثم علمه ماأراد بعد . وآمن حى آخر الأمر برسول أسال واهتدى بشرعه والتزم تكاليفه

للعزلة وليعبد الله تعالى منفردا . وبعد نفرة كل منهما من صاحبه ؛ تم التوافق والاتصال وتعلم حى على يدى أسال : اللغة والعلم والدين . وكان ماكان بعد مما ذكره ابن الطفيل ومما لاصلة له بموضوعنا .

هذا تلخيص مقتضب لرسالة «حى بن يقظان» التى يمثل بها بعض الكاتبين لقسم من أقسام الكتابة الخيالية على أنها من النثر الفنى

والرأى عندى : ألاتعد رسالة حى بن يقظان من الكتابة الأدبية إذليس فيها من خصائصها شيء ولاهى تتصل بروحها ولا بمنهجها ، وإنما هى نوع من الكتابة العلمية فى أسلوب خيالى يقصدبه إلى تشويق القارئ لإتمام متابعة مايقرأ . حتى يقف على مايريد الكاتب أن يبثه إليه من آراء

وقد قرأت هذه الرسالة جميعها فلم أجد فيها شيئا ما يصلح أن يكون مثالا فى الكتابة الأدبية ولاهى تعطى أن ابن الطفيل كان أديبا ، على حين تشهدله بأنه عالم فيلسوف حريص على التوفيق بين الفلسفة والشريعة

وإذاً فليس للكتابة الأدبية الخيالية غير نوعين اثنين هما ماسبق تعريفهما والتمثيل لهما .

حال الكتابة وأسلوبها ومميزاتها :

سايرت الكتابة فى الأندلس حال البلاد وحياة أهلها . فبدأت بجزالة اللفظ وفخامة المعنى سهلة التراكيب خالية من تعمل السجع والقصد إليه ومن تكلف الزخرفة فى العبارات وتنميقها . كما بدأت قصيرة أقرب إلى الإيجاز ترمى إلى الغرض المقصود من أدنى طريق وأيسره .

ثم لم يلبث الكتاب — حين اتسعت الحضارة ونما العمران وارتقت

الحياة العقلية وزادت مادة المشاهدات — أن عمدوا إلى الصنعة اللفظية ومال كثير منهم إلى الإطناب وإطالة القول . وكان ذلك - أول الأمر - فى قصد لايعيبه سرف . واعتدال لايهجنه غلو ، غير أن هجرة المشارقة إليهم واطلاع الأندلسيين على ما كان منهم من توغل فى الصناعة اللفظية وأنواع السجع والتجنيس ، وخوفهم أن ينسب إليهم العجز أو التقصير إن لم يضربوا بسهمهم فيما ضرب فيه هؤلاء ؛ كان من أقوى البواعث على توغل كثير من الأندلسيين فى إطالة القول وتعمد المحسنات البديعية ، حتى أصبح ذلك سمة لجل كتابة الأندلسيين الأدبية . وصارت الكتابة المرسلة من القلة بحيث لايحسب لها بجانب تلك الكتابة المسجوعة المتعملة حساب ، وأنست تلك الرغبة — رغبة منافسة المشارقة والتفوق عليهم — أرباب هذا الأسلوب غرضا أسمى ومقصدا لا ينبغى أن يعدل عنه الكاتب . ذلك هو قصد التأثير فى نفس القارئ وتملك حواسه واجتذاب شوقه وجعله محيطا بكل ما يقع نظره عليه .

وانتقل ذلك الأسلوب من كتابتهم الفنية إلى بعض كتابة التأليف . فأصبحت لهم كتب عمادها السجع والصنعة اللفظية على نحو ما سلف فى الكتابة العلمية .

وقد امتازت كتابة الأندلسيين فى جملتها . بغلبة الخيال الشعرى وسيطرته عليها . وإنك لتلمس ذلك فى كثير مما صدر عنهم ، حتى كانت لهم كتابة كلها خيال وقد أثبت فيما أنواعا ثلاثة هى ما عثرت عليه منها .

وامتازت كذلك باقتباس الحكم والأمثال والأحاديث والقرآن . وبالإكثار من الإشارة إلى الأحداث التاريخية والأيام المشهودة ، وحل

المنظوم مما يشهد بعنايتهم بآداب المتقدمين وسعة اطلاعهم على مآثر عنهم وماجادت به قرائحهم . وبأخذهم من كل فن بأطراف . وفيما أثبتناه لابن زيدون من رسالته الجدية شاهد لذلك .

وكان لخفة أرواحهم وميلهم إلى المجون واللهو وانغماسهم فى ملاذ الحياة وبُلهينة العيش أثر أى أثر فى تلك الرسائل الفكهة والدعابات المستملحة التى برعوا فيها وأحكموا صياغتها على نحو ما كتبه أحدهم إلى صديقه مع أترجة أهداها إليه وقد أثبته فيما تقدم ؛ فى الكتابة الوصفية ، وعلى نحو ما كتبه أبو الوليد بن زيدون فى رسالته الهزلية التى كتبها على لسان ولادة بنت المستكفى بالله «الخليفة محمد بن عبد الرحمن الأموى» إلى الوزير ابن عبدوس متهكما به هازئا بتطلعه إلى ولادة مصغرا شأنه محقرا قدره . بالغا فى ذلك كله الغاية مدركا مالم يدركه غيره فى أسلوب لاذع طريف ظريف إذ يقول فيها :

«أمّا بعد ؛ أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله . البيّن سقطه . الفاحش غلطه العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب ؛ فإنّ العجب أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ماصفرت منه أيدى أمثالك ، متصديا من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك مرسلا خليلتك مرتادة مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلىّ ، وتخلف بعدها علىّ .

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل

ولاشك فى أنها قلتك إذ لم تضن بك ، وملتك إذ لم تغر عليك ، فإنها

أعذرت فى السفارة لك ، وما قصرت فى النيابة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال واستعليت فى مراتب الجلال واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه .... الخ »

وكما فى رسالة الحلواء لابن شهيد ، كتبها تحقيرا لفقيه نهم ، وفيها يحدث عن نفسه يقول :

خرجت فى لمة من الأصحاب ، وثبة من الأتراب ، فيهم فقيه ذولقم ولم أعرف به وزعيم ذو بطن ولم أشعر له ، رأى الحلواء فاستخفه الشره ، واضطرب به الموت فدارفى ثيابه ، وأسال من لعابه حتى وقف بالأكداس وخالط غمار الناس ، ونظر إلى الفالوذج فصاح : بأبى هذا اللص ، انظروه كأنه الفص مجاجة الزنابير «حريت على سوابير» وخالطها لباب الحبة ، فجاءت بأعذب من ألسنة الأحبة . ورأى الخبيص فقال : بأبى الغالى الرخيص ، هذا جليد سماه الرحمة تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة يجرح باللحظ ويذوب من اللفظ .... الخ »

وكان فى كثير من كتابتهم نزعة إلى الصراحة وحرية الفكر والاعتداد بالنفس . كما ترى ذلك فى رسالة ابن زيدون الجدية حين يعتز بنفسه فيعرف ابن جهور أن مثله على علمه وأدبه لا يصبر على الهوان ولا يقيم على ضيم يراد به ، وأن فى استطاعته أن يرحل عنه إلى بلد يطيب له فيه العيش وتلذ الإقامة ، وكما فى رسالة ابن الحداد التى بعثها لأحد إخوانه يقول فيها :

« والحر يأنف من الضيم ويشمئز من الذم ، ولا يقتصر على الاجتزاء

بغير الجزاء ولو ترك القطا ليلا لنام ، وفى العتاب حياة بين أقوام ، فاصطبر لشرب صبره وانتدب لتسوغ مره ، فمن الحكم العدل والقضاء الفصل أن ألذعك بما لذعتنى وأجرعك بما جرعتنى غير آفك فى حال ولا مباهت بمحال ».

وكما فى رسالة أبى حفص بن برد وقد بعثها إلى صديق له يقول فيها :

« وأنا الآن على ظن الإخاء معك ، فإما أن تبهرنى حجة فأتنصل عندك وإما أن تلق بحقيقة فأستديم خلتك ، وإما أن تلزم على بأسك فاقطع حبلى منك ».

ولم يبالغ كتاب الأندلس فى ألقاب التفخيم والتعظيم ، ولم يحفلوا بها حفل كتاب المشرق حين تأثروا بالفرس وطغى عليهم ذلك الأسلوب الذى كان يعنى به كتاب الفارسية ويحبون أن يقلدهم غيرهم فيه ، بل كانوا يخاطبون الخليفة أو الأمير بكاف الخطاب أو تائه . وإن أرادوا زيادة التعظيم قالوا ياسيدى ويامولاى ؛ ولعل فى ذلك دليلا على عدم ترسمهم خطى المشارقة فى كل شىء واستقلالهم فيما يوردون ويصدرون .

وكما أنهم لم يعنوا بألقاب التفخيم والتعظيم ، لم يعنوا كذلك بأنواع البدء والختام ولم يتحاشوا أن يضمنوا رسائلهم أبيات الشعر يفتتحونها به أو يختمونها أو يستشهدون به فى أثناء الكلام ، ولو كانت تلك الرسائل إلى أمير أو رئيس ، بل رأينا من رسائلهم ما كان الشعر فيها ضعف النثر كرسالة المروانى إلى نزار العبيدى صاحب مصر وقد كتب له كتابا يسبه فيه ويهجوه فكانت إجابة المروانى ـ على ماروى صاحب نفح الطيب :

« أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك والسلام

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت　　بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولـد المولود منا تهللت　　له الأرض واهتزت إليه المنابر ،

وأحيانا كانوا يستفتحون كتبهم بالبسملة ويكثرون فيها من الجمل الاعتراضية الدعائية . تقرأ ذلك فى رسالة الحكم بن الناصر التى بعثها — بأمر والده — إلى الفقيه أبى إبراهيم (المشاور) حين تخلف عن شهود حفل أقامه الناصر لإعذار أولاد ابنه أبى مروان عبيد الله ، إذ يكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك .

لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى - أبقاه الله - الأولياء الذين يستعد بهم . وجدك متقدما فى الولاية . متأخراً عن الصلة ، على أنه قد أنذرك - أبقاه الله - خصوصاً للمشاركة فى السرور الذى كان عنده - لا أعدمه الله توالى المسرة - ثم أنذرت من قبل إبلاغا فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره ومعاتبتك عليه . فأعيت عليك عنه الحجة .

فعرفنى - أكرمك الله - ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ومشاهدة السرور الذى سر به ورغب المشاركة فيه . لنعرفه - أبقاه الله - بذلك . فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى» .

وكان لتلك الفتن والاضطرابات التى حدثت بين سكان الأندلس . وهذه الحروب التى دارت بينهم وبين الإسبانيين . وشدة هؤلاء عليهم وثلهم عروشهم . وانتقاصهم البلاد واحدة تلو أخرى . ومطاردتهم المسلمين هناك فى موطنهم العزيز عليهم ، والذى بذلوا فى سبيل تحريره مهجهم

ومهج آبائهم وأبنائهم ، وما كان لهم من مال ونضار ؛ أقول كان لذلك كله وغيره مما يتصل به أثر قوى فى نفوسهم أجرى على ألسنتهم رسائل الاستعطاف والشكوى والاستشفاع بسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، وبالأولياء الصالحين ، وذوى النجدة من الملوك السابقين ، لينكشف عنهم ماهم فيه ويصبحوا فى حياة هادئة وادعة مطمئنة كما كانوا يحبون .

وفيما أثر عن لسان الدين بن الخطيب من ذلك كثير ، وقد أورد له المقرى فى الجزء الرابع من نفح الطيب بعض هـــذه الرسائل فأكتفى بالإشارة إليها عوضا عن نقلها وإثباتها هنا

وخلاصة القول : أن الكتابة بالأندلس ظلت حافظة لجمال الصنعة ورونق الفنية حتى آخر عهدها بها ، بعيدة عن الإبهام والتعقيد ، خالية من الألفاظ الدخيلة والكلمات العامية ولم تضعف بها ضعفها بالمشرق لقلة طرق العناصر الأجنبية عليها ، وشدة احتفاظ المسلمين هناك بعربيتهم وتعصبهم لها . لما كان لهم من سطوة ظاهرة وسلطان عزيز جعل غيرهم يفنى فيهم ويتأثر بلغتهم وأسلوبهم ويكره على إجادتهما معا وإحكامهما . دون أن يطغى عليهم ماله من أسلوب وما يعرفه من لغات بعكس ما كانت الحال بالمشرق .

هذا إلى رغبة الأندلسيين عن علوم الفلسفة ، وهجرهم كتبها . وإقبالهم على الاشتغال باللغة العربية وعلومها . وعكوفهم على مزاولة أدب العرب وفنونه حتى فى أيام محنتهم وآخر عهدهم بتلك البلاد .

أسباب رقىّ الكتابة

قدمت أول حديث عن الكتابة أن شغف الأندلسيين بنقد ذلك الكاتب (الرسمى) المختص بحاكم البلاد . وتتبعهم لما يصدر منه ليحكموا له أو عليه . وجرأتهم على الجهر بآرائهم فيه دون محاباة أو رهبة ، كان سببا من أسباب رقىّ الكتابة وداعيا من دواعى نهوضها العظيم هناك

والآن أعرض لبقية الأمور والأسباب التى صعدت بكتابة الأندلسيين فى جملتها إلى سماء الرفعة ، وحملتهم على الإجادة والافتنان فيها ، وإظهارها فى أثواب قشيبة وحلل زاهية زاهرة حاكتها أيدى المدنية الصناع على أنوال الحضارة . فجاءت موشاة بصنوف الحسن وأنواع الزخارف

وأول مايطالع الباحث فى هذا الشأن : توفر كثير من الأدباء على إتقانها ، والإلمام بفنونها ولوازمها . والعناية بأدواتها وأصولها . ومعاضدة الملوك لهم فى ذلك حتى رأينا منهم من يكتب على لسان حاكم البلاد رسالة (خاصة) يحذر بها عماله ونوابه أن يستكتبوا غير العارفين بأصول الكتابة وفنونها مبينا لهم آلاتها وأدواتها . وما يجب أن تكون عليه ، شارحا لهم مايتبعون من نظام ، متهددا من يحيد عما رسم بأشد العقاب وإليك شاهدا لذلك - وهو من أمثلة الكتابة الديوانية - ما كتبه الوزير أبو حفص بن برد الأكبر عن المظفر بن أبى عامر إلى القواد والعمال والكتاب ، إذ يقول فى ذلك :

« ومن أعجب العجب مايجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهودنا ، ولا أحسب الذى غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا - مع القدرة - من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبة وخليقة لازمة ، فرب شبع تحت مخيل

النعماء، وكم من غصص فى شهى الغذاء ومن شرق فى نمير الماء .

وبين أيديكم ـ معشر الخدمة ـ ولا أخص بندائى صغيرا ولا كبيرا ولا بعيدا دون قريب، ولا أنبه غائبا دون شاهد، ونصب أعينكم وحشو أسماعكم عهد المنصور صدره بالتوبيخ باستكتاب الجهلة واستعانة الضعفة واستكفاء العجزة، ممن قلت معرفته. واتضعت همته، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوم حروفه ويراعى المداد فيجيد صنعته، ويميز الرق فيحسن اختياره، وعزه العزم النافذ والحكم الصادع بأن تكون صدور كتب الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد فى رءوس غصونها بخطوط أيدى القواد والعمال، من كان منهم كاتبا فليكتب بيده ومن لم يكتب فبخط كاتب معروف بالخط عنه»

ثم يقول بعد ذلك متوعدا مهددا :

«وأنا أعطى الله عهدا لئن ارتفع إلىّ ـ بعد بلوغ عهدى هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة ـ كتابٌ على الصفات المذمومة من رق أو مداد أو خط لأفينّ لصاحبه بما قدم إليه من الوعيد»

ثانيا : اتساع نطاق المملكة وامتداد أطرافها وتشعب ولاياتها. وما تبع ذلك من حاجة الخلفاء إلى وزراء وكتاب ذوى لسن وبلاغة، وقدرة على التعبير عما يراد لتصريف شئون الدولة وتنظيم أحوالها، وحاجة الحكام جميعاً فى تلك الولايات المتعددة إلى من يتفهم هذه الأساليب ويجيب عنها إجابة يعلم أن الخليفة لابد مطلع عليها وعارف لما تحويه من ضروب الحسن وفنون البيان، فلا يفتأ يبالغ فى كتابته ويهذب من أسلوبها ويتخير لها أعذب الألفاظ وأمتن العبارات وأرق التراكيب. عساها أن تحرز

رضا حاكم البلاد العام فترفع عنده مرتبته وترشحه للمناصب الرفيعة التى يتطلع اليها والتى كانت وقفاً على أمثاله من الكتاب والمنشئين المجيدين .

ثالثا : اطلاع بعضهم على أساليب الكتابة اليونانية . الذى كان سببا فى ابتكار أنواع جديدة من الكتابة ، وفى اختراع كثير من غريب التصورات وجميل المعانى والتعبير عنها بكلمات عذبة المذاق رقيقة الحاشية ذات خلابة وأسر . كما نرى ذلك فى كلام ابن شهيد وفى أسلوب من ساروا على طريقته وتأثروا بأدبه وفنه .

رابعا : ارتقاء الحضارة ونمو العمران . وازدياد الترف ووفرة النعيم . والإكثار من مجالس الأنس . والسمر وحفلات الغناء والطرب . وما إلى ذلك مما كان له أعظم الأثر وأحسنه فى توسيع الأخيلة وتهذيبها . وترقيق الأسلوب وتنميق الألفاظ . وتخير بديع التشبيهات وغريبها ونادرها . وإظهار الكتابة فى صورة حضرية جميلة وعبارات مهذبة رشيقه . كأنها السحر الحلال والماء الزلال

الشعر فى الأندلس

تمهيد . فنون الشعر ، الأغراض التى لم يكثروا فيها ، الشعر الفلسفى . شعر الزهد والتصوف . شعر الحكم والأمثال ، الأغراض التى افتنوا فيها وأكثروا . الوصف . المجون . الغزل . الرثاء . المدح الاستعطاف . الاستنصار . نظم العلوم . حال الشعر الأندلسى ومميزاته . التجديد فى الشعر والتحرر من القافية . الموشح . نظام الموشحات . الزجل . أثر الموشحات والأزجال فى الأدب .

تمهيد

امتلك العرب بلاد الأندلس . وبسطوا نفوذهم عليها قبل انتهاء القرن الأول الهجرى بقليل . ثم توغلوا فى تلك البلاد ونشروا لغتهم بين سكانها واستخدموا الشعر - وهو أبرز مميزات العربى - فى الأغراض التى كانت تستدعيها حياتهم الأولى . من حض على جهاد ، وتشوق إلى أهل وحنين إلى وطن ، كما نرى ذلك فى قول طارق بن زياد :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيّرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

وفى قول عبد الرحمن الداخل يتشوق إلى الشام ، وطنه الأول ، وقد بعث به إلى أخته هناك :

أيها الراكب الميمم أرضى | أقر من بعضىَ السلام لبعض
إن جسمى كما علمت بأرض | وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البـــين بيننا فافترقنا | وطوى البين عن جفونى غمضى
قـد قضى الله بالفراق علينا | فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وظـل الحال كذلك حتى توطـد ملك الأمويين ونشروا بين الناس المعارف والعلوم . ووهبوا البلاد مدنية وحضارة . وأخذ أفراد الشعب بأطراف ذلك جميعه وانطبعت فى نفوسهم صوره ، فجاءوا بشـعر متأثر بتلك العلوم والمعارف . مساير لهذه الحضارة والمدنية .

ولم يلبث أن صار صناعة قوم من المتأدبين عالجوه فجرى على ألسنتهم مستمدين من عربيتهم جزالة اللفظ وفصاحة القول . ومن جمال البلاد ومحاسن طبيعتها دقة التصوير وحسن العبارة . ولطف النظم وبديع التشبيه وغريب المعانى ونادر الخيال.

وأَحب الخلفاء والرؤساء هذا النوع من الكلام فشاركوهم فيه وأنصتوا فى استماعهم له ، وأغدقوا عليهم من نوالهم وعطاياهم ماجعلهم فى بُلهينة عيش ونعومة بال، وملئوا أعينهم من زخرف الدنيا وزينتها ،وقربوهم إليهم، واتخذوهم بطانة وأعوانا ، فأفسحوا بذلك لهم مجال القول والافتنان فيـه ، فأذاعوا على النـاس ماواتتهم به قرائحهم الصافية وما أمدهم به طبعهم الشـعرى ، فنهض الشـعر نهضة مباركة ، واستوى على سوقه وآتى أكله ، وتنوعت أغراضـه ورقت أساليبه ، وصفا معينه وزكا زرعه ، وكان خاصة الناس وعامتهم فى الولع به سواء ، وحنت إليه قلوب النساء فنطقت به ألسنتهن وبرّزت فيه طائفة منهنّ عرفت بحسن الإجادة ورقة التعبير .

حتى الأميين ، كان منهم من ينظمه ويجيب به على البديهة ، فهذا ابن عمار يمر على دكان قصَّاب فيقول له :

لحم سباط الخرفان مهزول

فيجيبه القصاب على البديهة :

يقول للمفلسين مهْ ، زولوا

ويلتقي بابن جاخ الصباغ فيكشف له عن ساعده ثم يختبر بديهته بقوله

ما بين زَنْدٍ وَزَنْدِ ؟

فيجيبه ابن جاخ من فوره :

ما بين وصل وصد

وكان ابن جاخ - على ما قالوا - صباغا قد أثر الصبغ في يديه وكسبهما السواد ولابن جاخ هذا شعر يروونه عنه في موقف وداع وهو قوله :

ولما وقفنا غداة النوى   وقد أسقط البين ما في يدى
رأيت الهوادج فيها البدو   ر عليها البراقع من عسجد
وتحت البراقع مقلوبها   تدب على ورد خد ندى
تسالم من وطئت خده   وتلدغ قلب الشجي المكمد

ولكن في نفسي من نسبته إليه شيء فإنه لا يعرف أن مقلوب البراقع عقارب إلا من تعلم الحروف ومارس الكتابة وعرف ترتيب الكلمات وابن جاخ على ما يدعون أمىّ ، وهو يحدث بذلك عن نفسه على ما نرويه عنه بعد . فلعل هذه الأبيات مُتَقَوّلة عليه .

وأكثر من ذلك . كان هناك بعض مدن كل أهلها شعراء قادرون على قول الشعر وارتجاله ، فقد ذكر ياقوت في معجمه عند كلامه على مدينة

«شلب» أنه سمع ممن لايحصى أنه قال: قلّ أن ترى من أهلها من لايقول شعرا ولايعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته مااقترحت عليه، وأى معنى طلبت منه»

ولزيادة اشتغال الأندلسيين بالشعر وإعطائهم إياه من العناية مايجاوز الوصف، كان فى طوق الكثير منهم أن يرتجله فى المناسبات التى تعرض له، ومن المأثور فى ذلك قول ابن شهيد وقد طلب منه المظفر بن أبى عامر وصف جارية صغيرة رشيقة قامت على شرابهم حتى الصباح. وعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها مع صغر سنها. فارتجل:

أفدى أسماء من نديم　　　ملازم للكؤوس راتب
قد عجبوا فى السهاد منها　　　وهى لعمرى من العجائب
قالوا: تجافى الرقاد عنها　　　قلت: لاترقد الكواكب

وقصارى القول أن العرب - منذ سكنوا الأندلس واطمأنوا بها إلى أن عضهم الدهر بنابه وأصبح الرحيل عنها أمرا لامحيص عنه - كانوا راغبين فى الشعر مكثرين منه مفتنين فى صياغته ونظمه، حتى أولئك الذين يظن أنهم لم يخلقوا له وليسوا من رجاله. كالفقهاء والرياضيين، والفلاسفة والأطباء، ومن ظريف مايرويه المقرى لأحد أطباء أشبيلية وقد اجتمع فى حانوته «عيادته» ناس كثيرون ليسوا بالمرضى حتى أضجروه وأذهبوا المنفعة عنه - قوله:

خففوا عنا قليلا　　　رب ضيق فى براح
هل شكوتم من سَقام　　　أو جلسنا للصحاح؟!

كل ذلك ومااليه، يدل على تعلقهم بالشعر وإكبارهم أهله، وعلى أن طبيعتهم شاعرية، وأنهم أصحاب مواهب فذة ذات براعة فى نظم الشعر وتنسيقه

فنون الشعر

لم يترك الأندلسيون حالة من حالاتهم النفسية والاجتماعية إلا نظموا فيها الشعر ولم يدعوا غرضا من الأغراض التى يصح أن يقال فيها إلا ضربوا فيه بسهم ، فلا تكاد تجد ناحية من نواحى الحياة عندهم لم يسجل لهم فيها شعر . والمأثور من كلامهم شاهد عدل وبرهان ساطع على ذلك .

غير أن هذه الفنون التى نظموا فيها لم تستجب لهم جميعا استجابة متحدة ولم تكن إجادتهم فيها بنسبة واحدة . بل كان منها ما بلغوا فيه الذروة وجاوزوا الغاية . كالوصف والغزل والرثاء وما إلى ذلك مما كانت حياتهم وحضارتهم داعية إليه وموجبة للإكثار منه والافتتان فيه ؛ ومنها ما لم يطاوعهم كل المطاوعة ولم يلب نداءهم كما يشاءون لأسباب أنا ذاكرها بعد . وذلك ما أتحدث عنه فيما يأتى : —

١ — الشعر الفلسفى

كان الأندلسيون كما - قدمنا - محجوبين معظم أيامهم عن الفلسفة ممنوعين من مزاولتها أو النظر إليها . لذلك لم نر منهم من يتحدث عن الشرائع ونقدها ، والنظم العامة والخروج عليها ، ولا عن الإلهيات وما يتعلق بها كما فعل أبو العلاء المعرى فى شعره ، ومن قِبل ذلك لم نجد للشعر الفلسفى أثرا واضحا بين مأثورهم . اللهم إلا بعض مقطوعات صغيرة كان يقولها قوم ممن أسعدهم الحظ بمراجعة كتب الفلسفة والبحث فيها .

على أن هذا الذى ورد عنهم لم يكن كشعر المشارقة الفلسفى ولكنه

كان أشبه شيء بالتزهيد فى الدنيا ، والترغيب إلى الآخرة ، كما تقرأ ذلك فى قول أبي محمد على بن حزم :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأنكرنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرّة ساعة تولت كمرّ الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات فى المعاد وموقف نودّ إليه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذى كنا نلذ به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى وهمّ لما يرجى فعينك لا تهنا
كأن الذى كنا نسر بكونه إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

٢ — شعر الزهد والتصوف :

كانت حياة الأندلسيين حياة ترف ونعيم . تروج فيها صنوف اللهو وأنواع المرح . والشعراء منغمسون فى تلك الحياة الناعمة اللينة التى تحبب فى اللذات وتنفر من معانى الزهد والتصوف .

وغنى عن القول أن من يعيش فى تلك البيئة المترفة . وبين هذه الملاعب والملاهى . لا يستطيع الدعوة إلى الزهد والتقشف ولا القول فى التصوف وأحوال مريديه ، فكان طبيعيا ألا ينظموا شيئا فى ذلك النوع ، وألا يؤثر عنهم فيه مايروى .

ولكن ما كان عليه أميرهم الحكم بن هشام من إسراف فى تجاوز الحدود وانهماك فى الشهوات والقبائح — وهم لم يعهدوا من أمرائهم ذلك — جعل أهل العلم والورع بقرطبة ينظمون الشعر فى معانى الزهد وما إليه تعريضا بالأمير وتشنيعا عليه ؛ ثم كان ما أوقعه بأهل الربض الغربى (محلة متصلة

بقصره من قرطبة) من قتل وتعذيب ونفى وتشريد ـ لشدة وطأتهم عليه فى ذلك ـ سببا فى أن يديم بعضُ من تأثروا لذلك تعريضه بوساطة هذا الفن من الشعر ، مظهرا الرغبة عن الدنيا محقرا من يقبل عليها مذكرا بهازم اللذات مرغبا فى الطاعات ؛ استمع اصاحب المعجب إذ يقول فى أول حديثه على ولاية الحكم المتقدم ـ بعد أن أشار إلى ماقدمت ـ : «وفى أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل فى الصوامع ـ أعنى صوامع المساجد ـ وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل أن يقولوا : «يأيها المسرف المتمادى فى طغيانه المصر على كبره المتهاون بأمر ربه أفق من غفلتك . وما نحا هذا النحو »

فهذا أول عهدهم بشعر الزهد ، وقد يكون أول عهدهم بشعر التصوف كذلك ؛ إذ هما متلازمان ؛ وطبيعى أن يكون ذلك منهم كلما حزبهم أمر أو أطافت بهم نازلة .

ومن المأثور فى الزهد . مارواه الشقندى فى رسالته مستجيدا له ، عن أبى وهب العباسى القرطبى إذ يقول :

أنا فى حالتى التى قد ترانى ... إن تأملت أحسن الناس حالا
منزلى حيث شئت من مستقر الـ ... أرض أسقى من المياة زلالا
ليس لى كسوة أخاف عليها ... من مغير ولن ترى لى مالا
أجعل الساعد اليمين وسادى ... ثم أثنى إذا انقلبت الشمالا
ليس لى والد ولا مولود ... لا . ولا حزت مذ عقلت عيالا
قد تلذذت حقبة بأمور ... فتأملتها فكانت خيالا

وقول أحمد بن عبد ربه بعد أن أقلع عن صبوته وتاب من مجونه كما

يروى صاحب مطمح الأنفس :

يا قادرا ليس يعفو حين يقتدر　　ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر ؟
عاين بقلبك إن العين غافلة　　عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تزفر من غيظ إذا سفرت　　للظالمين فلا تبقى ولا تذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة　　لكان فيه عن اللذات مزدجر

ومما رووه فى التصوف عن الشيخ محي الدين بن عربى — وهو من مشاهير الصوفية — قوله :

بين التذلل والتدلل نقطة　　فيها يتيه العالم النحرير
هى نقطة الأكوان إن جاوزتها　　كنت الحكيم وعلمك الإكسير

وقوله كذلك من قصيدة أخرجها مخرج الغزل :

حقيقتى همت بها　　وما رآها بصرى
ولو رآها لغدا　　قتيل ذاك الحور

وفيها يقول :

كأنها شمس الضحى　　فى النور أو كالقمر
إن سفرت أبرزها　　نور صباح مسفر
أو سدلت غيبها　　سواد ذاك الشعر

ومنه كذلك قول يونس بن عبدالله بن مغيث :

فررت إليك من ظلمى لنفسى　　وأوحشنى العباد وأنت أنسى
قصدت إليك منقطعا غريبا　　لتؤنس وحدتى فى قعر رمسى
وللعظمى من الحاجات عندى　　قصدت وأنت تعلم سر نفسى

٣ــ شعر الحكم والأمثال :

كان حجب الأندلسيين عن الفلسفة وعدم تمكينهم من كتبها سبباً فى قلة الشعر الفلسفى ، كما كانت حياتهم المترفة الناعمة غير مشجعة على القول فى الزهد والتصوف ، وهذان الأمران مجتمعان ، كفيلان ألا يخرجا من بينهم شعراء ينظمون الحكمة ، أو يذكرون القول يجرى مجرى المثل ، لذلك لم يكن بين شعرائهم أمثال المتنبي وصالح بن عبدالقدوس وأبي تمام ومن حذا حذوهم من شعراء المشرق . هذا إلى أنّ الترجمة لم يكن لها عندهم من الشأن ما كان لها عند المشارقة فقلّ تأثرهم بأفكار غيرهم وسيرهم على نهجه

وقبل أن نحكم على مأثورهم فى الحكم بقلة أو كثرة ، نفصل القول بين الحكم العميقة المعنى الفلسفية النزعة التى هى فى حاجة إلى كدّ عقل وإعمال فكر ، وإلى حياة تعليمية خاصة ؛ وبين تلك الحكم الساذجة السهلة التى كان يتهدى إليها الشعراء من غير كبير عناء ولا طويل بحث .

فالأولى : لم تكن حياة الأندلسيين معينة على قولها ، كما يتضح مما قدمنا لذلك ندر أن تجد فى مأثورهم حكماً من هذا النوع ، ومما يشبه أن يكون منه قول ابن هانئ فى قصيدة يرثى بها والدة جعفر ويحي ابنى على :

إنا وفى آمال أنفسنا طول وفى أعمارنا قصر
لنرى بأنفسنا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا أجفاننا والغائب الفكر
فإذا تدبرنا جوارحنا فأكلّهن العين والنظر
لو كان للألباب ممتحن ما عدّ منها السمع والبصر

أيَّ الحيــاة ألذ عيشتها   من بعــد علي أنني بشر
خرست لعمر الله ألسننا   لما تكلم فوقنا القدر

وفيها يقول كذلك :

وإذا صحبت العيش أوله   صفو، فهين بعــده كدر
وإذا انتهيت إلى مدى أمل   دركا فيوم واحد عمــر

أما الثانية : فهى فى شــعرهم كثير ، فمن ذلك قول يحيي بن الفضــل :

إن القناعة من يحلل بساحتها   لم يلق فى ظلها همّاً يؤرقه

ومنه كذلك قول طبيب المرية أحمد بن على بن خاتمة :

هو الدهر لا يبقى على عائذ به   فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبــه
فمن لم يصب فى نفســه فمصابه   بفوت أمانيــه وفقد حبائبــه

وقول يحيي بن حكم المعروف بالغزال ؛ من أبيات أنشدها :

وإذا تقلبت الأمور ولم تدم   فسواء المحزون والمسرور

وكذا قول أبى الصلت أمية بن عبد العزيز :

رمتنى صروف الدهر بين معاشر   أصحهم ودّا عــدو مقاتل
وما غربة الإنسان فى غير داره   ولكنها فى قرب من لا يشاكل

٭٭٭

تلك هى الأغراض التى تأخر شعراء الأندلس فيها ولم يكثروا منها ـ بغض النظر عن الحكم الساذجة كما مر ـ لما كان عندهم من عوامل استوجبت ذلك وأعانت عليه ، ولعلى أكون قد أعطيتها بعض حقها .

وإنى متبع الحديث عن هذه الأغراض حديثاً آخر عما وفقوا فيه من فنون الشعر ، وبرزوا فى نظمه وأجادوه ، وأبدعوا ما شاء لهم ذوقهم ، وأتوا

بماشهد بشاعريتهم ، وبمقدرتهم وابتكارهم ، وأثر عنهم فيه المعجب المطرب

وليس من شك أن الحديث عن كل ذلك يطول ويمتد . ويستدعى من المجهود أعظمه ، لذلك سأقتصر على ثمانية أنواع منه مرتبة كما يأتى :

الوصـف ، المجون ، الغزل، الرثاء ، المـدح ، الاستعطاف ، الاستنصار والاستنجاد ، نظم العلوم .

وإلى القارئ الكريم كلمة مستقلة عن كل غرض من هذه . مردفة بالشواهد التى أرجو لها أن تؤيد الدعوى وتصدق القول ، والله المستعان

١ ـ الوَصْـف :

عرف الأندلسيون برقة الوصف ودقة التصوير ، وشهر عنهم التبريز فى ذلك والافتنان فيه . فكان شعرهم فى الوصف طرفة فنية ممتعة . جميلة الشكل نادرة المثال حسنة المنظر ، وكان شعراؤهم يحسنون شعر الوصف ويحبونه ، ويجيدون نظمه ويكثرون منه ، على حين هو أصعب أنواع الشعر منالا وأعزها مطلبا . إذ لا يحسن حتى يدق التشبيه ويسبح الخيال ويندر المجاز وتغرب الاستعارة ، ويكون ذلك وحياً من الخاطر وإلهاما من العقل ، وليس هذا بالمستطاع لكثير من الشعراء بل ولا لكثير من المقدمين منهم .

وفيما يظهر أن جمال الأندلس الطبيعى ، وحسن موقعه وخصب أرضه وماسحر الشعراء هناك من أنهاره وأطياره ، ومارأوه من مجالس الأنس وموائد المدام ، ألهمهم جميل الأوصاف وغريب النعوت ، وأوحى إليهم ـ فى أسلس الألفاظ وأرق العبارات ـ بكل ظريف طريف ؛ فلا غرو أن

كان الوصف مرآة ناصعة ارتسمت عليها بلاغتهم وصورة حية وضحت فيها تلك العبقرية الفذة وذلك النبوغ النادر ، وأشارت إلى ماوصلوا إليه من شأو عجز كثير من الشعراء دون الوصول إليه .

والوصف عند الأندلسيين قد شمل كل شيء وطرق كل ماوقع تحت السمع والبصر لاتساع مجال الخيال لديهم ، ووفرة مادة المشاهدات فى بيئتهم : لذلك لم يدع شعراؤهم جليلا ولاحقيراً ولا مبتذلا ولا عظيما ، ولامظهرا من مظاهر الطبيعة ومناظر الكون إلا وصفوه بعذب شعرهم ورسموه رسماً واضحاً جليا يجعل السامع كأنه ينظر بعينى رأسه مايسمع بكلتا أذنيـــه .

ودونك فاقرأ لهم العذب الأخاذ والرقيق الخلاب من ذلك الشعر ، فى وصف الأنهار والبحار ، والتماثيل والقصور ، فهذا ابن خفاجة يصف نهراً فيقول

لله نهر سال فى بطحاء ... أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا ... من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها ... هـــدب تحف بمقلة زرقاء
ولطالما عاطيت فيه مدامة ... صفراء تخضب أيدى الندماء
والورد فى شط الخليج كأنه ... رمـــد ألم بمقلة كحــلاء
والماء أسرع جريه متحدرا ... متلونا كالحيـــة الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين الماء

وأبو عامر البريانى يصـــف تمثالا أقيم بساحة من ساحات شاطبـــة فيأتى فى وصفه بتشبيه ظريف ، إذ يقول بعد أبيات ثلاثة :

كأنه واعظ طال الوقوف به ❊ مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا ❊ أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

ويصف غيره دمية نحتت من المرمر وبجانبها صورة صغيرة فيأبى إلا أن يعطيها ما للغانيات المدلات إذ يقول :

ودميـــة مرمر تزهو بجيد ❊ تناهى فى التورد والبيـــاض
لهـا ولد ولم تعرف حليـلا ❊ ولا ألمَّتْ بأوجاع المخاض
ونعـــلم أنهـا حجر ولـكن ❊ تتيمنا بألحـــاظ مراض

وهاك وصف ناهض بن إدريس لقصر أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن الذى أقامه على أقواس عظيمة ، على متن نهر قرطبة :

ألا حبذا القصر الذى ارتفعت به ❊ على الماء من تحت الحواجب أقواس
هو المصنع الأعلى الذى أنف الثرى ❊ ورفعه عن لثمه المجد والناس
فأركب متن النهر عزا ورفعة ❊ وفى موضع الأقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجناب وبابه ❊ يغص وحلت أفقه الدهر أعراس

وإليك ما أنشدوه ؛ يصفون جمال الطبيعة وظواهر الجو ؛ من ذلك الشعر الذى يملأ النفس بهجة والفؤاد إعجابا ، إليك قول ابن سهل :

الأرض قد لبست رداء أخضرا ❊ والطل ينثر فى رباها جوهرا
هاجت فخلت الزهر كافورا بهـا ❊ وحسبت فيها الترب مسكا أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردها ❊ ثغـــر يقبل منه خـــدا أحمرا
والنهر ما بين الرياض تخـــاله ❊ سـيفا تعلق فى نجـــاد أخضرا
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها ❊ كفـا ينمق فى الصحيفة أسطرا
وكأنه ـ إذ لاح ـ ناصع فضة ❊ جعلته كف الشمس تبرا أصفرا

والطير قد قامت به خطباؤه لم تتخذ إلا الأراكة منبرا

وإليك قول ابن عمار يصف غيما يتساقط الطل من خلاله فى يوم تبين شمسه آونة وآونة تختفى :

يوم تكاثف غيمه فكأنه دون السماء دخان عود أخضر

والطل مثل برادة من فضة منثورة فى تربة من عنبر

والشمس أحيانا تلوح كأنها أمة تعرض نفسها للمشترى

ولم يتورعوا عن وصف الخمر وآنيتها ، ولعبها بالعقول وامتلاكها الألباب ووصف مجالس الطرب وأوقات الأنس والسمر ، تقرأ ذلك فى شعر أبى عامر بن شهيد إذ يقول فى أثناء قصيدة طويلة رواها له ابن بسام :

وعلا بنا سكر أبى إلا الإنانة للمحارم

نرمى قلانسنا له ونجر من عذب العمائم

وترنمت فيها القيا ن لنا ورجعت البواغم

قمنا نصفق بالأكف لها ونرقص بالجماجم

وفى شعر على بن إدريس بن اليمان إذ يقول :

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح

خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسوم تخف بالأرواح

وكذا فى شعر أبى بكر محمد بن رحيم إذ يقول :

لله يوم ضربنا للمدام بها رواق لهو بطاسات وجامات

وللبلابل ألحان مرجعة تجيبهن غوانينا بأصوات

وللرياحين أنفاس معنبرة مع الرياح توافينا لأوقات

وللمياه ابتسام فى جداولها كما تشق جيوب فوق لبات

ولم يدعوا ـ كذلك ـ وصف المعارك الحربية وقد خاضوا غمارها ، ولا وصف القلاع والحصون ولا الأساطيل والسيوف ولا ما استعانوا به على مجالدة العدو وجهاده ، بل سجلوا ذلك فى شعرهم وأثر عنهم فيه المستفيض الحسن ، فهذا أبو عبد الله الشبلى القائد يصف موقعة بينه وبين أعدائه فيقول :

ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا ... فمنا ومنهم طائحون عديد
وجال غرار الهند فينا وفيهم ... فمنا ومنهم قائم وحصيد
فلا صدر إلا فيه صدر مثقف ... وحول الوريد للحسام ورود
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا ... كلانا على حر الجلاد جليد
ولكن شددنا شدة فتبلدوا ... ومن يتبلد لا يزال يحيد
فولوا وللسمر الطوال بهامهم ... ركوع ، وللبيض الرقاق سجود

وابن دراج القسطلى يصف أسطولا أنشأه المنصور العامرى فيقول :

تحمل منه البحر بحراً من القنا ... يروع بها أمواجه ويهول
بكل ممالات الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق غيل
إذا سابقت شأو الرياح تخيلت ... خيولا مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح فإن وفت ... أطافت بأجياد النعام فيول
ظباء سمام مالهن مفاحص ... وورق حمام مالهن هديل

وأبو العباس اللص يصف سيفاً فيقول :

تراه فى غداة الغيم شمساً ... وفى الظلماء نجما أو ذبالا
يروعهم معاينة ووهما ... ولو ناموا لروعهم خيالا

والمعتمد بن عباد يصف مجانيه كوا كب فضة ؛ وقد أمره أبوه بذلك ؛ فيقول :

بجن حكى صانعوه السما — لتقصر عنه طوال الرماح
وقد صوروا فيه شبه الثريا — كواكب تقضى له بالنجاح

وابن خفاجة يصف قوساً فيقول :

عرجاء تعطف ثم ترسل تارة — فكأنما هى حية تنساب
وإذا انتحت والسهم منها خارج — فهى الهلال انقض منه شهاب

ودعاهم جمال نسائهم الفاتن وملاحتهن الجاذبة إلى القول فى ذلك . فوصفوا آيات الحسن فى خلقهن وتحدثوا عنها بما يستهوى القلب ويرتاح له الفؤاد ، كما وصفوا لقاء الأحبة ومواقف التوديع وقبلة العاشق وطيف الخيال ، وكان شعرهم فى كل أولئك تعبيراً عما يجول بالنفس وتنطوى عليه حنايا الصدر ؛ استمع إلى محمد بن البين البطليوسى إذ يقول متحدثا عن غانيات أعجبنه :

غصبوا الصباح فقسموه خدودا — واستنهبوا قضب الأراك قدودا
ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم — فاستبدلوا منه النجوم عقودا
واستودعوا حدق المها أجفانهم — فسبوا بهن ضراغماً وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا — حتى استعاروا أعينا ونهودا
وتضافروا بضفائر أبدوا لنا — ضوء النهار بليلها معقودا
صاغوا الثغور من الأقاحى بينها — ماء الحياة لو اغتدى مورودا

وإلى ابن عبد ربه يصف موقف وداع بينه وبين محبوبته فيقول :

ودعتنى بزفرة واعتناق — ثم نادت متى يكون التلاقى
وتصدت فأشرق الصبح منها — بين تلك الجيوب والأطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم — بين عينيك مصرع العشاق

إن يوم الفراق أفظع يوم   ليتنى مت قبل يوم الفراق

ويصف حال المحبين والعشاق فيأتى بكلام لين سهل تأنس له النفس ويطمئن لسماعه القلب فيقول :

سبيل الحب أوله اغترار   وآخره هموم وادكار
وتاق العاشقين لهم جسوم   براها الشوق لو نفخوا الطاروا

واستمع كذلك لهذا القول العذب الذى يصف به محمد بن سفر لقاء حبيبته إذ ينشد فيطرب :

وواعدتها والشمس تجنح للنوى   بزورتها شمساً وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنا الصبح فى الدجى   وطوراً كما مر النسيم على النهر
فعطرت الآفاق حولى فأشعرت   بمقدمها ، والعرف يشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها   كما يتقصى قارئ أحرف السطر

ولقول أبى شرف القيروانى . حين يتحدث عن طيف الحبيب بأسلوبه الممتع الرقيق فيقول :

بأبى بعد الكرى طيف سرى   طارقاً عن سكن لم يطرق
زارنى والليل ناع سدفه   وهو مطلوب بباقى الرمق
ودموع الطل تمريها الصبا   وجفون الروض غرقى الحدق
فتأتى فى إزار ثابت   وتثنى فى وشاح قلق
وتجلى وجهه عن شعره   فتجلى فلقٌ عن غسق

وأحسن منه قول مليح الأندلس أحمد بن عبد ربه :

سرى طيف الحبيب على البعاد   ليصلح بين عينى والرقاد
فبات إلى الصباح يدى وسادٌ   لوجنته كما يده وسادى

بنفسى من أعاد إلىّ نفسى ... ورد إلى جوانحه فؤادى
خيال زارنى لما رآنى ... عدتنى عن زيارته عوادى
يواصلنى على الهجران منه ... ويدنينى على طول البعاد

هذا، وباب الوصف حافل بالمرقص المطرب . والسائغ السهل ، ولن تفيه النماذج حقه ، مهما طال إيرادها وكثر تعدادها . وما الغزل والمديح والرثاء والهجاء وأمثالها من فنون الشعر إلا نماذج منه وإن أخذت أسماء خاصة بها ، وأخاف : إذا أنا توسعت فى الاستشهاد ؛ أن أخرج إلى تطويل ممل ، فالآن أكتفى بما قدمت فهو هاد إلى غيره ونموذج منه ، وطيب العرف يشعر بالزهر وعساى ألا أكون أطلت .

٢ ــ المجُون

نشأ الأندلسيون فى ظلال نعمة وارفة وعيش مترف وحياة كلها خفض ودعة بين ملاعب الحسان وأغانى القيان مستصحبين الكأس والوتر مكثرين مجالس الأنس والسمر ، فحملهم ذلك إلى حياة صاخبة تذخر بالخلاعة والاستهتار وصرفهم النعيم إلى ذلك اللون الماجن من الأدب وكذلك شأن الرخاء يترك للنفس عنانها حتى لتذهب فى سوق اللهو والمرح ناسية كل تقليد متخطية كل حدّ ، كما ترى ذلك فى قول أبى عبد الله ابن الأزرق قاضى الجماعة بقرطبة ، من قصيدة عفة طويلة نسبها إليه المقرى فى الجزء الثانى من نفح الطيب (ص ٨٣٤) ومطلعها

عِمْ باتصال الزمن ... ولا تبالى بمن
وهو يواسى بالرضا ... من سمِج أو حسن

وفيها يقول فى أنواع المطاعم :

هل للثريد عـــودة إلى قـد شـــوقنى
تغوص فيه أنملـــى غوص الأكول المحسن
ولى إلى الإسفنج شـوق دائم يطربنى
وللأرزّ الفضـل إذ تطبخـــه باللـــبن
وللشـــواء والرقا ق من هيام أنثـــنى

و كذا فى قول عبد المجيد بن عبدون فى دار أنزله بها المتوكل بن الأفطس وقد كان سقفها باليا. هطل عليه المطر منه فأنشد يخاطب المتوكل ؛ والشطور الثوانى لامرئ القيس :

أيا ساميا من جانبيه إلى العـلا سمو حباب الماء حالا إلى حال
لعبـدك دار حل فيهـــا كأنها ديار لسلمى عافيات بذى الخال
يقول لها لما رأى من دثورها ألا عم صباحا أيها الطلل البالى
فقالت ولم تعبـــأ برد جوابه وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
فمر صاحب الأنزال فيها بفاصل فإن الفتى يهـذى وليس بفعال

ومن هذا النوع ما توغل فى الخلاعة والاستهتار وعدم المبالاة بالفرائض كما فى أبيات قال المقرى إنها حفظت عن أبى جعفر أحمـد بن طلحة أحد وزراء بنى عبـد المؤمن ثم ابن هود ـ حين تغلب على الأندلس ـ ونعته بأنه ممن شهر بالمجون والخلاعة بالأندلس وهاهى ذى :

يقول أخو الفضول وقد رآنا على الإيمـان يغلبنا المجون
أتنتهكون شهر الصوم ! هلا حماه منكم عقـــل ودين
فقلت اصحب سوانا نحن قوم زنادقة مـــذاهبنا فنون

بحى على الصبوح الظهر ندعو وإبليس يقول لنا أمين
فياشهر الصيام إليك عنا إليك ، ففيك أكفر مانكون

وكما فى قول الوزير أبى عبيد البكرى مخاطبا نديمين له وقد دخل رمضان :

خليلى إنى قد طربت إلى الكاس وتقت إلى شم البنفسج والآس
فقوما بنا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سرا من الناس
فإن نطقوا كنا نصارى ترهبوا وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس
وليس علينا فى التعلل ساعة وإن وقعت فى عقب شعبان من بأس

ومن ظريف مجونهم ماأنشده أحمد بن عبد ربه وهو قوله :

اشرب على المنظر الأنيق وامزج بريق الحبيب ريق
واحلل وشاح الكعاب رفقا خوفا على خصرها الرقيق
وقل لمن لام فى التصابى : خذوا قليلا عن الطريق

ومنه كذلك ما كتبه بعضهم إلى قاضى (لوشة) وكانت له زوج يصفونها بسعة العقل ونباهة الفكر . وفصاحة اللسان ومعرفة الأحكام ومشاركة زوجها فيما يعرض له من مشاكل القضاء ؛ وفيه تورية لطيفة :

بلوشة قاض له زوجة وأحكامها فى الورى ماضية
فياليته لم يكن قاضيا وياليتها كانت القاضية

ومما يروونه أنه لما وصل البيتان إلى القاضى أطلع زوجه عليهما فحين قرأتهما تناولت القلم وكتبت تجيب قائلهما بهذين البيتين :

هو شيخ سوء مزدرى له شيوب عاصية
كلا لئن لم ينتـه لنسفعاً بالناصية

وفى ذلك جميعه وفى غيره مما لم يسعه المقام ، مايشهد لسبق الأندلسيين

فى هذا النوع وافتتانهم فيه وجنوحهم إليه . انطباعا منهم بطابع الحياة المرحة . وتأثرا بما حفهم من بلهنية العيش وألوان النعيم .

٣ — الغَـزَل

شعر الغزل أرق أنواع الشعر وأسلسها ، وأعذبها ألفاظا وأسهلها ، وآنسها إلى النفس وأحبها إلى القلب ، وأعلقها بالفؤاد وأنداها على السمع ذلك أنه محض عاطفة ووجدان ، وصدى قلب مدنف وفؤاد مشغوف دلهه الحب واستهواه الجمال ، وأثر فيه الهجر والوصال ، واستلهم قوله التمنع والدلال ؛ والحب كله عطف وإشفاق ، وحنين وأنات ، وآمال وآلام ، وله الأثر البين فى سمو الخيال وإبداع العبارة . ورقة التصوير ورشاقة الأسلوب .

والشاعر الغزلى ـ بما يحاول من وصف محبوبته وكلفه بها ، وحنينه إلى القرب وألمه للبعاد ، ومايتزع إليه من تعريفها لواعج شوقه ومايخالج قلبه من وساوس ، أو بما يبعثه يبثه إليها شكواه ويشرح لها حاله ، وما ألم به من وجد وأضناه من هجر ـ تراه أكثر الشعراء تمسكا بالافتنان وحسن التعليل . وجريا وراء البديع المطرب والرقيق العذب .

وما افتن الشعراء فى شىء كالغزل ، ولا تباروا فى غيره مثل ماتباروا فيه ، وإنك لن تجد بحال متحدثا يستهويك لفظه حتى ليملك عليك مشاعرك ويستولى على فؤادك ولبك . كشاعر عاشق أضنته الصبابة وشفه الكلف ، وغلبه الحب وأسره الجمال ، فأخذ يداعب محبوبته ويتحدث عنها وإليها ، ويصف منها قسمات الحسن ومعالم الجمال ، ويتغزل فى نورها الوضاح وقوامها اللدن ، وثغرها الباسم وشعرها الجثل ، ويصف عينها

الناعسة ويدها الرخصة ، ووجهها الصبوح وريقها العذب .

والأندلسيون بما أتيح لهم من مشاهدة تلك البدور النيرة ذات الجمال الجذاب والملاحة الفتانة ، وبما تيسر لأكثرهم من مجالسة الغواني الحسان والتودد إليهن وعقد مجالس الأدب والسمر التي ضمت هؤلاء وأولئك وتراسلت فيها النظرات وتخاطبت العيون ، — أقول بما أتيح لهم من ذلك ومن شبيهه : كانوا ذوي مقدرة على شعر الغزل وإبداع فيه ، وافتنان في نظمه وإكثار منه .

ولو أنك تتبعت شعرهم الغزلي لرأيت فيه ما يملأ نفسك سروراً وإعجابا ويدعوك إلى الحكم بذلك عن طواعية واختيار ؛ وأنا أورد منه هنا ما عساه يكفي عن الكثير المستفيض ؛ استمع إلى أحمد بن عبد ربه يتغزل في محبوبته فيقول :

بنفسي التي ضنت برد سلامها ... ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
إذا جئتها صدت حياء بوجهها ... فتهجرني هجراً ألذ من الوصل
وإن حكمت جارت على بحكمها ... ولكن ذاك الجور أشهى من العدل
كتمت الهوى جهدي فجرده الأسى ... بماء البكا هذا يخط ، وذا يملي
وأحببت فيها العذل حباً لذكرها ... فلا شيء أشهى في فؤادي من العذل
أقول لقلبي . كلما ضامه الأسى ... : إذا ما أبيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيي تعرضتَ للهوى ... وأمرك لا أمري وفعلك لا فعلي
وجدتَ الهوى نصلا من الموت مغمدا ... فجردته ثم اتكيت على النصل
فإن كنت مقتولا على غير ريبة ... فأنت الذي عرضت نفسك للقتل

ويقول كذلك وفيه من الرقة والحسن ما ترى :

بزمام الهوى أمت إليه ... وبحكم العقار أقضي عليه

بأبى من زهى علىّ بوجه كاد يدمى لما نظرت إليه
كلما على من الراح صرفا على بالرضاب من شفتيه
ناول الكأس واستمال بلحظ فسقتنى عيناه قبل يديه

وإلى أبى جعفر التطيلى فى حواره مع « أم المجد » تلك التى تسليه و تبين له الطريق التى يسلكها إلى حبيبته المتمنعة عليه ، إذ يحكى ذلك فى أسلوب غزلى رقيق طريف يشف عن صبابته ويتحدث ببالغ وجده فيقول :

لما التقينا وقد قيل المساء دنا وغابت الشمس أولاذت ولم تغب
وأضلعى بين منقض ومنقصف وأدمعى بين منهل ومنسكب
وأمّلتنى « أم المجد » قائلة : بمن أراك أسير الوجد والطرب ؟
فقلت قلبى مسبى وإنك لو كتمت سرى لم أكتمك كيف سبى
وأعرضت ثم قالت قد أسأت بنا ظنا أيحمل هذا من ذوى الأدب !
فقلت إنى امرؤ لما لقيتكم والمرء وقف على الأرزاء والنوب
سبت فؤادى ذات الخال قادرة ولا نصيب له منها سوى النصب
ألهو بها وهى تلهو فى بلهنية شتان والله بين الجد واللعب
أصابت القلب لما أن رمته ولو رمته أخرى إذاً لا شك لم تصب
فقالت : اشك إليها مالقيت ولا ترهب فلم تبلغ الآمال بالرهب
عسى هواك سيعديها فينصبها وقد يكون الهوى أعدى من الجرب
فقلت أعظمها ، بل ما أكلمها إلا أشار إلىّ الموت عن كثب
قالت أنا أتولى ذاك فى لطف فقد أؤلف بين الماء واللهب
فقلت مثلك من يرجى لمعضلة لازلت فى غبطة ممتدة الطنب
صليه أو فاقتليه فالحمام له خير من الهجر فى جهد وفى تعب

فلو ترانى قد استسلمت مرتقبا   منها حنان الرضا أو جفوة الغضب
حتى إذا ما ألانت تلك جانبها   والقلب مهما أرم تسكينه يجب
طفقت ألثم كفها وقد جنحت   إليك تضحك بين العُجب والعَجب

ومن مبرزى الأندلسيين فى شعر الغزل الوزير أبو الوليد بن زيدون، وله فيه القصائد الطنانة الممتعة. التى أسالها على لسانه حبه لولادة. وما كان بينهما من معانى العشق وأنواع الغرام؛ وهاك قوله يتشوق إليها ويتمنى لقاءها:

يا نازحا وضمير القلب مثواه   أنستك دنياك عبدا أنت دنياه
ألهتك عنه فكاهات تلذ بها   فليس يجرى ببال منك ذكراه
علّ الليالى تبقينى إلى أمل   الدهر يعلم والأيام معناه

وإليك ما كتبه إليها ـ كما يقول صاحب القلائد ـ «يستديم عهدها، ويؤكد ودها، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى غشيه، والامتحان الذى خشيه، ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر، ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر» وهى قصيدة جميلة النظم بديعة النسق «ضربت ـ كما يقول كذلك ـ فى الإبداع بسهم، وطلعت فى كل خاطر ووهم، ونزعت منزعا قصر عنه حبيب وابن الجهم» ومطلعها:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا   يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

وفيها يقول:

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً   مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله   شرباً وإن كان يروينا فيظمينا

لم يخف أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كثب ... لكن عدتنا على كره عوادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة ... فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
دومى على العهد ـ مادمنا ـ محافظة ... فالحر من دان إنصافاً كما دينا
فما ابتغينا خليلا منك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيبا عنك يغنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة ... فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا
وفى الجواب قناع لو شفعت به ... بيض الأيادى التى مازلت تولينا

ولم يقف الأمر بشعراء الأندلس عند التغزل بالنساء والتحدث عن محاسنهن وأسرهن القلوب واحتلالهن سويداواتها ، ولكنهم تجاوزوا ذلك إلى التغزل بالولدان ، ووصف جمالهم ، وأفعال ألحاظهم ؛ ومما يروى فى ذلك قول المعتمد بن عباد فى غلام صغير كان يتصرف بين يديه واسمه سيف :

سموه « سيفاً » وفى عينيه سيفان ... هذا لقتلى مسلول وهذان
أما كفت قتلة بالسيف واحدة ... حتى أتيح من الأجفان ثنتان
أسرته وثنانى غنج مقلته ... أسيره فكلانا آسر عانى
ياسيف ، أمسك بمعروف أسير هوى ... لا يبتغى منك تسريحا بإحسان

وقول أبى الوليد بن حزم فى غلام وسيم :

مرآكَ مرآك لا شمس ولا قمر ... وورد خديك لا ورد ولا زهر
فى ذمة الله قلب أنت ساكنه ... إن بنت بان فلا عين ولا أثر

وكان بطل هذا النوع من شعر الغزل ، وفارس حلبته ومقدم رواده . الشاعر

الظريف إبراهيم بن سهل الإسرائيلى، والمتصفح لديوانه قلما يعثر على قصيدة ليس فيها ذكر لموسى الذى كان يهواه ويتفانى فى حبه، ويكثر من الحديث عنه وعن أوصافه المستحسنة وشمائله الكريمة مبالغا فى شدة تعلقه به وعشقه له، فمن ذلك قوله:

أذوق الهوى مر المطاعم علقما   وأذكر من فيه اللمى فيطيب
تحن وتصبو كل عين لحسنه   كأن عيون الناس فيه قلوب
وموسى - ولا كفران لله - قاتلى   وموسى لقلبى - كيف كان - حبيب

وقوله كذلك: وفيه تشبيه طريف:

كأن الخال فى وجنات موسى   سواد العتب فى نور الوداد
وخط بخده للحسن واو   فنقّط خده بعض المداد
لواحظه محيرة ولكن   بها اهتدت الشجون إلى فؤادى

وقوله أيضا وهو ختام مااخترت من شعر الغزل جميعه:

ذكرك الأعطر يبكينى دما   رب مسك بشذاه رعفا
لست مشغوفا بموسى، إنه   ليس لى قلب فأشكو الشغفا
كنت أشكو فى الهوى، واليوم قد   تبت، يعفو الله عما سلفا

ولكون الشعر الغزلى محببا إلى نفوسهم متمكنا من قراراتها سهلا على ألسنتهم وأسماعهم رقيق الألفاظ حسن الوقع مرغوبا فيه، كانوا يقدمون به كثيرا من قصائدهم وبخاصة مدائحهم؛ وكان بعضهم يطيل فى ذلك حتى يتوهم السامع أنه الغرض الأول من شعره، وماهو بذاك؛ ولو رجعت إلى مدائح ابن هانىء لوجدت فيها الكثير المستفيض من ذلك؛ وسأشير فى حديثى عن المديح إلى أمثلته ونماذجه إذ وجودها هناك أليق، ولعل فيما قدمت كفاية.

٤ ــ الرِّثَــاء :

والرثاء كذلك لغة القلوب وحديث العاطفة ، وهو أنة المحزون وصرخته وقطعة من قلب المفؤود وكبده المتقطع ، وآية ناطقة بفداحة الخطب وهول المصاب ، لاترسله الألسنة إلا من صدور مكلومة وأفئدة موجعة ونفوس باكية وقلوب ملتاعة . شفها الحزن وصدعها الهم . واستولت عليها الحسرة وأضناها الأسى .

والأندلسيون أهل عاطفة رقيقة ووجدان حى ، يؤثر فيهم المصاب وتحزنهم النازلة ، وهم بعد قوالون مجيدون ، والشعر على أسلات ألسنتهم يبعثونه فى كل مناسبة ، وينشدونه كلما جاشت نفوسهم بما يستثير عاطفته وليس من شك أنهم شاهدوا بأعينهم ولمسوا بأيديهم ماأثار شجونهم وأحزانهم واستدعى لهيب الزفرات وبالغ الأسى ، ورأوا حوادث الدهر تعدو على من يصطفون . وتستلب من بينهم من يعدونه للنوازل . ولدفع الكوارث ومدلهمات الأمور ، وذلك كفيل أن يؤثر فى نفوسهم ماشاء الله أن يؤثر ، ويحز فى قلوبهم ماشاء أن يفعل «ولابد للمصدور أن ينفُث» وللحزين أن يفرج عن نفسه ويبث حزنه ؛ فأرسلوه شعراً باكيا مقبولا لدى النفس عالقاً بالقلب ، تتبين من خلاله التلهف على المرثى ، وتستشعر الجزع والفجيعة لفقده ؛ أنظر إلى قول أبي بكر بن عبدالصمد يرثى ملكه المعتمد بن عبّاد من قصيدة طويلة أنشدها على قبره « بأغمات » فى يوم عيد فقال :

ملك الملوك أسامع فأنادى ؟ أم قد عدتك عن السماع عوادى

لما خلت منك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً ... وتخِذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أنّ تبدد أدمعى ... نيرانَ حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بد معى كلما أجريته ... زادت علىّ حرارة الأكباد
فالعين فى التسكاب والتهتان والْ ... أحشاء فى الإحراق والإيقاد
يا أيها القمر المنير أهكذا ... يمحى ضياء النير الوقاد ؟
أفقدت عينى مذ فقدت إنارة ... لحجابها فى ظلمة وسواد
ما كنت أحسب قبل موتك أن أرى ... قبراً يضم شوامخ الأطواد

وكلما كانت الصلة بين الرائى والمرثى وثيقة متينة . كانت الحسرة عليه أشد ، والفجيعة به أعظم ، من أجل ذلك ترى رثاءهم لأبنائهم بكاء مؤثراً لانبعاثه من قلب جريح وفؤاد منفطر . تقرأ ذلك فى شعر المعتمد بن عباد الذى رثى به ولديه المأمون والراضى حين قتلهما المرابطون (١) وقد رأى قُمرية تنوح على إلفها ، وأمامها وكرضم طائرين ، يرددان نغما ويغردان ترحة وترنما ، فأنشد :

بكتْ أن رأت إلفين ضمهما وكر ... مساء وقد أخنى على إلفها الدهر
وناحت فباحت واستراحت بسرها ... وما نطقت حرفا يبوح به سرّ
فمالى لا أبكى ؟ أم القلب صخرة ... وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقده ... وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بُنىّ صغير أو خليل موافق ... يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحر

---

(١) قتل المرابطون ، المأمون بن المعتمد فى قصر قرطبة ثم خاضوا به النهر تمثيلا وتخويفا ، وقتلوا أخاه الراضى برُندة وألقوا بجسده إلى الأرض كذلك .

ونجمان زين للزمان احتواهما ... بقرطبة النكداء أو رُندة القبر
عذرت إذاً إن ضنّ جفنى بقطرة ... وإن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى ... لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وكذا فى قول القاضى أبى الوليد الباجى يرثى ابنيه :

رعى الله قبرين استكانا ببلدة ... هما أسكناها فى السواد من القلب
لئن غيبا عن ناظرى وتبوآ ... فؤادى لقد زاد التباعد فى القرب
يقر بعينى أن أزور ثراهما ... وألصق مكنون الترائب بالترب
وأبكى وأبكى ساكنيها لعلنى ... سأُنجد من صَحب وأُسعد من سُحب
فما ساعدت ورق الحمام أخا أسى ... ولا روحت ريح الصبا عن أخى كرب
ولا استعذبت عيناى بعدهما كرى ... ولا ظمئت نفسى إلى البارد العذب
أحنّ ويثنى اليأس نفسى عن الأسى ... كما اضطرّ محمولُ على المركب الصعب

وفى قول أبى عمر أحمد بن عبد ربه يرثى ابنا له كذلك :

بليت عظامك والأسى يتجدد ... والصبر ينفد والبكا لا ينفد
ياغائباً لا يرتجى لإيابه ... ولقائه دون القيامة موعد
ما كان أحسن ملحدا ضمنته ... لو كان ضم أباك ذاك الملحد
باليأس أسلو عنك لا بتصبرى ... هيهات ، أين من الحزين تجلد ؟

وترى المرثى إذا كان موضع أمل لمن يرثيه أو صديقا له يعينه على نوب الزمان وأرزاء الحوادث ، يؤثر فيه نعيه ويعز عليه فقده ، فتفيض نفسه بالشعر يخلد به مآثر ذلك الراحل الكريم ، ويشكو الأيام بما يستل العبرات ويوحى بالأنين . كما ترى ذلك فى رثاء أبى جعفر المعروف بالأعمى التطيلى إذ يقول فى قصيدة مطلعها :

اليوم حين لففت المجد في كفن ... نفسي الفداء على أن لات حين فدا

***

في ذمـــة الله قبر ما مررت به ... إلا اختبلت أسى إن لم أمت كمدا

أودى الزمان وكيف اسطاعه بفتى ... قد طال ماراح في أتباعه وغدا

ملء القلوب جلالا والعيون سنا ... والحرب بأساً وأكناف الندى ندى

من لا يقدم في غير العـــلا قدما ... ولا يمد لغير المكرمات يدا

كأنه كان ثأراً بات يطلبـــه ... حتى رآه فــلم يعدل به أحدا

وفيها يقول :

قل للدجى وقـــد التفت غياهبها ... فلو تصوب فيها الماء ما اطردا :

إن الشهاب الذي كنا نجوب به ... أجوازها قد خبا في الترب أو خمدا

لهفي ولهف المعالي ، جار بي وبها ... صرفُ الردى وأرانا أية قصدا

ياصاحبي ولا يحبســـكما ظمأ ... طال الحيام وهــذي أدمعي فردا

والأندلسيون كانوا أقدر الناس على رثاء الممالك الزائلة ، والأقطار الضائعـــة والدول الآفلة وندب الملوك التي تنتزع عروشها وتخلع عن سلطانها ؛ لم يدر كهم في ذلك سابق ولم يلحقهم فيه تابع ، لأنّ الحوادث التي دهمتهم والفتن التي شملت بلادهم ، وما شاهدوا من سرعة تبدل الملوك وضياع حكوماتهم في نواح عدّة من قطرهم الذي صار نهباً بين الأعيان والأقوياء . وإغارةَ العدو على القلاع والحصون والقرى والدساكر وتنكيله بالمسلمين الأبرياء ؛ كل أولئك وما إليه ترك في نفوسهم آثاراً واضحة وجروحا لا تندمل ، وجعل شعرهم في هذه الناحية مملوءاً بالأسى والحسرة والتفجع للمصاب واستنزاف الدم عليه ، كما تلمح ذلك في قصيدة أبي محمد بن عبدون

التى رثى بها بنى المظفر أصحاب بَطَلْيَوْس من ملوك الطوائف . ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر | فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك ، لا آلوك معذرة | عن وقفة بين ناب الليث والظفر

وفيها يستعرض حوادث الدهر بمن سبقهم . ونكبته بالمتقدمين من ذوى التيجان والرياسة . ثم ينتهى من ذلك كله ـ وقد أطال فيه ـ إلى مقصوده من رثاء بنى المظفر والتوجع لما أصابهم فيقول :

بنى المظفر والأيام مابرحت | مراحلا والورى منها على سفر
سحقا ليومكم يوما ولا حملت | بمثله ليلة فى مقبل العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو | من للأسنة يهديها إلى الثغر
من لليراعة أو من للبراعة أو | من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو رفع آزفة | أو قمع حادثة تعيا على القدر
من للظبى وعوالى الخط قد عقدت | أطراف ألسنها بالعىّ والحصر

ويقول كذلك بعد أبيات :

أين الإباء الذى أرسوا قواعده | على دعائم من عزومن ظفر
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه | فلم يرد أحد منهم على كدر
كانوا رواسى أهل الأرض منذ نأوا | عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا غبرت | هذى الخليقة يالله فى سرر

وكذا فى قصيدة أبى بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبانة حين رثى بنى المعتمد بن عباد وقد أنزل بهم يوسف بن تاشفين ماشاء من نقمة وتعذيب وحملهم إلى المغرب فى غير احترام لوعود ولا رعى لعهود ، ومطلعها :

تبكى السماء بدمع رائح غادى | على البهاليل من أبناء عباد

وفيها يقول :

لمادنا الوقت لم تخلف له عـــدة ... وكل شيء لميقات وميعاد
كم من دراري سعد قد هوت ووهت ... هناك من درر للمجـــد أفراد
نَور ونُور فهذا بعـــد نعمته ... ذوى ، وذاك خبا من بعد إيقاد
ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ ... فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويامؤمل واديهـــم ليسكنه ... خف القطين وجف الزرع بالوادى

ويقول كذلك متفجعا عليهم متوجعالهم :

تفرقوا جيرة من بعـد مانشئوا ... أهلا باهـــل وأولادا بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفـــداة ومن فادى
سارت سفائنهـــم والنوح يتبعها ... كأنهـــا إبل يحدو بهـــا الحادى
كم سال فى المـاء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد
من لى بكم يابنى ماء السماء إذا ... ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى

وأبكى مافى هذا الباب وآلمـــه . قصيدة أبى البقاء صالح بن شريف الرُندى التى رواهاله المقرى فى رثاء الأندلس ؛ وهى على سذاجتها حديث نفس ذهبت حسرات على ما حلّ بالأندلس وما أصاب الإسلام فى صميمه وتقطعت أسفا لعدم وجدانها من يعيد إلى تلك البلاد باذخ مجدها وسامى عزها . واستعظمت تلك المصيبة التى لاترى لها من عزاء ولا سلوى . ولقد تقرأ تلك القصيدة فترى فيها من الروعة والتأثير ، وامتلاك القلب واستلاب الدمع مايجعلك تحكم ببلوغها القمة فى موضوعها وعجز كثير من الشعراء عن درك غايتها ، استمع إليه إذ يستهلها بقوله :

لكل شيء إذا ماتم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لاتبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

ثم يأخذ فى عرض كبريات الحوادث وما أتت به الأيام على الملوك والقادة ، وما كان من منشآت هؤلاء التى اهتدى إليها البلى وأغارت عليها عوادى الزمن فى عبارات حزينة مؤثرة ، وينتهى من ذلك إلى قوله :

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حلّ بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاعزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين فى الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماشأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيّان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كنّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان

ثم يقول فى آخرها قول ملتاع حزين أثرت فى نفسه تلك الصور التى تفتت رؤيتها الأكباد وتصدع القلوب :

يامن لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يارُب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

هـذا ، ونستطيع - بعد الذى قدمنا من نصوص الرثاء - أن نقول : إن الأندلسيين بذوا جميع الشعراء فى رثاء الدول والأقطار والممالك ، لم يلحقهم فى ذلك النوع من الرثاء السياسى لاحق ، ولم يقل أحد من المشارقة أو سواهم مثل قولهم أو مايدانيه فى الجودة والجزالة . وحسن الانسجام وقوة التأثير ، ولو أنك قرأت رثاء بغداد لشمس الدين محمود الكوفى ، ثم وازنت بينه وبين أضعف شعر من رثاء الأندلسيين السياسى - إن كان ثمت ضعيف - لشهدت بسبقهم وتقدمهم ، وعدم استطاعة أحد لحاقهم فى ذلك المضمار ؛ وإليك أبياتا من قصيدة الكوفى التى أشرت إليها عساها - بعد عرضها على ماتحدثنا عنه من رثاء الأندلسيين - أن تؤيد ماندعى وتشهد لما نختار ، استمع إليه إذ يقول :

إن لم تقرح أدمعى أجفانى ... من بعد بعدكم ، فما أجفانى
إنسان عينى مذ تناءت داركم ... ماراقه نظر إلى إنسان
ياليتنى قد مت قبل فراقكم ... ولساعة التوديع لا أحيانى
مالى والأيام شتت خطبُها ... شملى ، وخَلانى بلا خُلانى !
ماللمنازل أصبحت لا أهلها ... أهلى ، ولا جيرانها جيرانى
وحياتكم ماحلها من بعدكم ... غير البلى والهدم والنيران
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ... ووقفت فيها وِقفة الحيران

وسألتها لكن بغير تكلم   فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها : يادار ماصنع الألى   كانواهم الأوطار فى الأوطان
أين الذين عهدتهم ولعزهم   ذلا تخر معاقد التيجان ؟
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم   يبكى الهدى وشعائر الإيمان
قالت : غدوا لما تبدد شملهم   وتبدلوا من عزهم بهوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع   أبدا ويخرج من أعز مكان
أفنتهم غير الحوادث مثلما   أفنت قديما صاحب الإيوان

أمّا غير ذلك من أنواع الرثاء فلم يكن لهم فيه على غيرهم ظاهر فضل ولا كبير إحسان. ولكنهم معهم كأبطال السباق. يُسبقون تارة. ويَسبقون أخرى

٥ — المَدْح :

كانت الحياة الاجتماعية بالأندلس توحى إلى الشعراء أن يمدحوا الخلفاء والرؤساء ، وأن يشيدوا بذكرهم ويذكروا مفاخرهم ، ويعلنوا مالهم من أياد وما امتازوا به من صفات ؛ وكان انقسام البلاد إلى دويلات مستقلة وممالك متعددة داعيا كذلك إلى إرسال مدائحهم وتجويدهم لها، تنافسا فى التقرب إلى أصحابها ونيل الحظوة لديهم ، هذا إلى ما كان من إكرام الأمراء وذوى التيجان للنابغين من هؤلاء وإثابتهم لهم وإسباغ النعم والأرزاق عليهم واختيارهم للمشاورة والوزارة ، وقصر وظائف الدولة الرفيعة عليهم .

كل ذلك وما إليه أجرى على ألسنتهم مدائح هى النسيم رقة . والماء سلاسة وعذوبة . كما ترى ذلك فى قول ابن شهيد من خلال قصيدة يمدح بها أحد خلفاء بنى عامر إذ ينشد :

وغمام باكرتنا غيمه　　ترع الأفق بدمع صيب
مثل بحر جاءنا من فوقنا　　جرمه من لؤلؤ لم يثقب
فسألناه وقد أعجبنا　　حشوه العين بمرأى معجب
أنت ماذا؟ قال مزن علمت　　كفه النفحة كفا درب
رامني بالشرق أن أسقيكم　　رحمة منه بأقصى المغرب
فسألناه : أين ذاك لنا　　قال هل يخفى ضياء الكوكب؟
ملك ناصب من خالفكم　　عامري المنتمى والمنصب

وكذا فى قول ابن درّاج القَسْطَلى يمدح منذر بن يحيى أمير سرقسطة :

فلئن تركت الليل فوق داجيا　　فلقد لقيت الصبح بعدك زاهرا
وحللت أرضا بدلت حصباؤها　　ذهبا يرف لناظرى وجوهرا
ولتعلم الأملاك أنى بعدها　　ألفيت كل الصيد فى جوف الفَرا
ورمى علىّ رداءه من دونهم　　ملك تُخير للعلا فتَخيرا
ضربوا قبابهم على فعادنى　　من كان بالقدح المعلى أجدرا
وكأنما تابعت تبّع رافعا　　أعلامه ملكا يدين له الورى
وحططت رحلى بين نادى حاتم　　أيام يقرى موسرا أو معسرا
ولقيت زيد الخيل تحت عجاجه　　يكسو غلائلها الجياد الضمرا
وأتيت بجدل وهو يرفع منبرا　　للدين والدنيا ويخفض منبرا
تلك البدور تتابعت وخلفتها　　سعيا فكنت الجوهر المتخيرا

ومن بديع ذلك ورقيقه قول أبى جعفر أحمد بن عبدالله المعروف بالأعمى التُّطَيْلىّ يمدح (محمد بن الحضرمى) :

سجايا على مر الزمان كأنما　　هى المزن فيها رحمة وعَذاب

موارد فيها سـم كل معاند ولكنها للمستفيد عـذاب
مخوفتى ريب الزمان وقد حدت برحلى إلى ابن الحضرمى ركاب
إذا الله سنى لى لقاء محمـد تفتح دونى للسماحـة باب
فتى لم تسافر عنـه آمال آمل وكان لها إلا إليـه إياب
له همم فى الجود والبأس لم تزل لها فوق أثباج النجوم قباب
وأقسم لولا مالـه من مآثر لأصبح ربع المجد وهو يباب

وكان لهم - كما تقدم - ولع بتصدير مدائحهم بالغزل لحبهم له ، وكذلك كان ينزع بعضهم إلى تقديمها بحديث عن خمر أورياض ، استجلابا للسمع واستهواء للفؤاد ؛ شأنهم فى ذلك شأن كثير من شعراء المشارقة ، فمما صدر بالغزل قول التطيلى المتقدم يمدح أبا الحزم بن جهور :

غداة وقفنا نقسم الشوق بيننا على ما اشترطنا وانقضت سنة القسم
وقد أطلعت تلك الهوادج أنجما تركن جفونى فى الكرى أسوة النجم
فأبت بدمعى لؤلؤا فوق نحرها وأبت بما فى مقلتيها من السقم

وفيها يقول مادحاً :

وأنت أحق الناس بالحزم فأنه وحق العلا بالمال أشبه بالحزم
وأنت بعيد الهم مقترب الجدى كريم السجايا ماجد الخال والعم
وأخفى بألباب الرجال من الهوى وأخفى وراء الحادثات من الوهم

وكذا قول محمد بن هانى يمدح إبراهيم بن جعفر بن على :

قـد مررنا على مغانيك تلك فرأينا فيهـا مشابه منك
عارضتنا المها الخواذل أسراً بأ بأجراعها فـلم نسل عنك
لا يُرع للمهـا بدارك سرب فلقـد أشبهتك إن لم تكنك

مسعدى عج فقد رأيت معاجى يوم أبكى على الديار وتبكى
بحنين مرجع كحنينى وتشك مردد كتشكى

وفيها يقول فى مقصوده :

لأرى كان جعفر بن على ملكا لابسا جلالة ملك
تتفادى القلوب منه وجيبا فى مقام على المتوج ضنك

وقوله يمدح الأميرين طاهراً، وأبا عبد الله الحسين؛ ابنى الإمام المنصور والد المعز لدين الله - وهو من هذا النوع - من قصيدة مطلعها :

امسحوا عن ناظرى كحل السهادِ وانفضوا عن مضجعى شوك القتادِ
أو خذوا منى ما أبقيتمو لأحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محبا من هوى أو تفكون أسيرا من صفاد؟
أسلوا عنكم أهجركم! قلما يسلو عن الماء الصواد

وفيها يقول :

يا أميرى أمراء الناس من هاشم فى الرأد منها والمصاد
وسليلى ليثها المنصور فى غيلها من مرهفات وصعاد
ياشبيهيه ندى يوم ندى وجلادا صادقا يوم جلاد
إنما عودتما فى ذا الورى عادة الأنواء فى الأرض الجماد

وإليك ماقدم صاحبه : الحديث عن الخمر وذلك قول ابن عمار يمدح المعتضد بن عباد :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره وشيا وقلده نداه جوهرا

أو كالغلام زها بورد رياضه   خجلا وتاه بآسهن معــذرا
روض كأن النهر فيــه معصم   صاف أطل على رداء أخضرا
ملك يروقك خَلقــه أو خُلقه   كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته   فرأيتـه فى بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته   فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطرا بثنائه   حتى حسبنا كل ترب عنبرا

وقولُ ابن شهيد فى مطلع القصيدة التى اخترت طرفا منها أول حديثى عن المـدح . وهاك مطلعها :

أذّن الديك فثب أو ثوب   وأنضح القلب بمـاء العنب
وتأمــل آية معجـــزة   ماقرأنا مثلها فى الـكتب
ركع الإبريق من طاعته   وبكى فابتل ثوب الأكؤب

وشعراء الأندلس وإن لم يشتهروا بالإغراق فى مدحهم شهرة المشارقة إلا أن منهم من كانت مبالغاته متخطية الحدود خارجة عن المألوف تكاد تبتعد بصاحبها عن دائرة الإيمـان والتوحيد وتطل به على مهاوى الـكفر والضلال ، وابن هانئ أكثر من عرف بذلك ، وأنت منته إلى هذا الحكم إذا قرأت قوله يمدح المعز :

ماشئتَ لاما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنمـا أنت النبى محمــد   وكأنمـا أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشرنا به   فى كتبها الأحبار والأخيار

وقوله كذلك يمدحه وفيه من السرف ماترى :

وعلمتَ من مكنون سر الله ما   لم يوتِ فى الملكوت ميكائيلا

لو كنت آونة نبيا مرسلا نشرت بمبعثك القرون الأولى
أو كنت نوحا منذرا فى قومه مازادهم بدعائه تضليلا

وهم وإن أجادوا فى مديحهم وافتنوا فيه ورووا القول وأبدعوا نظمه إلا أنهم لم يكثروا منه إكثار المشارقة ولم يتهالكوا عليه تهالك أولئك، ولو التمسنا لذلك الأسباب والدواعى، لكان النعيم الشامل ورخاوة العيش ووفرة الثراء صارفا لهم عن الإكثار منه ومانعا من التمسح بالأعتاب والوقوف بأبواب الملوك وذوى الرياسة رجاء نوال أو استدرارا لمال وأمرٌ آخر لعله مثل هذا أو أشد فى صرفهم عن الإكثار من المدائح وإلزامهم جانب القصد فيها، ذلك ماكان من رغبة بعض ملوكهم عن المدائح وإعراضهم عن قائليها ـ على عكس ماكان بالمشرق من تهافت على المادحين واختصاص بهم ـ فقد روى صاحب الذخيرة فى الجزء الأول عن أبى حيان مؤرخ الأندلس المشهور مايؤيد ذلك من أن أبا عمر أحمد بن دراج القسطلى كان ممن طوحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته إلى النجعة فاستقرأ ملوكها أجمعين ـ مابين الجزيرة الخضراء وسرقسطة ـ يهز كلا بمدحه ويستعينه على نكبته وأنه لم يكن من هؤلاء من يحفظ ماضيع من حقه وأرخص من عقله ولا من يصغى إلى مديحه ويستمع إليه حتى أناخ بساحة منذر بن يحيى أمير سرقسطة فألقى بها عصا سيره عند مابوأه ورحب به وأوسع قراه.

وإذا كان القسطلى عند أهل الأندلس ـ كما يقول الثعالبى فى يتيمة الدهر ـ مثل المتنبى بالشام ومن الفحول المقدمين فيهم ويحدث له مثل هذا الإعراض عن تظن فيهم الرغبة فى المدح وشدة الإقبال على قائليه وناظمى عقوده

فمما لاشك فيه أنّ ذلك يكف ألسن كثير من الشعراء عن هذا الفنّ من الشعر ويقعد بهم عن الإكثار منه . ويباعد بينهم وبين الإسراف فيه .

٦ — الاسْتِعْطاف :

افتن هؤلاء القوم فى ذلك اللون من الشعر وأبدعوا فيه وانطلقت ألسنتهم به لما كان فى بيئتهم هناك من أسباب تدفع إليه وتحمل على إنشاده . فقد كان الشعراء حريصين على التقرّب من الخلفاء والملوك حبا فى الجاه ورغبة فى تقلد المناصب الرفيعة . كما كان الملوك ومن إليهم على جانب عظيم من هذا الحرص فى تقريب الشعراء والمبالغة فى إكرامهم ، وإنزالهم منازل الفضل والإجلال لأنهم الصحف المنشرة لتلك العصور المدافعة عن سياسة الأحزاب ومناهجها ، وألسنتها الناطقة بما تهواه والمعلنة لكل ما تريد . لما لهم من طلاقة فى الألسن وسحر فى البيان وما وهبوه من الاستماع لهم والرواية عنهم .

والشعراء إذا تعاصروا فى بيئة كهذه وكان للبعض منهم ماليس للآخر من المكانة والتقدير دب التنافس بينهم ، وفشت فى قلوبهم الضغائن والأحقاد فأثارت النفوس وأوغرت الصدور . وهنا ترى العجب من دس الدسائس ومشى السعايات . وتلفيق التهم وخرق الشائعات فيمسى الشاعر المقرب نديم الملك وسميره . وحاجبه أو وزيره . ثم يصبح وقد جفاه مليكه وباعد بينه وبين مجالسه . ونأى عنه فى مشورته ، وأبان له دخائل نفسه ، وتنكر له فى قوله وفعله وقلب له ظهر المجن .

ولا شىء يغيظ النفس أكثر مما يقذف بالرجل من عليائه بجده وساحة عزه ويجرده من نعوته وألقابه بل ربما يطوح برأسه ويودى بحياته

وهنا يغلى مرجل الشاعر فلا يقر باله ولا يهدأ خاطره ولا يغمض جفنه ولا يطمئن فؤاده حتى ينفى عن نفسه ما نسب - زورا - إليه ويبالغ فى استعطاف من تغيرت له مودته وقسا عليه قلبه ، فيرسل شعره متأثرا بتلك الحالات النفسية المعينة على إجادته . وخير الشعر ما جاءت به الحاجة وأرسلته العاطفة ،

وإنك لتلمس ذلك فيما أنشده جعفر بن محمد المصحفى حاجب المنصور بن أبى عامر يستعطفه ويستجدى رحمته ليصرف السوء عنه ويفكه من أغلال السجن وقيوده إذ يخاطبه بقوله :

هبنى أسأت . فأين العفو والكرم　　إذ قادنى نحوك الإذعان والندم
يا خير من مدت الأيدى إليه أما　　ترثى لشيخ رماه عندك القلم
بالغت فى الحط فاصفح صفح مقتدر　　إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

وكذا فيما قاله الوزير أبو بكر بن عمار - بطل هذا النوع وصاحب القصائد الكثيرة فيه - وقد بعثها إلى المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وقرطبة وكان قد سجنه ؛ وفيها من التأثير وجميل الاستعطاف وبالغ الاعتذار ما حمل صاحب المعجب أن يقول - بحق - فى التعريف عنها : « لو توصل ابن عمار بها إلى الدهر انزع عن جوره أو إلى الفلك لكف عن دوره . ولكنها كانت رقى لم تنجع ودعوات لم تسمع وتمائم لم تنفع » وهاك قوله على ما يروى صاحب المعجب :

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح　　وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية　　فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع　　عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فإن رجائى أن عندك غير ما　　يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة		يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد		أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضى		له نحو روح الله باب مفتح
وعفّ على آثار جرم سلكتها		بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم		فكل إناء بالذى فيه يرشح

وقريب من الاستعطاف ما كان يستشفع به شعراؤهم ، ذوى الوجاهة والكلمة عند السلطان ليستلوا حقده عليهم ويذهبوا موجدته وغضبه ، فمن ذلك مارواه المقرى عن أبى مروان عبدالملك بن حصين يستشفع به ابن هود الجذامى ليخلصه من سجن المأمون ابن ذى النون — وكان قد هجاه ، ثم تمكن منه المأمون فسجنه — فكتب أبو مروان هذه الأبيات إلى ابن هود ليكون نصيره عند المأمون عساه أن يطلقه من السجن ويرد إليه حريته ، فقال :

أيا راكب الوجناء بلغ تحية		أمير جذام من أسير مقيد
ولما دهتنى الحادثات ولم أجد		لها وزراً أقبلت نحوك أعتدى
ومثلك من يعدى على كل حادث		رمى بسهام للردى لم ترصد
فهلّا أن تخلو بفكرك ساعة		لتنقذنى من طول همّ مجدد
وهأنا فى بطن الثرى وهو حامل		فيسر على رقبى الشفاعة مولدى
حنانيك ألفا بعد ألف فإننى		جعلتك بعد الله أعظم مقصدى

ومنه كذلك ما رواه الفتح بن خاقان عن ابن زيدون من قوله يستشفع بأبى بكر إلى أبى الحزم بن جهور :

عليك أبا بكر بكرت بهمة		لها الخطر العالى وإن نالها حط

أبى بعد ماهيل التراب على أبى ورهطى فذاحين لم يبق لى رهط
لك النعمة الخضراء تندى ظلالها علىّ ولا جحد لدىّ ولا غمط

وفى آخره يقول مغريا لمخاطبه أن يشفع له :

وإنى لراج أن تعود كبدئها لى الشيمة الزهراء والخلق السبط
وحلم امرئ تعفى الذنوب لعفوه وتمحى الخطايا مثل ماحى الخط
فمالك لاتختصنى بشفاعة يلوح على دهرى لميسمها علط
يفى بنسيم العنبر الورد ريحها إذا شعشع المسك الأحم به خالط

هـذا الذى أثبت وغيره من شعر الاستعطاف دليل صادق على أن كثيرا من شعراء الأندلس برعوا فى هـذا النوع وأحسنوا القول فيـه وجروا إليه مسرعين مجيدين فأتوا بمـا يسنل الأضغان ويلين قاسى القلوب ويسترحم الأشداء العتاة .

وهو وإن لم يأت بالمطلوب لكثير منهم ، فليس ذلك لضعف نظمه ولا لعدم تأثيره ولكن لزيادة قسوة ومبالغة فى البطش . ورغبة فى التنكيل بمن يخطئ فى حق السلطان ؛ والسلطان إذا غضب . وخاصة على من كان مقربا إليه فقد لا يستعطفه ولا يذهب حفيظته كائن من كان ، بله قولا يعتقد أنه زخرف طمعا فى رحمة تنال أو فضل يعود على صاحبه .

٧ ـــ الاسْتنصَارُ والاسْتنِجَاد :

لم يكد ينتهى حكم الأمويين بالأندلس حتى دهمت البلاد أحداث تضطرب لها الأفكار وتعيا بها العقول ، ونزل بأهلها أزمات سياسية بالغة من الشدة منتهاها وأصابهم من الكوارث والمحن ماعاينوا منه الهلاك

والموت . واشتد النزاع بين بعضهم وبعض ، وكان كل حزب يبالغ فى إساءة الحزب الآخر . ويسعى لهدمه والقضاء عليه مستعينا فى ذلك بمن يبلغه أمنيته ويحقق له مآربه ومطامعه . وتألب عليهم الإسبانيون ـ لما رأوه من ضعف فى نفوسهم ودس وإيقاع بين الصفوف ـ فأمطروهم شواظا من نيران حروبهم وجدوا فى استرجاع بلادهم منهم وأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة . فلم يمض غير قليل حتى أجلوا العرب عن كثير من تلك البلاد ورفعوا نواقيسهم فوق مآذنها وألحقوا بهم من الوهن والوهى مالاقبل لهم به ولاقدرة لهم على دفعه .

كل أولئك أثر فى نفوس شعرائهم فحماهم على إرسال بالغ القول ومؤثر الشعر يستنصرون به من يتوسمون فيه النجدة وتلبية النداء . والغضب لما حل بالإسلام وأصاب حماه . ومانزل بأهله من الجهد ولحقهم من الأذى ويحرضونهم على ذلك مستثيرين شعورهم بتعداد المصائب التى طوقتهم وذكر ماطمس من معالم الشريعة وماتعطل من السنن . وما فعل برجالهم ونسائهم . وبنيهم وبناتهم مما يدمى القلوب ويفتت الأكباد وتذهب النفس حسرات عليـــه .

فمن ذلك ماأنشده إبراهيم بن سهل حين اشتد الحصار على إشبيلية سنة ٦٤٥ هـ مستنصرا بالعرب محرضا لهم على الإسبانيين فى أسلوب مغر على الثورة باعث على الحماسة والإقدام إذ يقول :

يامعشر العرب الذين توارثوا … شيم الحمية كابرا عن كابر
إن الإله قد اشترى أرواحكم … بيعوا . ويهنكمو ثواب المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم … وبكم تمهد فى قديم الأعصر

ثم يحكى بعد ذلك قبائح الإسبانيين معددا مافعلوا من آثام ومناكر مستعديا العرب عليهم مستصرخا بشجاعتهم وبأسهم قائلا :

كم نكروا من معلم . كم دمروا　　من معشر . كم غيروا من مشعر

كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا　　من حلية التوحيد صهوة منبر

عندالخطوب النكر يبدو فضلكم　　والنار تخبر عن ذكاء العنبر

لو صور الإسلام شخصا جاءكم　　عمدا بنفس الوامق المتحير

لو أنه نادى النصير لخصكم　　ودعا كمو : يا أسرتى يامعشرى

ومنه ما خاطب به أبوعبد الله محمد بن الأبار القضاعى . أبا زكريا بن أبى حفص المرينى (ملك المغرب) حين أخذ النصارى بمخنق جهات الأندلس وورد أبوعبدالله هذا على المغرب مستنجدا همة مليكها آملا فى نصرته متمنيا أن يرد أذى الكفار عن بلاده ويهبها السلامة من الأعداء إذ يقول موجها خطابه لأبى عبدالله :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ماالتمست　　فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانيه حُشاشتها　　فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

ياللجزيرة أضحى أهلها جزرا　　للحادثات وأمسى جدها تعسا

ثم يقول فى تعداد ماأصيبوا به :

تقاسم الروم لانالت مقاسمهم　　إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفى بلنسية منها وقرطبة　　ماينسف النفس أو ماينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما　　جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها العوادى الغانيات بها　　يستوحش الطرف منها ضعف ماأنسا

فمن دساكر كانت دونها حرسا — ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدى بيعا — وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها — مدارسا للمثانى أصبحت درسا

ويذكر كثيرا مما رزئت به البلاد وما محا العدو من محاسنها . فى أبيات رصينة وقول مؤثر . وينتهى من ذلك كله إلى مديح أبى زكريا فيبالغ ويطنب ويأتى بما يلهب نشاطه ويحرك همته ويستنفر عديده ويختم شعره هذا بقوله :

فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها — جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه — لعل يوم الأعادى قد أتى وعسى

وعلى غرار قصيدة القضاعى . ما وجهه بعضهم إلى أبى زكريا المتقدم من قصيدة مطلعها :

نادتك أندلس فلبِّ نداءها — واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها — من عاطفاتك مايقى حوباءها

وهى طويلة تُنَيِّف على الثمانين بيتا وقد أثبتها المقرى كذلك فى أواخر الجزء الثانى من نفح الطيب

ولم يقف شعراء الأندلس عند استنصار الملوك والأقوياء واستنجاد هممهم وطلب معونتهم . بل تجاوزوا ذلك إلى الاستنجاد بالأولياء والفزع إلى الصالحين والمقربين ، يتوسلون بهم إلى الله تعالى رجاء أن يصرف العدو عن بلادهم ويعيد إليها عزها ورفعتها . ومما قيل فى ذلك ما أنشده أبو عبدالله ابن الخطيب على لسان سلطانه محمد بن يوسف ابن الأحمر . مخاطبا ضريح ولى الله أبى العباس السبتى بمراكش إذ يقول :

ياولى الإله أنت جواد — وقصدنا إلى حماك المنيع

راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجي من علاك حسن الصنيع
فمددنا لك الأكف نرجّى عودة العز تحت شمل جميع
قد جعلنا وسيلة تربك الزا كى وزلفى إلى العليم السميع
كم غريب أسرى إليك فوافى برضا عاجل وخير سريع

ولجئوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وكان ذلك فى أخريات أيامهم وحين أوشكت البلاد أن تضيع من أيديهم فبعثوا إليه شكواهم يستعطفون بها جنابه ويشرحون ماألم بهم من مكروه عسى أن تكون استغاثتهم به؛ صلوات الله وسلامه عليه؛ وسيلة الظفر والنصر على الأعداء ومما أثر فى ذلك قصيدة لسان الدين بن الخطيب التى بعثها بأمر سلطانه أبى الحجاج بن يوسف بن نصر الأحمرى وأولها :

إذا فاتنى ظل الحمى ونعيمه فحسب فؤادى أن يهب نسيمه
ويقنعنى أنى به متكنف فزمزمه دمعى وجسمى حطيمه

وفيها يقول :

ألا يارسول الله ناداك ضارع على النأى محفوظ الوداد سليمه
مشوق إذا ماالليل مد رواقه تهم به تحت الظلام همومه
إذاما حديث عنك جاءت به الصّبا شجاه من الشوق الحثيث قديمه
أيجهر بالشكوى وأنت سميعها ويشرح مايخفى وأنت عليمه
وتعوزه السقيا وأنت غياثه وتتلفه الشكوى وأنت رحيمه؟
بنورك نور الله قد أشرق الهدى فأقماره وضاحة ونجومه

ويقول كذلك معتذرا عن عدم ذهابه إليه صلى الله عليه وآله وسلم وتمسحه بتربه الشريف :

عدتني بأقصى الغرب عن تربك العدى ... جلالقة الثغر الغريب وروميه
أجاهد منهم في سبيلك أمة ... هي البحر يعيي أمرها من يرومه
فلولا اعتناء منك ياملجأ الورى ... لريع حماه واستبيح حريمه
فلاتقطع الحبل الذي قدوصلته ... فجدك موفور النوال عميمه

وهي قصيدة طويلة رواها له المقري وروى غيرها كذلك :

وإن نظرة واحدة إلى ما للأندلسيين في هذا الفن لجد كافية في الحكم بتبريزهم فيه وتجويدهم له وإتيانهم بما لم تمكن الظروف غيرهم من مثله ، وقد كان لانتقاص بلادهم على مرأى منهم ومسمع وعدم استطاعتهم ردها - لقوة عدوهم وشديد بأسه - أعظم الأثر في إنشاد ذلك الشعر الحزين

والمشارقة وإن غُلبوا على بلادهم وقهروا على الخروج منها كذلك . غير أن ما مهد له حكم الفرس والترك وما أصابهم من مفاجأة العدو لهم مرة واحدة ووقوفهم أمام الأمر الواقع قد أذهب من نفوسهم كثيرا من التأثير والجزع . وبعبارة أقرب إلى الواقع قدأوجدهم في حالة عقلت ألسنتهم عن الاستغاثة والاستنجاد .

هذا إلى ما كان من رجوع بعض الغالبين على بلادهم إلى الإسلام وانضوائهم تحت لوائه الخفاق وترغيب النازحين من العلماء والأدباء في العودة إلى أوطانهم وبلادهم المحبوبة عندهم مما يعزى الأنفس ويغرى بالتصبر ويطمئن قلق القلوب وثائر الخواطر .

لذلك ولغيره كان هذا النوع في شعر الأندلسيين شائعاً مشتهراً أكثر مما كان كذلك في شعر غيرهم ، وكان له من الروعة والتأثير في النفوس الشيء الكثير .

وحسب الشعر أن يكون منبعثا من قلب منفطر وصادراً عن وجدان محزن وعاطفة متأثرة .

٨ — نَظم العُلُوم :

عكف أهل الأندلس على مختلف الفنون وأنواع العلوم وشغلوا بها حتى أجادوها جميعها ، واستلانت لهم ، ووقفوا على دقائقها وأسرارها وألفوا فى معظمها وأجادوا التأليف .

ولتمكن الشعر من نفوسهم وسرعة جريانه على ألسنتهم من غير عناء ولامشقة ، استعانوا به على معالجة أمور لم تخلق للشعر ولم يخلق لها ، تلك هى ضبط قواعد الفنون ومصطلحات العلوم ، وقد وفقوا فى هذا النوع وأكثروا منه وافتنوا فيه فأخضعوا له مسائل العلم وقضاياه . فجاءت نظما سلساً يسهل حفظه ويخف تداوله .

وما كان أحد يظن ـ ولا واضعوا الفنون أنفسهم ـ أن سيأتى يوم يوكل فيه إلى الشعر التحدث عما قعدوا من قواعد أو اشترطوا من شروط حتى كان من الأندلسيين ما لم يسبقوا إليه من التجويد فى ذلك والإبداع فيه والإكثار منه كثرة غشت على ما كان من نظم « أبان بن عبد الحميد اللاحق » للفقه وابتزت سبقه . فآمن الناس أن الشعر قادر على أن يدع الخيال ويجول فيما عداه من ميادين .

ويقولون إن أستاذ الأندلسيين فى هذا الباب يحي بن حكم الجيانى الملقب بالغزال إذ ألف التاريخ كله منظوما قبل أن يسبقه غيره إلى مثل هذا الصنيع ، ولعل منه ما رواه له المقرى من قوله :

أدركت بالمصر ملوكا أربعـه   وخامسا هـذا الذى نحن معه

وكان الغزال قد عُمر أربعا وتسعين سنة ولحق أعصار خمسـة من الخلفاء المروانيين بالأندلس أولهم الداخل وآخرهم محمدبن عبدالرحمن بن الحكم الأول(١)

وحذا حذو الغزال، أبو طالب عبد الجبار المشهور بالمتنبي. وأبو عمر أحمد بن عبد ربه فنظم الأول أرجوزة فى التاريخ. قال ابن بسام فى الذخيرة: «إنه أغرب فيها. وأعرب عن لطيف محله من الفهم ورسوخ قدمه فى مطالعة أنواع العلم، ثم ذكر أنه أثبتها مع طولها «لاشتمال فصولها على علم جليل وباع فى الخبر طويل». ونظم الثانى أرجوزتين إحداهما فى التاريخ ذكر فيها - كما يحدث عن نفسه - جميع مغازى عبدالرحمن الناصر وما فتح الله عليه فيها. وهى فى كتاب العسجدة الثانية من كتابه «العقد الفريد». والأخرى نظمها فى العروض وهى طويلة مستوفاة أثبتها فى كتاب الجوهرة الثانية من العقد كذلك

ثم تتابع العلماء من بعد هؤلاء ينظم كل فيما توفر عليه وأحاط بدقائقه فنظم الشاطبي لاميته التى اشتهرت بالشاطبية وأسماها «حرز الأمانى» جمع فيها أحكام القرآن الكريم على رواية السبعة، ونظم رائيةً خصها بأحكام الرسم، ونظم ابن مالك الكافية والخلاصة (الألفية) كلاهما فى النحو وهما غنيان عن التعريف وضمّن أبو العباس أحمد بن فرح منظومته ألقاب الحديث واشتهرت بيننا بمتن غرامى صحيح. وقد سار فيها على نسق غزلى رقيق لعله لم يسبق إليه وهاك مطلعها الذى يقول فيه مشيراً إلى أنواع الأحاديث:

(١) تولى محمد هذا بعد أبيه وظل حكمه ٣٥ عاما من سنه ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣ هجرية وجرى فى العدل على سنن أبيه وهو أول من أقام أبهة الملك ورتب رسوم المملكة وعلا عن التبذل للعامة وكان شجاعا ذكيا فطنا صاحب حروب مشهورة

غرامى صحيح والرجا فيك معضل ... وحزنى ودمعى مطلق ومسلسل
وصبرى عنكم يشهد العقل أنه ... ضعيف ومتروك وذلى أجمل
ولا حسن إلا سماع حديثكم ... مشافهة يملى علىّ فأنقل

وفيها يقول كذلك :

أقضّى زمانى فيك متصل الأسى ... ومنقطعا عما به أتوصل
وهأنا فى أكفان هجرك مدرج ... تكلفنى ما لا أطيق فأحمل
وأجريت دمعى بالدماء مدبجاً ... وما هو إلا مهجتى تتحلل
فمتفق سهدى وجفنى وعبرتى ... ومفترق صبرى وقلبى المبلبل
ومؤتلف شجوى ووجدى ولوعتى ... ومختلف حظى وما منك آمل
خذ الوجد عنى مسنداً ومعنعناً ... فغيرى موضوع الهوى يتحيل

ونظم غير من ذكرنا فى أغراض غير تلك ؛ ولأبى عبد الله لسان الدين ابن الخطيب أرجوزة فى الأصول شرحها صديقه العلامة شيخ المؤرخين عبد الرحمن بن خَلدون . وله كذلك فى التاريخ العام والخاص ؛ ولهم غير ماتقدم مقطعات فى المسائل والاصطلاحات وأمثال ذلك . كأبيات الشاطبى فى مسألة الفرائض وأبيات محمد بن عبدالرحمن الغرناطى فى أجزاء الشعب وهما وغيرهما فى نفح الطيب فارجع إليه إن أحببت .

وفى رأيى أن نظم العلوم والفنون ليس تجديدا أدبيا . ولكنه ظاهرة علمية يُعنى بها مؤرخ الأدب أكثر مما يعنى بها الأديب لذلك تحدثنا عنه هنا ؛ ولعل من المسلم به أنّ الذى أحدث هذه الظاهرة هو الانصراف إلى الأدب والتوفر على دراسة الشعر ونظمه ومزج الحركتين العلمية والأدبية بعضهما ببعض والرغبة فى أن يسبح الشعر فى كل بحر ويخوض

كل غمار ، وهذا مما يحمد للأندلسيين ويسجل لهم بمداد الفضل والتقدير

حَالُ الشّعْرِ الأَنْدَلُسيّ وَمُمَيِّزَاتُه :

راج الشعر فى الأندلس رواجا لم يعهده فى عصر من عصور الأدب جميعها واتسع مجاله بينهم وعبر عن كل ما كان هناك تحت السمع والبصر واصطبغ بصبغة الحياة الجديدة التى لم يشهدها فى عهد الجاهليين ؛ بجزيرة العرب ؛ ولا أيام بنى أمية ؛ بالشام ؛ وأثر فيه اختلاف المناظر واتساع مادة المشاهدات ومزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية ، فنظم فى الرياض والأشجار . والأمطار المنسكبة والأودية الخصبة ، وأبدع فى تصوير الآراء والمعتقدات . كما أجاد فى التحدث عن الأخلاق والعادات .

كل هذا إلى جانب حديثهم عن صفاتهم التى ورثوها من أسلافهم والافتخار بعربيتهم المحببة إليهم ؛ وفيما أثبت من شواهد فى فنونه المتنوعة التى سبق الكلام عنها أدلة صادقة وحجج واضحة وأمثلة تشهد لذلك وتؤيده ونبراس يهتدى به إلى مالم يتسع له المقام .

وسأتبع ذلك بحديث عن مميزات وخصائص اجتمعت لشعر الأندلسيين ولعله انفرد بها ولم تتيسر لسواه ، وذلك ما يأتى :

« أولا » غلبة الخيال على شعرهم فى جميع الأغراض التى سلكوها والافتنان فى أساليبه افتنانا يشهد لهم بالمهارة وطول الباع . وبتأثرهم بالطبيعة الجميلة وما كان ببلادهم من مناظر ممتعة كلها حسن وبهجة . وبانتفاعهم بما وهبوا من صفاء الخواطر واعتدال الأمزجة . وقوة العقل وجودة القريحة حتى أتوا بما لم يتح لغيرهم أن يأتى به

ومن قبل إمعانهم فى الخيال وافتنانهم فيه كثر فى شعرهم ذلك النوع البديعى المعروف بحسن التعليل وصار ميدانا يستبقون إليه ويتنافسون فى السير فى حلبته؛ ومما حفظ منه قول عبدالملك بن إدريس الجزيرى يمدح الحاجب ابن أبى عامر، وقد شاهد القمر يلمع فى السماء تارة ويخفيه السحاب أخرى. فأنشد:

أرى بدر السماء يلوح حينا فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذاك لأنه لما تبدى وأبصر وجهك استحيا وغابا

وقول بعضهم فى رمد أصاب من يهواه:

قالوا الحبيب، شكا جعلت فداءه، رمداً أضرّ بعينه كالعندم
فأجبتهم: مازال يفتك لحظه فى مهجتى حتى تلطخ بالدم

وكذا قول أبى بكر بن زهر:

وموسّدين على الأكف خدودهم قد غالهم نوم الصباح وغالنى
مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم مانالنى
والخمر تعرف كيف تأخذ ثأرها إنى أملت إناءها فأمالنى

وقول ابن فرح الجيانى فى وسيم عيب بصفرة لونه:

قالوا به صفرة عابت محاسنه فقلت ماذاك من عيب به نزلا
عيناه تطلب فى أوتار قاتله فلست تلقاه إلا خائفا وجلا

«ثانيا» سهولة الألفاظ وسلاستها. واتساق العبارات وانسجامها، ووضوح المعانى ودقتها وظهورها. والبعد عما هو بسبيل إلى كد الذهن وإعمال الفكر وعن تحميل الألفاظ مالا تطيق. لذلك كان شعرهم رقيق الديباجة خفيفا على السمع حتى فيما لم تخلق له الرقة ولم تحسن فى ثناياه،

كوصف الحروب وآلاتها . والقول فى الفخر والوعيد وما إليهما . وإنك لتستطيع أن تقرأ الكثير المستفيض منه دون أن تستعين بمعجم يوضح خفيه ويظهر غامضه . لسلامته من ذلك وبعده عنه . ولعل فى جلّ ما أثبته - فيما تقدم - شواهد على ذلك .

«ثالثا» الافتنان فى أنواع التشبيه والإكثار من الاستعارات الغريبة والكنايات اللطيفة ؛ وذلك فى شعرهم شيء لا يحصره عد ولا ينتهى إلى غاية

ومن هذا الباب إتباعهم القضية الشعرية بنظيرها من المشاهدات المسلمة تمكيناً للتشبيه فى النفس وحملا للسامع على تصديقه والإذعان إليه . كما ترى ذلك فى الأبيات التى نسبها أبو الوليد الشقندى فى رسالته إلى أبى حفص بن عمر القرطبى وهى من محاسن التشبيهات وبديعها وهاك الأبيات :

همو نظروا لواحظها فهاموا ... وتشرب لب شاربها المدام
يخاف الناس مقلتها سواها ... أيذعر قلب حامله الحسام ؟
سما طرفى إليها وهو باك ... وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قدها فأنوح وجدا ... على الأغصان تنتدب الحمام
وأعقب بينها فى الصدر غما ... إذا غربت ذُكاء أتى الظلام

«رابعا» اشتماله على ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر أن تجد مثله من غيرهم حتى فى كثير من رقيق أنواع الشعر .

ولقد بدا ذلك جليا فى شعرهم الغزلى . وأحاديثهم عن الهوى وفعله بالنفوس . والعشق وما يأتى به من ألوان الصبابة وضروب الهيام ، كما بدا كذلك فى استعطافهم وشكواهم وبكائهم الدول والملوك واستنصارهم بذوى البأس والنجدة .

«خامسا» القصد فى الصناعات اللفظية والرغبة عن الولوع بفنون البديع وعن العناية بالزخرفة وضروب المحسنات ؛ فلم يخرجوا من أجل ذلك إلى طريق وعرة وحال منتقدة ؛ ولم يتغالوا فيه تغاليا معيبا كما كان شأن كثير من الشعراء المشرقيين ، وإنك إذا افتليت شعرهم فى فنونه المتنوعة لاتجد فيه أثرا للشغف بأنواع البديع ولا تكلفا لإظهارها فيه ، وفى تلك الكثرة التى أوردتها منه ما يؤيد ذلك وينطق به

«سادسا» إدماج كثير من مصطلحات العلوم لشدة عنايتهم بها وعكوفهم عليها ، والتورية بالأسماء الاصطلاحية والألفاظ الفنية كما فى قول أبى جعفر محمد بن صفوان المالقى .

سألته الإتيان نحوى مقبلا   فقال سل نحوى كى تحصلا
قرأت باب الجمع من شوقى له   وهو بالاشتغال عنى قد سلا
للاستغاثة ابتدأت تاليا   وهو لأفعال التعدى قد تلا

إلى آخر ماروى له المقرى ، وكما فى قول ابن سهل الإسرائيلى :

رقت عوامله وأحسب رتبتى   بنيت على خفض فلن تتغيرا

وقولـــه :

تنآى وتدنو والتفاتك واحد   كالفعل يعمل ظاهرا ومقدرا

وقوله كذلك :

إذا اليأس ناجى النفس منك بلن ولا   أجابت ظنونى ربما وعسانى

«سابعا» الإلماع إلى حوادث التاريخ وماحل بالسابقين من عظات وعبر . رغبة فى الترفيه عن النفس وتخفيفا من وقع المصاب . وقد كثر ذلك فى رثائهم للدول الذاهبة وبكائهم على الملوك الذين أفل نجمهم وثلت عروشهم . ولقد كان شعرهم

فى ذلك النوع - كما تقدم - عذبا رقيقا أخاذا بالألباب مستحوذا على النفوس وصفوة القول :

أن الأندلسيين قد عنوا بشعرهم عناية فائقة وشغلوا به عن كل شيء سواه وتوفروا على مايرغبه إلى الناس ويحببه لدى السامعين . فاختاروا له أجمل الألفاظ وأرقها . وأرصن المعانى وأظهرها . متباعدين عن قضايا العلم والمنطق وعما يجلب له التعقيد ويخل بنظمه . وأتوا به فى صور جذابة مستملحة وأثواب أنيقة مستحسنة . ضاربين أروع المثل وأعلاها فى الخيالات المبتكرة والتشبيهات الدقيقة الخلابة .

ولقد كان شعرهم - على كثرته وذيوعه - خاليا من التعمق فى التصورات والآراء الفلسفية لبعد بيئتهم عن ذلك وتحاشيهم عن مزاولة علومها ؛ غير نفر قليل منهم درسوا هذا النوع من العلم وأخذوا منه حظا ، فظهرت آثار دراستهم فى شعرهم وارتسمت على صور أفكارهم ؛ ومن هؤلاء ابن حزم وابن هانئ ومحي الدين بن عربى ، وفيما أثبت من شعرهم مايؤيد ذلك ويصدقه .

التَّجْدِيدُ فى الشِّعْرِ وَالتَّحررُ منَ القَافِيَةِ :

لم يتغير الشعر منذ بداية عهده بالأندلس عما كان عليه من قبل - سواء فى ذلك أغراضه وأوزانه - حتى طغى سيل الغناء بتلك البلاد ، وأصبح لزاما على الشعراء أن يمدوا المغنين بما يتفق وأنغامهم ولا يتعارض مع تلحيناتهم . ويكون وقعه على السمع حسنا مقبولا . تسر به النفوس ، وتطرب له الأفئدة وتهتز القلوب ؛ فأخضعوا الشعر لهذه الأنغام وتلك الألحان ، وخرجوا عن التقيد بنظام القوافى الذى لم يزل مصاحبا للشعر

العربي منذ نشأته الأولى ، ليكونوا عند رغبات المغنين وطوع ألحانهم .

هذا إلى أن التزام القافية مع طول القصيدة لا يستطيعه كل ناظم ، لذلك رغب الكثيرون فى التخلص من ضيقها ، فهداهم ذوقهم الظريف إلى اختراع الموشحات استحداثا منهم لما لم يسبقوا إليه وابتكروا من أجلها أوزانا تساعدهم على ما يريدون . فحببت إلى النفوس جميعها واستظرفتها ، وتسابق الخاصة إلى نظمها وشهر بها جماعة منهم .

ثم نسجت العامة على هذا المنوال ، ينظمون بلغتهم الحضرية «العامية» من غير التزام الإعراب ولا تقيد بقواعده ، ولا وقوف عند هيئات الكلمات ونظمها الصحيحة ، فنشأ عن ذلك النوع السابق فن آخر جديد عرف باسم «الزجل»

وإنى متبع ذلك كلمة عن كل واحد من هذين الفنين الجميلين ، اللذين كان لهما بالأندلس رواج كبير .

(ا) — المُوَشَّح :

الموشح — كما يقول ابن سناء الملك فى دار الطراز — : «كلام منظوم على وزن مخصوص» ، وهو فن من الشعر أساسه الأنغام الموسيقية والألحان الغنائية ، ولمّا كانت هذه كثيرة متنوعة كانت الموشحات كذلك متباينة الطرائق مختلفة الأوزان كثيرتها ، حتى قيل : «من لم يعرف مائة وزن لا علم له بالموشح» . وسمى هذا النوع بالموشح لاشتماله على أغصان كالوِشاح[1] وهو فى معظم أحواله معرب ومنه ما لم يلتزم العربية ولم يسر على نهجها

(١) الوشاح كِرْسان «فرعان» من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، والشبه بينهما وبين الموشح مجرد الاختلاف فى شىء بعضه متصل ببعضه الآخر ، إذ يختلف فيه الوزن والقافية فى الأبيات والأقفال وجميعها فى كلام واحد

وأول من اخترعه بالأندلس - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته - « مقدم بن معافر الفريرى ، من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المروانى (١) وأخذ ذلك عنه أبو عبدالله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن عُبادة «القزاز» شاعر المعتصم بن صُمادح ملك المرية ؛ وفى ذلك يقول ابن بسام فى السفر الأول من الذخيرة : « وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ولامنظومة العقود ، فأقام عُبادة هذا منآدها ، وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ، وفى موشح عبادة الآتى ، يقول أبو بكر بن زهير : كل الوشاحين عيال على عبادة فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنَم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حُرم

ثم فشا استعمال الموشح ونما وترعرع فى ظل دولتى الملثمين والموحدين لقربه من عقولهم وملاءمته لأذواقهم ، واشتماله على شيء من اللغة العامية التى كانت أسبق إلى أفهامهم من غيرها ؛ واشتهر فى عهدهم الأديب أبو جعفر المعروف بالأعمى التطيلىّ ، ومن موشحاته ما يقول فيه :

---

(١) هو حفيد عبد الرحمن الأوسط الاموى تولى الملك بعد وفاة أخيه المنذر ابن محمد وظلت الأندلس تحت حكمه خمساً وعشرين عاما ابتدأت بسنة ٢٧٥ وانتهت سنة ٣٠٠ هجرية

كيف السبيل إلى صبرى وفى المعالمْ أشجانُ
والركب وسط الفلا بالخرّد النواعمْ قد بانوا

ومن طريف ما يروى عن أبي جعفر هذا - مما يدل على حذقه للموشحات وإجادته نظمها - أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا فى مجلس بأشبيلية وكان كل واحد منهم قد أعد موشحة وتأنق فيها وبالغ فى إحكامها وتنسيقها، فلما أنشد أبو جعفر موشحته .خرق ابن بقى ما كان قد صنع وتبعه فى ذلك الباقون، وهاك طرفا من هذه الموشحة المشهود لها:

ضاحك عن جمانْ سافر عن بدر
ضاق عنه الزمانْ وحواه صدرى

...

آه مما أجدْ شفنى ما أجدُ
قام بى وقعد باطش متئد
كلما قلت قد قال لى أين قد

...

وانثنى غصن بانْ ذا مهز نضرِ
عابثته يدان للصبا والقطر

وفيها يقول متحدثا عن مبلغ صبابته وكلفه بمن يهوى إذ ينشد:

هل إليك سبيلْ أو إلى أن أيأسا؟
ذبت إلا قليل عبرة أو نفسا
ماعسى أن أقول ساء ظنى بعسى!

...

وانقضى كل شانْ وأنا «فى خور»

خالعا من عنانْ   جزعى وصبرى

ومن اشتهر فى عهدهم كذلك يحيى بن بق - المتقدم ذكره - وله موشحات فائقة بديعة فمنها مايقول فيه :

ماردنى   لابسْ   ثوب الضنا الدارسْ   إلا   قمرْ
فى   غصن مائس   شعاعه   عاكس   ضوء البصر

وكذا أبو إسحاق الروينى وكان فى صدر دولة الموحدين ومن موشحته التى أنشدها فى مجلس ابن زهير قوله :

كحل الدجى يجرى   من مقلة الفجر   على الصباحْ
ومعصم النهر   فى حلل خضر   من البطاح

ثم تابع الشعراء ينظمون الموشحات ويجيدون صوغها ويحكمون نسجها ويفتنون فيها إدلالا ببراعة وتعريفا بفضل وإظهاراً لمهارة ومقدرة، حتى سمى جماعة منهم بالوَشّاحين كان من بينهم إبراهيم بن سهل « الإسرائيلى » صاحب الموشحة الذائعة الصيت والتى مطلعها :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنسِ
فهو فى حر وخفق مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبس

* * *

يابدوراً أشرقت يوم النوى   غرراً تسلك بى نهج الغرر
مالنفسى فى الهوى ذنب سوى   منكم الحسن ومن عينى النظر
أجتنى اللذات مكلوم الجوى   والتذاذى من حبيبى بالفكرْ

* * *

كلما أشكوه وجدا بسما   كالربا بالعارض المنبجسِ

إذ يقيم القطر فيـه مأتما   وهى من بهجتها فى عرس

وفيها يقول شارحا حاله وحال محبوبه ولعله « موسى » الذى لم يدع شعرا أنشده دون أن يهتف باسمه فيه ويناجيه بأعذب المناجاة :

كلما أشكو إليـه حرقى   غادرتنى مقلتـاه دنفـا
تركت ألحاظه من رمقى   أثر النمل على صم الصـفا
وأنا أشكره فيما بقى   لست ألحـاه على ما أتلفا

* * *

فهو عنـدى عادل إن ظلما   وعذولى نطقـه كالخرس
ليس لى فى الأمر حكم بعـدما   حل من نفسى محل النفس

ولحسن هـذه الموشحة وإعجاب الشعراء بهـا ، تصدى لمعارضتها كثيرون ، كان منهم لسان الدين بن الخطيب وهاهى ذى فاتحة موشحته

جادك الغيث إذا الغيث همى   يازمان الوصـل بالأندلس
لم يكن وصلك إلاحلما   فى الكرى أو خلسة المختلس

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى   تنقـل الخطو على مايرسم
زمرا بين فـرادى وثنى   مثلمـا يدعو الوفود الموسم
والحيا قـد جلل الروض سنى   فثغور الزهر منـه تبسم

* * *

وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما   يزدهى منـه بأبهى ملبس

* * *

فى ليال كتمت سر الهوى   بالدجى لولا شموس الغـرر

مال نجم الكأس فيهـــا وهوى   مستقيم السير ســعد الأثر
وطرُّ مافيـــه من عيب سوى   أنه مرّ كلمـــح البصـــر

* * *

حين لذ الأنس شــيئا أو كما   هجم الصبــح هجوم الحرس
غارت الشهب بنـــا أو ربما   أثرت فينـــا عيون النرجس

وكانت الموشحات فى مبدأ أمرها لا تنظم إلا للتغنى والتوقيع على آلات الموسيق ثم عالجوا بها أغراض الشعر حين جرت على ألسنتهم وخف عليهم نظمها وعذبت لديهم ، وشغف جمهرة الشعراء والأدباء بهـا فعرضوا عليها كل أولئك الأغراض المعروفة فاتسعت لها وأدّت رسالتها إليها أحسن أداء استمع إلى ابن زَمرك فى موشحته التى هنأ بها سلطانه من بنى الأحمر لإبلاله من مرض كان قد ألم به ثم عافاه الله منه ، إذ يقول :

قد أنعم الله بالشـــفاء   واستكملت راحة الإمام
فلتنطق الطير بالهنـــاء   وليضحك الزهر فى الكمام

* * *

وجوده بهجة الوجود   وبرؤه راحــة النفوسْ
قد لاح فى مرقب السعود   واستبشرت أوجه الشموس
فالدوح يومى إلى السجود   أكمامه حطت الرءوس

* * *

والزهر فى روضــة السماء   كالزهر قــد راق بابتسام
والصبح مستشــرف اللواء   والبــدر يســتقبل التمام

حتى الزهد والتصوف عالجوهما بالموشحات فجاءت فيهما سائغة خلابة رقيقة

ومما أثر فى ذلك موشحة الشيخ محي الدين بن عربى التى أولها :

سـرائر الأعيانْ لاحت على الأكوانْ للنـاظرين
والعاشق الغيران من ذاك فى حـران يبدى الأنين

* * *

يقول والوجد أضـناه والبعـد قد حيره
لما دنا البعد لم أدر من بعـد من غيره
وهيم العبـد والواحـد الفرد قد خيره

* * *

فى البوح والكتمان فى السر والإعلان فى العالمين
أما هـو الديان ياعابـد الأوثان أنت الضنين

وكذا موشحة ابن زمرك التى يقول فى خلالها مزهداً فيما سوى الله تعالى مرغباً إليه جلت قدرته :

والله ما الكون بما قد حوى إلا ظلال توهم الغافـلا
وعادة الظل إذا ما استوى تبصـره منتقلا زائـلا
إنا إلى الله عبيـد الهـوى لم نعرف الحق ولا الباطـلا

* * *

فكل من يرجو سوى الله خاب وإنما الفوز لعبـد منيب
يستقبل الرجعى بصدق المتاب ويرقب الله الشـهيد الرقيب

نظام الموشحات :

يتركب الموشح فى الكثير الغالب من ستة أقفال وخمسة أبيات . كموشح ابن سهل الذى قدمت طرفا منه وكموشح الأعمى التطيلى كذلك ، وفى الأقل

من خمسة أقفال وخمسة أبيات كالموشح الذى أوله :

سطوة الحبيبِ أحلى من جنى النحل
وعلى الكئيب أن يخضع للذل
أنا فى حروب مع الحدق النجل

* * *

ليس لى يدان بأحور فتانِ من رأى جفونه فقد أفسدت دينه

والأول يسمى التام لابتدائه بالقفل والثانى يسمى بالأقرع لابتدائه بالأبيات

والأقفال أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها وأحرف صدورها ؛ وهى تتصدر الموشحات التامة ، وتقفى بها أبياتها كما تقفى بها أبيات غير التامة كذلك ويتركب كل قفل من جزأين فصاعدا إلى عشرة أجزاء ، ولا يكون الجزء إلا مفردا وفى بعض ماأوردت شواهد لذلك

أما الأبيات فهى أجزاء مؤلفة ، مفردة أو مركبة ، واقعة بين أقفال الموشحة ، ويلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشحة فى أوزانها وعدد أجزائها لافى قوافيها ، بل يحسن أن تكون قوافى كل بيت مخالفة لقوافى البيت الآخر ؛ وأقل مايكون البيت جزءان . وذلك نادر ، والكثير من ثلاثة إلى خمسة ، والجزء قد يكون مفردا وقد يكون مركبا

والقفل الأخير فى الموشح - وهو ختامه - يسمى بالخرجة ، والشرط أن يجعل الخروج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستعارا على بعض ألسنة الناطق والصامت . أو على الأغراض المختلفة ، ولابد فى البيت الذى قبلها من قال . أو قالت . أو غنى . أو غنيت ، أو غنت ، أو نحو ذلك ، فمثال

ما كان بالقول ما أنشده لسان الدين بن الخطيب فى معارضته وهو :

ها كها ياسبط أنصار العلا   والذى إن عثر الدهر أقال

غادةً ألبسها الحسن ملا   تبهر العـــين جلاءً وصقال

عارضت لفظا ومعنى وحلى   قول من أنطقه الحب فقال

* * *

هل درى ظبي الحمى أن قدحمى   قلب صب حله عن مكنس

فهو فى حر وخفق مثلما   لعبت ريح الصـــبا بالقبس

وبما جعل على لسان الحمام قول عبادة .

إن الحمام فى أيكها تشدو

* * *

قل هل علمْ   أوهل عهدْ   أوكانْ

كالمعـتصم   والمعتضـد   ملـكان ؟

وبما جعل على لسان الغرام قول ابن بقى :

أنا وأنتـــا   إسوة هـذا الهجر

بالصبر بنتـا   عند انصداع الفجر

ومذ رحلتـا   غنى الجوى فى صدرى

* * *

سـافر حبيبى   سحر وماودعتو !   ياوحش قلبى   فى الليل إذا افتكرتو

وللخرجة شروط غير تلك . وفيها تفصيل كثير ؛ وقد تحدث عن ذلك جميعه ابن سناه الملك فى مؤلفه «دار الطراز»

ويظهر أن هذا الاشتراط وتلك التفاصيل الـكثيرة التى تحدث عنها ابن

سناه الملك لم تكن إلا فى العهود الأخيرة للموشحات وأنها لم تنشأ معها - شأن كل جديد ، ينشأ ساذجا ثم يكسبه التداول وكثرة النظر إليه أشياء لم تخلق معه إبان نشأته - لأننا لو طبقنا كل ما شرطه ابن سناه الملك على ما أثر من موشحات الأندلسيين لم نجده محققا فى جميعه .

هـــذا ، وللموشحات أقسام كثيرة من جهات مختلفة تغنى من ينفرد؟ بالحديث عنها ، وجزى الله ابن سناء الملك خيرا فقد أتى فى ذلك بما لم يدع بعده زيادة لمستزيد ، وهو يحدث عن نفسه فى مقدمة كتابه : «أنه لما لم ير أحداً صنف فى أصولها ما يكون للمتعلم مثالا يحتذى ، وسبيلا يقتفى ، جمع « فى هذه الأوراق » ما لا بد لمن يعانيها ويعنى بها من معرفته ، ولا غناء به عن تفصيله وجماته » ؛ أما أنا ، فلا أعرض لها إلا لأنها صورة جديدة من صور الشعر الأندلسى ومما اشتهر على ألسنة خاصتهم وعامتهم فى محافلهم وفى غيرها . من أجل ذلك أكتفى بما قدمت تعريفا بها وشرحا لها ، وأملى أن يكون فيه غنية لمن يحب معرفة شىء عن هذا الفن الجديد .

(ب) الزَّجَـــلُ :

والزجل وليد الموشحات وفرعها النابت من دوحتها ، وهو شعر العامة اهتدوا إليه حين كان لابد من التزام الإعراب فى غالب أحوال الموشحات ولم يتيسر للعامة السير فى هـــذه الطريق ؛ ولعل سبب تسميته بالزجل ما روى : أن ابن قزمان القرطبي ، وهو صغير بالمكتب دخل عليه صبي مثله فأجلسه إلى جانبه وتشاغل بالحديث معه عن أداء واجبه ، فلما رآه أستاذ المكتب على هذه الحال نهره وضربه فأخذ لوحه وكتب فى أعلاه :

المــلاح أولاد إمـاره والوحاش أولاد نصاره
وابن قـزمان جا يغفر ماقبـل له الشيخ غفاره

فلما اطلع الشيخ على اللوح عجب وقال له : «هجوتنا بكلام مزجول» يعنى مقطعاً يترنم به . إذ الزجل فى اللغة التطريب ورفع الصوت ، ثم بقى له هذا الاسم لأنه صار مما يلتذ ويتغنى به بين جمهرتهم .

وفى نشأة الزجل يقول ابن خلدون فى مقدمته بعد أن تكلم عن الموشحات وذكر طائفة منها :

«ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا ، واستحدثوه فناً سموه «بالزجل» ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة»

وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية ، الوزير الكاتب أبو بكر بن قُزْمان ، وهو وإن سُبق بالاختراع إلا أنه «لم تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا فى زمانه» وكان نصيبُ مخترعها الذى يدعونه «راشداً» نصيبَ مقدَّم بن مَعافر ، وأحمد بن عبد ربه من الموشحات : ذهبت موشحات هذين وأزجال الأول مع الزمن وعرف بفضل الإبداع والتنسيق من جاء بعدهم . لذا يعتبر أبو بكر هذا إمام الزجالين وأستاذ صناعتهم هذه ، وكان على عهد الملثمين ، روى المقَّرى عن لسان الدين بن الخطيب فى شأنه أنه قال : «وهذه الطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيق على الشاعر سلوكه ، وبلغ فيها أبو بكر — رحمه الله — مبلغا حجره

الله عمن سواه ، فهو آيتها المعجزة . وحجتها البالغة ، وفارسها المعلم ، والمبتدئ فيها والمتمم»

ومما حفظ عنه واستحسنه جماعة الأدباء ماأنشده وقدخرج إلى متنزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسدمن رخام يصب الماء من فيه على صفائح مدرجة من الحجر . إذ يقول :

وعريش قد قام على دكان   بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان   فى غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان   فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح   ولقى الصباح

واشتهر فى عهد ابن قزمان جماعة من الزجالين ، عدهم ابن خلدون فى مقدمته ونسب إليهم ، وجاءت من بعدهم حلبة كان سابقها عبدالله بن الحاج المعروف «بمُدْ غَلِّيس» فتتبع خطوات ابن قزمان وسار على نهجه حتى برع فى صناعة الأزجال وأجاد ماجادت به قريحته منها كقوله :

ورذاذ الودق ينزل   وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض   وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر   والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجى إلينا   ثم تستحيي وتهرب

ومن بعد هؤلاء تتابع الناس ينظمون الزجل ويتسابقون إلى قوله حتى شاع وملأ الأسماع وأتوا فيه بكل نادر حسن وغريب ظريف ، وكثرت أنواعه وأوزانه حتى قيل : «إن صاحب ألف وزن ليس بزجال»[1]

(١) هذا القول وإن كان فيه من المبالغة مافيه ، إلا أنه يدل على مبلغ ماوصلت إليه الأزجال من ذيوع وتنوع أوزان

وكان ممن اشتهر بهذا الفن فى العهود الأخيرة ابن جحدر الأشبيلى الذى فضل على الزجالين - كما يقول ابن خلدون - فى فتح منورقة بالزجل الذى أوله

من عاند التوحيد بالسيف يمحق   أنا برى ممن يعاند الحق

وكذا لسان الدين بن الخطيب ، ومن محاسن زجله قوله :

البعد عنك يابنى   أعظم مصايبى
وحين حصل لى قربك   نسيت قرايبى

ولما تم للأندلسيين ما أرادوا من الزجل نظموا بطريقته فى سائر بحور الشعر ، لكن بلغتهم العامية وسموا ما كان من هذا النوع «بالشعر الزجلى» ومما دون منه ما أنشده الأديب أبو عبد الله الآلوسى يمدح أحد ملوك بنى الأحمر ، ومطلعه :

طل الصباح قم ياندىمى نشربو   ونضحكو من بعد ما نطربو

وفيه يقول متحدثا عن ممدوحه :

من السماء يحسد فى أربع صفات   فمن يعد قلبي أو يحسبو
الشمس نور والقمر همتو   والغيث جودو والنجوم منصبو

أَثَرُ المُوَشَّحَاتِ وَالأَزْجَالِ فِى الأَدَبِ :

الموشحات أثر من آثار تلك الثورة الفكرية ، وذلك الابتكار فى صناعة الشعر الذى أحدثه الأندلسيون حين حملتهم حياتهم الجديدة على هجر القديم والتحرر منه ، وحين هبت نفوسهم إلى اختراع فن شعرى طريف يعينهم على ما يودون من إمداد النغمات الغنائية وألحان الموسيقى بما تريده من شعر يسهل توقيعه ولا يمل تكراره ، ويساعدهم على ما يبتغون من الكلام

« فى بحبوحة اللهو والطرب » ومايرغبون « من عبث بالشعر على حسب أهوائهم » وماتميل إليه نفوسهم الطروبة المرحة .

وغنى عن القول أنها ثروة للأدب لا يستهان بها ، وتراث عاد عليه بغناء ونفع عظيمين ، فقد نشرت كثيرا من المعانى الجميلة والأخيلية الراقية فى أثواب شفافة مقبولة لدى عامة الشعب وجمهرته الغالبة . وحملت الكثير من أفراده – الأميين وغيرهم – على استظهارها والتغنى بها ، وفى ذلك مافيه من خدمة الأدب والإكثار من أنصاره والعاكفين عليه .

هذا إلى أنها وسعت كثيرا من أغراض الأدب . وأمكنت من لم يستطيعوا السير مع صعوبة القوافى وضيقها ومع صعوبة مراعاة القواعد العربية وقوانينها . أن ينظموا فى هذه الأغراض ويكثروا من القول فيها ؛ كما أنها أفادت فى الناحية الاجتماعية بما صورته من محاسن وبما بثته من أخلاق فاضلة ودعت إليه من صفات ممدوحة محببة ؛ وإلى ما أظهرت من نفسيات كثيرين ممن لم يستطيعوا مساجلة الشعراء ، ومن حالهم العقلية وماكان يتنازع فى صدورهم من عوامل ورغبات ؛ ذلك أن يسرها عليهم وقدرتهم عليها دون الشعر كان حاملا لهم على التعبير بوساطتها عما يجول بخواطرهم ويضطرب فى أفئدتهم وعما تكنه صدورهم وتتناجى به وجداناتهم .

ولقد أدى أهل الأندلس واجبهم فى تلك النواحى جميعها ، وتسابقوا فى هذه الميادين وجروا فى حلباتها سراعا ، فأظهروا من بدائع أفكارهم وروائع أدبهم مانمى ثروة الأدب العربى أىّ نماء ، وحبب فيه ورغب إليه ، وزاد فى محصوله زيادة ظاهرة ملموسة ، لانزال ننتفع بها حتى اليوم

وكما كان الغناء هو العامل القوى فى إظهار الموشحات وإبرازها إلى

عالم الوجود كان له الفضل كذلك فى ترقيتها وترقيقها ، وجعلها سائغة مقبولة ، هزازة خلابة . فقد حمل إقبال المغنين عليها جمهرة الوشاحين على إدراك هذا الفخار وبلوغ ذلك الشأو . فأقبلوا من كل نفوسهم على موشحاتهم - التى يودون لها أن تكون أصواتا يتغنى بها أمام الخلفاء والملوك وألحانا يقبل عليها خاصة الشعب وعِلْيَتُه - يجودون عباراتها ويسلسون أساليبها . ويودعونها أرق المعانى فى أعذب الألفاظ ، رغبة فى التأثير فى النفوس وامتلاك الأسماع ، وحبا فى الذكر والشهرة ، ونيل الحظوة لدى أولئك الذين تنفع الحظوة لديهم ، فكان نتيجة طبيعية لذلك تجميل أسلوبها وتزيين أثوابها وتجلية معانيها ، وتهذيب واضح عاد عليها أولا وعلى الشعر تبعا بقدر من الرقى والتحسين غير قليل . إذ دبت الغيرة فى نفوس الشعراء وحملتهم غريزة المنافسة أن يزاحموا الوشاحين وأن يستبقوا معهم فى إظهار المعانى الطريفة والأخيلة النادرة . وغريب التشبيهات ومستحدثها ويعرضوا ذلك على عشاق الأدب ومحبيه . وموقعى الألحان والأصوات وكلهم ينتظر حكما يرضيه وشهادة يطمئن قلبه إليها .

هذا ، ولا يضير الموشحات ولا يذهب ببهجتها ما كان فى بعضها من ألفاظ عامية نادرة دعت إليها ضرورات الحياة وموجبات نظمها ، فإن الحكم للغالب الكثير ، وهو معرب فصيح ، أمّا غيره فنادر ، وقد يكون ما فيه من ذلك حلية له ، وإن كان يذهب نضرته لدى بعض الخاصة المتعصبين للغة القويمة

ولعل ذلك هو الذى حمل بعض القُدامى أن ينظر للموشحات كلها بعين غير العين التى ينظر بها إلى الشعر جميعه ، وأن يعدل عن تدوينها فى مؤلفاته

المحفوظة ، كما فعل المراكشي في المعجب إذ يقول ـ وهو يشير إلى أن رأى غيره كرأيه كما يتضح من عبارته ـ : «ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له (يعني ابن زهير) بعض ما بقي على خاطري من ذلك » .

وليس أثر الأزجال في الأدب بأقل شأنا من أثر الموشحات ، فإن الأزجال شعر العامة وأدب أولئك الكثيرين الذين لم يأخذوا من التعليم والعلوم نصيبا تتجلى بوساطته خطرات نفوسهم وما تنطوي عليه حنايا صدورهم ؛ وهي التي تحمل بين ثناياها ما لا يستطيع الشاعر النابه ولا الكاتب القدير أن يستطلعه من سر دفين وحال خافية ، لا يستطيع غير صاحبها على إبرازها إلى الخارج وإهدائها إلى الناس ، ولكنه هو الذي يقدر على ذلك مستعينا بهذا الفن من الشعر ، فى الزجل ، الذي كان ظهور نفسيات العامة وحالهم العقلية وآرائهم الاجتماعية وآدابهم وأخلاقهم أكثر وضوحا فيه من غيره من ألوان الأدب الأخرى .

وعلى الجملة فالآثار الأدبية التي تثبت للموشحات هي في مجموعها آثار الأزجال وغَناؤها كذلك غناؤها .

غير أني أرى أن التزام عدم الإعراب في الأزجال مضافا إلى المحافظة فيها على لغة التخاطب مما يذهب بها بذهاب تلك اللغة ويجعلها لدى الخلف مبعث الحيرة ومثار الاستغراب ؛ ذلك أن اللغة العامية ليست ذات ضوابط يرجع إليها كل أحد ولا قوانين يسار عليها في جميع العصور ولدى كل طائفة من الناس . وإنما هي خليط من لهجات الأمة التي تعيش فيها ولغات الذين يتعاونون معها على مصالح الحياة من الأمم الأخرى ، ثم هي بعد

عرضة لسهام الأيام ترميها - كما تشاء وفى أى وقت تشاء - بالنقص والزيادة والتحوير والتعديل .

من أجل ذلك يصعب على القارئ أن يتفهم بعض ألفاظ الأزجال فى كثير من المقطوعات ، ومن هنا تستغلق عليه معانى الأزجال ، وليس لديه معجم يرجع إليه فى تفهمها ولا أصل يعتمد عليه فى شرح ما يغمض من ألفاظها وتراكيبها .

ومن أجل ذلك كذلك ، نستطيع أن نقول : إن الزجل أدب موضعى مؤقت يروج بين ناظميه ومتكلمى لغتهم وفى بيئتهم ، ويظل باقياً ومؤديا كل أغراضه ما بقى هؤلاء ، ثم لا يلبث - حين تتغير لغة التخاطب وتتخذ ألفاظا غير ألفاظها وبيئة غير البيئة التى نشأت فيها - أن يضمحل ويتلاشى أو يكون أدبا أثريا يذكر على أنه صورة مما كان ، سواء أفهمت ألفاظه أم لم تفهم .

ولقد كان من حسن حظ العربية عدم تدوين قواعد أو ضوابط للّغة العامّية وعدم الاهتمام بأدبها وتاريخه ، وتبشيعُها فى أعين الخاصة واحتقارُ من يتكلم بها منهم ؛ ولو أنه دوّنت قواعدها وعُنى السابقون أن تكون لغة قراءة وكتابة . لزاحمت الفصحى وغلبتها على أمرها ، ولطغى هذا الزجل على الشعر واستأثر بالذيوع والشهرة دونه .

عوامل رقى الأدب بالأندلس

تمهيد ــ التوفر على فنون الأدب وحفظ مأثوره ــ إكرام الأدباء وإثابتهم وتقديرهم ــ قصر مراتب الدولة الرفيعة عليهم ــ شيوع النقد الأدبي والتأليف فيه ــ اتساع الحركة العلمية ــ الاحتفاظ بالعربية الفصحى والعمل على نشرها ــ حال البلاد الطبيعية والسياسية والاجتماعية .

تمهيد :

رقى الأدب رهين بتوفر عوامل مؤثرة فى إنتاجه وثروته ، وبتآخذ أسباب من شأنها أن تساعد على إمداده بما يحتاج إليه ، وأن تعين على نمائه والترويج له وتكثر من أنصاره وأتباعه وتزيد من عاشقيه والمشايعين له ، وتبلغ به الذرى العالية والمكانة السامية والمحل الأرفع .

وكلما قويت هذه الأسباب وتأكدت . قوى الأدب وذاع . وملأ الأبصار والأسماع ، وكذلك كانت الحال بالأندلس فقد وجدت بها دواع بعثت تلك النهضة الأدبية الفذة التى شغلت من صفحات تاريخ الأدب طائفة يتضاءل أمامها العد ، والتى خلقت بتأثيرها العجيب وقواها الفعالة رجالا ونساء ظهروا على مسرح الحياة الأدبيــة بأدوار مهمة ، سجلتها لهم بطون الكتب وروتها عنهم صحائف الأيام ،

وسأتحدث هنا على بعض تلك البواعث التى كانت شديدة الأثر فى نهضة الأدب بالأندلس ، واستوائه على عرش الرقى والكمال ؛ ولا يهمنى من ذلك غير عدها والتعريف عنها وذكر ما يشد أزرها وينصرها . ولن ألتفت إلى

المفاضلة أو الترتيب بينها . ولا إلى ترجيح بعضها على البعض الآخر ، فذلك مرام قد يتسرب إليه الخلط والوهن لأن بمجموعها أثر فى رقى الأدب فى وقت واحد تقريبا ، ثم هى بعد مختلفة باختلاف الأشخاص والأحوال .

وسأجمل ما أريد من ذلك فيما يأتى :

١ — التوفر على فنون الأدب وحفظ مأثوره

توفر الأندلسيون على فنون الأدب وانصرفوا إليها ، وأكثروا من حفظ مأثوره وكتبه حتى وصلوا فى ذلك إلى حد يدعو إلى الدهشة والاستغراب . بل وإلى الشك فيما روى لولا اليقين بصدق الراوين

حدث صاحب المعجب عن أستاذه أحمد بن يحيي قال : « كان أبو جعفر آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ، لزمته نحوا من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه » وروى عن ابن عبدون أنه كان يحفظ كتاب الأغانى بل إن كتاب الأغانى على كبره وسعته كان أيسر محفوظاته وأقلها وكانت العروضية مولاة المطرّف بن عبد الرحمن تحفظ كامل المبرد ، ونوادر أبى على وتشرحهما .

ولقد ساعد الأندلسيين على ذلك — إلى جانب قوة أذهانهم وصفاء أفكارهم — تشجيع ملوكهم على الحفظ بما كانوا يفرضونه من جوائز لمن يحفظ كتابا بعينه ، مما دعا إلى إقبال الناس على الحفظ رغبة فى عطايا الملوك وهباتهم وحبا فى الشهرة والفخر . وكانوا لشدة انصرافهم إلى الأدب يبعثون أبناءهم على ذلك ويحرضونهم عليه ، ويرغبونهم فى رواية

الأدب ودرسه . والإقبال على وسائله وفنونه ، حكى المقرى عن أبي القاسم ابن محمد بن المليح أنه كان يشتغل أول نشأته بالزهد وكتب التصوف فأخذ والده يرغبه عن ذلك ويحبب إليه الأدب ومخالطة أهله ومذاكرة كتبه واصطفاء أصحابه ويقول له فى شأن الزهد والتصوف : «يابنى هذا الأمر ينبغي أن يكون آخر العمر ، وأما الآن فينبغى أن تعاشر الأدباء والظرفاء وتأخذ نفسك بقول الشعر ومطالعة كتب الأدب» ومازال به حتى أسلس قياده واستمع نصح والده :

وإنك لتعجب حين تسمع من أمر انصرافهم إلى الأدب - ماروى المقرى - أن أبا عبدالله محمد بن عيسى القاضى خرج إلى جنازة بمقابر القرشيين بقرطبة وكان لأحد أصدقائه منزل قريب منها فعرض عليه النزول عنده فلبى القاضى دعوته . وبعد أن طعموا ورووا . غنت جارية رب المنزل ذلك الصوت :

طابت بطيب اثاتك الأقداح ... وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه ... نمّت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها ... فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فبلغ من إعجاب القاضى بتلك الأبيات وحبه لها أن كتبها على ظهر يده ورآه الناس يصلى على الجنازة والأبيات مكتوبة على يده .

٢ — إكرام الأدباء وإثابتهم :

وإكرام الأدباء وإثابتهم على ما تجود به قرائحهم ، وإنزالهم منازل الإجلال والتقدير وتقريبهم من مجالسهم واستماعهم إليهم ، وكتابتهم عنهم مايحسنون ، كل ذلك يدعو إلى رقى الأدب ويحبب فيه ويكثر أنصاره

وأشياعه ، ورقى الأدب رهين بحب الناس له وإقبالهم عليه .

حدث المراكشى فى معجبه عن المنصور بن أبى عامر أنه «كان محباً للعلوم مؤثراً للأدب مفرطاً فى إكرام من ينتسب إلى شىء من ذلك ويفد عليه متوسلا به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه» ولم يكن غير المنصور أقل حظاً منه فى ذلك ، فقد تواترت الروايات عن معظمهم وكلها تشهد بإكرامهم الأدباء وتقدير أدبهم ونشر أفكارهم ؛ ومما لاريب فيه أن ذلك مما يدعو إلى الإجادة والإحكام ويرتقى بالأدب وفنونه إلى حيث يشاء له عشاقه من علو المنزلة وبلوغ غاية الكمال .

وإن الحفل الذى عمل لاستقبال أبى على القالى ، ومظاهر الحفارة التى أقيمت من أجله لتحفز النفوس إلى الاتسام بسمته والعكوف على ماسمابه إلى تلك الذروة العالية والمنزلة المتمناة . فقد رووا أن الحكم بن الناصر - وكان لأبيه فى مرتبة الوزير - أمر عاملهم ابن رماحس أن يجىء مع أبى على إلى قرطبة فى وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمة لأبى على .

وكان من مظاهر ذلك الإكرام والتقدير غضهم الطرف عن هفوات ذوى الأدب واغتفارهم لهم مالا يغتفر لسواهم فإن الناصر لم ينح أبا على عن تثقيف ولده وولى عهده «الحكم» مع ارتباكه وعدم استطاعته صوغ خطبة حين وفد رسل ملك الروم عليه .

وأعجب من ذلك وأغرب مارواه المقرى عن كتاب «الأزهار المنثورة فى الأخبار المأثورة» قال : «كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد ابن أبى عامر فتى من أهل الأدب قد رقت حاله فى الطلب فتعلق بكتاب

العمل واختلف إلى الخزانة مدة حتى قلد بعض الأعمال فاستهلك كثيراً من المال فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار. فرفع خبره إلى المنصور فأمر بإحضاره، فلما مَثَل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له: يافاسق، ماالذى جرأك على مال السلطان تنتهبه، فقال: قضاءٌ غلب الرأى وفقر أفسد الأمانة، فقال المنصور: والله لأجعلنك نكالا لغيرك ليحضر كَبْل وحداد، فأحضر فكبل الفتى وقال احملوه إلى السجن وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه، فلما قام أنشأ يقول:

أوّاه أواه وكم ذا أرى ... أُكثر من تكرار أواهْ
مالامرئ حول ولاقوة ... الحول والقوة لله

فقال المنصور: ردّوه، فلما رد قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت، فقال حلوا عنه، فلما حل عنه أنشأ يقول:

أماترى عفو أبي عامر ... لابد أن تتبعه منه
كذلك الله إذا ماعفا ... عن عبده أدخله الجنه

فأمر بإطلاقه وسوغه ذلك المال وأبرأه من التبعة فيه

ومارواه الفتح فى المطمح عن أبى عبدالله محمد بن عيسى القاضى وقد ركب لبعض الأمر فى موكب حافل من أصحابه ووجوه الناس. إذ عرض لهم فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل فلما رأى القاضى هابه وهم بالانصراف فخانته رجلاه فاستند إلى حائط وأطرق، فلما قرب منه القاضى، رفع رأسه ثم أنشأ يقول:

ألا أيها القاضى الذى عم عدله ... فأضحى به فى العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة ... فلم أر فيه للشراب حدودا

فإن شئتَ أن تجلد فدونك منكبا ... صبوراً على ريب الزمان جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة ... تروح بها فى العالمين حميدا
وإن أنت تختار الحديد فإن لى ... لسانا على مرّ الزمان حديدا

فلما سمع القاضى شعره وميز أدبه ، أعرض عنه ، وترك الإنكار عليه ومضى لشأنه ، ذلك مع كونهم متمسكين بالدين ومحافظين على حدوده وتعاليمه ، ولكنه الأدب والشعر قد عفا عن هذا وأمثاله .

٣ — قَصْرُ مراتب الدولة على الأدباء :

وهناك أمر له ؛ فى ترقية الأدب والنهوض به ؛ أثره وخطره ، ذلك هو قصر مراتب الدولة الرفيعة على الأدباء واختصاصهم بها ، وإشراكهم فى مهام أمور الدولة وتسيير شئونها ، فقد كان الملوك والأمراء يصطفون الوزراء والحجاب — وهما أسمى مراتب الدولة — ممن عرفوا بالأدب وشهروا به ونالوا منه حظا وافراً ، وكان عشاق الأدب يتنافسون فى الشهرة على حسابه حتى يحوزوا ذلك الشرف ويبلغوا تلك المنزلة ، ولله درّ ابن الخطيب إذ يقول :

الطب والشعر والكتابة ... سماتنا فى بنى النجابة
هنّ ثلاث مبلغات ... مراتباً بعضها الحجابة

حتى أولئك الذين لم يحظ الأدب فى عهدهم بالذيوع ولم يكن له من عنايتهم نصيب . لم يفتهم أن يقصروا هذه المراتب على الأدباء ويملكوهم زمامها ، روى المراكشى فى معجبه : أنّ يوسف بن تاشفين وابنه من بعده . كانوا يستكتبون أدباء الأندلس ، وأنه اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب

وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار،

وإنه ليصعب عليك أن تظفر فى الأندلس بذى مرتبة عالية وصاحب حظوة وشهرة ، لم يكن الأدب جلّ بضاعته وأعظم مؤهلاته .

٤ — شيوع النقد الأدبى

ويضاف إلى هذه العوامل المؤثرة أبلغ التأثير - فى نمو الأدب ورقيه وتهذيبه وإبداعه - شيوع النقد الأدبى بالأندلس وَوَلوع كثير من أدبائها بتوجيه اللوم لمن لم يحسن ، وإسداء المديح لمن أجاد وأبدع ، من غير تهيب ولا رهبة ولا مراعاة لمنزلة أو وجاهة ؛ وقد قدمت أول الحديث عن الكتابة : مارويته عن المقرى من عدم إغفال الأندلسيين عثرات الكتاب وتساط ألسنتهم فى المحافل على من كان ناقصا منهم عن درجة الكمال والإجادة ، وجعلت ذلك سببا فى رقىّ الكتابة هناك ، وهو بالتالى عامل قوىّ من عوامل رقىّ الأدب جميعه ، وباعث حافز إلى النهوض به وتجويده وتحسين ألوانه وضروبه .

ولقد عم نور نقدهم الأدبى وأفاد الأدب أجلّ الفوائد ومنحه من الترقية مالا يستهان به ، وخاصة بعد أن دون فيه بعض أدبائهم ؛ ولعلّ من المناسب أن أشير هنا إلى اثنين من هؤلاء ، كانت لهما فى ذلك آثار بارزة (أولهما) : أبو عامر بن شُهيد . فقد أثبت له ابن بسّام - فى الذخيرة فصولا قيمة فى النقد تدلّ على سعة علمه وقوة عقله ، وجودة أدبه وحسن ابتكاره ، وتَهَدّيه إلى ماخدم الأدب ورقى فنونه وأسلس أساليبه ، ورقق مبانيه وهذب معانيه ، وفى تلك القصة الطريفة التى يرويها ابن شهيد عن

نفسه مايشير إلى مذهبه فى النقد ورأيه فى توجيه الناشئين من محبى الأدب إذ يقـــول :

جلس إلىّ يوسف الإسرائيلى - وكان أفهم تلميذ مرّ بى - وأنا أوصى رجلا عزيزاً علىّ من أهل قرطبة وأقول له :

إنّ للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخابر ؛ أفهمت؟ قال : إى والله

قلت له وللعربية إذا طُلبت ، وللفصاحة إذا التمست قوانين من الكلام من طَلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ؛ أفهمت ؟ قال : نعم ، قلت وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه ، قال : أجل ، قلت أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل :

لعمرك إنى يوم بانوا فلم أمت ... خُفاتا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ... ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها ... لناظرها غصن يُراح مَطير !؟

فقال : إى والله ، وقعت (خُفاتا) موقعاً لذيذاً ، ووضعت (رميت) و(متن الطريق) موضعاً مليحاً ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا فقلت له : أرجو أنك تنسمت شيئاً من نسيم الفهم ، فاغد علىّ بشىء تصنعه»

ثم كان من تدربه باختلافه إليه ، ماحدا بابن شهيد أن يشهد له آخر الأمر بانه «ندى تُربه وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره . وضاع عبقه» .

(والثانى) : أبو عبيد الله البكرى ، صاحب «التنبيه على أوهام أبي على فى أماليه» وفيه يقول : إنه نبه على هذه الأوهام تنبيه المنصف لا المتعسف ولا المعاند ، لأنه رأى أن من تولى مثل هذا من الرد على العلماء والإصلاح لأغلاطهم والتنبيه على أوهامهم ، لم يعدل فى كثير مما رده عليهم ، ولا أنصف فى جمل مما نسبه إليهم »

وذلك - من البكرى - يدلنا على مؤلفات دونت فى هذا الفن وتصدّ من العلماء لنقد الأدباء ومؤلفاتهم .

ومما لاريب فيه لدى الأدباء ، أن الأدب فى كل عصر يسير كما يوجهه النقاد ويرقى حيث يريدون ذلك ويعملون عليه .

٥ — اتساع الحركة العلمية :

ولن ننسى اتساع الحركة العلمية فى بلادهم وشمولها جميع الطبقات وإمدادها الراغبين فى الأدب وفنونه بكل ما يضخم مادته ويؤثر فى مأثوره ، ولقد كانوا لا يكتفون من الأديب بصوغ النظم وإنشاء النثر ، ولا يعدون من كان كذلك فى زمرة الأدباء والمقدمين ، إلا أن يجمع شتات العلوم ويلم باطراف الفنون ويناظر العارفين ويساجل المجيدين .

وكما أفاد ذلك فى نشر العلم وتوسيع محيطه ، وذيوع ألوانه وفنونه بين مختلف الأفراد والطبقات ، أثر كذلك فى أدبهم ورقاه ، وعاد عليه بغناء ونفع عظيمين ، ولا غرو فالأدب - كما يقولون - ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار إلى ثقافة عامة بدونها يقل بهاء الأدب وتذهب حلاه .

وإن مارأيناه فى مأثور أدبهم - نثره وشعره - من الإلماع بحوادث

التاريخ ومن الإشارة إلى مصطلحات الفنون وصوغ كثير من أبواب العلم ومسائله نظما يسهل تعاطيه والإلمام به، كل ذلك كان أثرا ماديا لامتزاج الحركتين ـ العلمية والأدبية ـ بعضهما ببعض وتأثير كل منهما فى الأخرى تأثيرا مجديا مفيدا .

٦ ـــ الاحتفاظ بالعربية الفصحى والعمل على نشرها .

ومما أفاد فى ذلك وأجدى، عملهم على نشر لغتهم العربية، لغة السلطان والملك، ولغة الدين والقرآن، وتعصبهم لها تعصبا حدا ببعضهم إلى تحريم التكلم بغيرها حتى على من ليسوا من أهلها ومن لا علاقة لهم بها، وجعلها لغة الوثائق الرسمية والمعاهدات السياسية مع الإسبانيين الذين لم يكونوا على علم بغير اللاتينية، وقد أدى هذا إلى عكوف كثير من هؤلاء على فنون العربية وإلمامهم بأدبها وإجادتهم صوره إجادة طغت على لغتهم وأدبهم الأصليين. وطمست معالمها وأضجرت أنصارهما؛ وإنك لتتبين ذلك جلياً فى شكوى «الفارو» أحد هؤلاء المحافظين من الإسبان الناقمين على طغيان العربية واعتكاف بنى جلدته على آدابها إذ يقول [١] :

«إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب. لا يعرفون إلا العربية وإلا كتابات العرب، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه»

ثم يتوجع فى تحسر وتلهف، ويتأوه قائلا :

«لقد نسى المسيحيون لغتهم حتى ليندر العثور بين آلاف منا على فرد يستطيع أن يحرر إلى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به. على

(١) النقل عن كتاب : نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى للأستاذ كامل كيلانى

حين ترى العدد الجمّ قادراً على الإبانة عما فى نفسه بأسلوب عربىّ خلاب وعلى حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم »

هذا التزاحم على تحصيل الأدب والولوع بعرفان فنونه وألوانه ، وتلك المنافسة بين أبناء العربية والدخلاء عليها جلبت إلى الأدب رواجا أى رواج وبلغته رفعة ورقيا وآتت أكلها هنيئا سائغا شهيا ، وأهدت إلى عشاقه ومحبيه ثمرات طيبة مباركة غذت الأرواح وأشبعت العواطف وأمتعت النفوس .

٧ — حال البلاد الطبيعية والسياسية والاجتماعية :

وكان لحال البلاد الطبيعية فى ذلك أثر جلىّ وساعد قوى ، إذ أثر فى أدبائها الكثيرين وفى إنتاجهم الخصيب : جمال البيئة وطيب الهواء ، وحسن الموقع واعتدال الفصول ، وصفاء الجو ورقة النسيم ، وكثرة المزارع ووفرة الثمرات ، وخصب التربة وازدهار الرياض ، وضحك الأزهار وشدو الأطيار ، وأمدتهم رباها وجبالها وهضابها وأنهارها ومياهها السائغة العذبة ، وسماؤها النقية اللامعة ، وأحداث الجو ومظاهر الكون كل ذلك وما إليه أفاد فيما ابتكروا من طريف الأخيلة وبديع التشبيهات وما جددوا من أساليب كانوا السابقين إليها والهادين لضروبها .

وكما أثرت الحال الطبيعية فى رقى الأدب أثرت كذلك الحال السياسية التى كانت عليها الأندلس ، وخاصة بعد عهد الأمويين إذ انتثر عقدها وتشعب ملكها وتفرقت مدنها وتعدد ملوكها ، وأصبحوا يتنافسون فى

جـذب الأدباء إليهم وجعلهم بطانتهم ومشاوَرِيهم ، فكان ذلك داعياً إلى الاحتفال بالقول وتجويده والعناية به وإبداعه والتنافس كذلك بين الأدباء تطلعا لنيل الشهرة والحظوة عن طريق الأدب .

وحضارة البلاد ونظمها ، وأحوالها الاجتماعية وقوانينها ، وما كان عليه أهلها من نعيم وترف ، وما أظلهم من بلهنية عيش ووفرة ثراء ونعومة بال . كل ذلك رقى الأدب ورققه وكان له مورداً يستقى منـــه ماشاء ومعيناً لاينضب ماؤه ولا ينقطع إمداده .

ولن يغيب عن المتحدث فى ذلك أثر ماخلعته تلك البلاد على نسائها من جمـال ساحر ، وملاحة تأخذ بالألباب ، ورشاقة وفتنـة أمدت أدباء الأندلس بمـا رقق أذواقهم وأسلس أساليبهم ونمى ثمـرات الأفكار ومخترعات العقول . وأوجدت للأدب أنصاراً كثيرين وعشاقا ذوى عدد جروا فى حلبته وتسابقوا فى مضماره وقالوا وأجادوا وأبدعوا ماشاء الله أن يبدعوا . متأثرين بلمحات العيون وبريق الثغور ، وهيف القدود وأسالة الخدود ، ومستمدين من سنا الحسن قبسا ومن أشعة الجمال نورا .

والجمـال مبعث الإجادة ووحى الإلهـام .

عناية الخلفاء والملوك بالأدب

«ا» مظاهر هذه العناية :

عُنى خلفاء الأندلس وأمراؤها بالأدب واهتموا له أعظم اهتمام . وشغل ذلك كثيرا من أوقاتهم - على نفاستها - وصرفوا له من مجهودهم قدرا كبيرا ولقد تجلت مظاهر تلك العناية الفائقة فى أمور شتى ، يقف عليها من يرجع إلى تراجم حياتهم ، وماتحدثت به كتب الأدب عنهم ؛ وإن البحث ليطول ويتشعب إذا أنا عرضت لذلك كله بالبيان ؛ والقليل منه يكفى ، من أجل ذلك سأقتصر على بعض هذه الأمور مضافا إلى مافى ثنايا الكلام مما مضى ويأتى ؛ وإليك ما أقصد إليه :

«أولا» إقبالهم على فنون الأدب - كعامة الشعب بل أكثر منهم - وانصرافهم إليها ورغبتهم فيها ، حتى عرفوا بذلك وشهروا به ؛ فهذا صاحب المعجب يحدثنا عن المظفر بن الأفطس ملك بطليوس أنه «كان أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ» وأنه «انتخب لنفسه مما جمعه من ذلك كتابا كبيرا» فى نحو مائة مجلد ؛ ويحدث كذلك عن المعتمد بن عباد أنه «كان مقتصرا من العلوم على علم الأدب ومايتعلق به وينضم إليه»

ولعمرى إن هذه العناية الجليلة لتقصر أمامها عناية أولئك الذين وقفوا أنفسهم على مزاولة الأدب والتفرغ إليه ؛ فإن مايصادف الملك من شئون دولته ومايعترضه من أزمات سياسية - داخلية أو خارجية - كفيل

أن يصرفه عن التفكير فيما سواه ، ويغتصب جميع وقته له دون غيره ؛ فإذا ماوجدناه لم يَحُل ذلك بينه وبين مراجعة الكتب والدفاتر والتفرغ لنظم الشعر وقول النثر بل وللتأليف فى فنون الأدب وجمع شوارده ونصوصه ، دل على عناية به ماأجلها وماأسماها من عناية

«ثانيا» رغبتهم أن يكون ورثة عروشهم ممن حذقوا الأدب والأخبار وألموا من ذلك بالطريف والتالد وتحدثوا فيه ودعوا إليه ، من أجل ذلك لم يألوا جهدا فى اختيار أبرع الأساتذة ونابغيهم لهم كما فعل الناصر إذ اختار أبا علىّ القالى لتثقيف ولده وولى عهده «الحكم»

ومن لطيف مايروى فى ذلك . أنّ عبدالرحمن الداخل سأل هشاما ابنه لمن هذين البيتين ؟ :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله أومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

فأخبره أنهما لامرئ القيس ثم قال : وكأنه قالهما فى الأمير أعزه الله ، فأعجب به ، ثم سأل ابنه سليمان عنهما فأجابه بقوله : لعلهما لأحد أجلاف العرب أمالى شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ؟!

قالوا : فكان ذلك إلى جانب مايسمعه عن مجلس هشام من أنه مجلس أدب وتاريخ وذكر لأمور الحرب ومواقف الأبطال ومما إليهاسببا فى عهده إليه بالملك وتوليته العرش بعده .

وليس من شك أن أقل مافى هذا النوع من العناية أن يعكف أمراء الدولة المرشحون لاعتلاء عرشها على دراسة الأدب والإحاطة بمأثوره . حتى ينالوا منه حظا عظيما، وليس من شك كذلك أن الناس لهؤلاء تبع وإلى تقليدهم مسرعون .

« ثالثا » مذاكرتهم فى مجالسهم مسائل الأدب ومباراتهم الشعراء والأدباء، واستباقهم وإياهم فى حلبات الكلام نظمه ونثره، كما كان من المعتصم ابن صُمادح ملك أَلْمَرِيَّة الذى لم تخل أيامه - كما يقول الفتح - من مناظرة ولاعمرت إلا بمذاكرة أومحاضرة، وكما كان من المعتمد وأبيه، والمنصور العامرى محامى أهل الأدب والشعر كما يسمونه؛ وفيما روى المقرى وغيره من أخبار هؤلاء فى هذا الباب، مايشفى الغلة ويقنع الطالب

« رابعا » تنافسهم فى تقريب أهل الأدب واعتبارهم ذلك من أحسن السمات وأجمل الذكريات وشغفهم باقتناء المؤلفات وجمع الكتب وابتناء دورها. وتيسير كل سبيل لعشاق الأدب ومحبيه، وسعيهم إلى مجالسه للاستفادة منها وتعظيم أمرها وأمر روادها، وقد تجلى ذلك فى حسن استماعهم إلى مايقال فيها وتدوينهم مايعجبون به ويتخيرون منه

« ب » نصيبهم من الأدب

ولعل مما يزكى الشهادة لعنايتهم بالأدب واهتمامهم بأمره، إثبات بعض ماأثر من أقوالهم، فإنها - فى الحق - أثر من آثار تلك العناية الفائقة التى نتحدث عنها.

وإن الباحث ليقف والعجب مستول على فؤاده والدهشة بادية عليه من هؤلاء الملوك العظام الذين لم تشغلهم الحروب الطاحنة والمعارك الدامية، ولم يلههم كيد العدو ولادس الموتورين الذين لايزالون يبكون ملكهم الضائع وعرشهم المغتصب. أقول لم يصرفهم ذلك ولا شبهه عن أخذهم أنفسهم بأوفر الحظوظ من الأدب وأكملها، وشغلها بالتأليف

فى صوره وألوانه ، حتى سهل ذلك عليهم فاستطاعوا أن يرسلوا فى كل مناسبة نثرا رقيقا وشعرا لطيفا .

استمع إلى عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط فى تلك المحادثة القصيرة التى دارت بينه وبين أحد مواليه ، وقد أتى ذنبا ثم أظهر تنصله منه فقال عبد الله :

« إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبئ عن باطل تنصلك ولو أقررت بذنبك واستغفرت لجرمك لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك .

فأجابه المولى : قد اشتمل الذنب علىّ وحاق الخطأ بى وإنما أنا بشر ومايقوم لى عذر .

فقال عبدالله : مهلا عليك . رويدأ بك . تقدمت لك خدمة . وتأخرت لك توبة . وما للذنب بينهما مدخل . وقد وسعك الغفران .

وإلى ما رواه الفتح عن المتوكل بن المظفر البطليوسى من رقعة بعثها لابنه العباس بعد أن اعتذر إليه من أمر ، وقد كتب فيها مايأتى :

« قبولى لتنصلك من ذنوبك موجب لجرأتك عليها ، وعودتك إليها ، واتصل بى ما كان من خروج (فلان) عنك ولم تتثبت فى أمره ولا تحققت صحيح خبره حين فرعن أهله ووطنه ، والعجلة من النقصان ، وليس يحمد قبل النضج بحران . وهو الذى أوجبه إعجابك بأمرك وانفرادك برأيك ، ومتى لم ترجع إلى ما وعدت به من نفسك وصدرت به من كتبك فأنا والله أريح نفسى من شغبك ، وإن تكن الأخرى فهو الحظ الأوفى فاختر لنفسك أى الأمرين ترى إن شاء الله تعالى »

وفيما روى المقرى من حديث المنصور ـ حين وشى بعض جلاسه بالرمادى الشاعر ـ شاهد من ذلك ، وقد أثبت بعضه فى الخطابة الاجتماعية

وهاك من شعرهم كذلك قول الناصر وهو يمثل عقيدة وخلقاً له

ما كل شيء فقدت إلا   عوضنى الله منه شيا
إنى إذا منعت خيرى   تباعد الخير من يديا
من كان لى نعمة عليه   فإنها نعمة عليا

وكذا قول المعتصم ملك المرية وهو صورة نفسية لما استولى عليه بعد تجارب أحنقته على أولئك الذين لم يرعوا لعهودهم يمينا ولم يرقبوا فى ضمائرهم إلا ولا ذمة، ولم يقدروا الصداقة ولا الإخاء . حتى برم بهم ورغب عن عشرتهم فأنشد :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم   وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب
فلم ترنى الأيام خلا تسرنى   مباديه إلا ساءنى فى العواقب
ولا قلت : أرجوه لدفع ملمة   من الدهر إلا كان إحدى المصائب

وقول الحكم المستنصر وقد ودع محبوبته

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت   وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى
فيامقلتى العبرى عليها اسكبى دما   ويا كبدى الحرى عليها تقطعى

ولن يفوتنى وأنا أتحدث عن نصيب هؤلاء الملوك من الأدب أن أقول : إنهم كانوا - إلى جانب ذلك - ذوى بصر بمواقع الكلام ونقده . وقدرة على تميز جيده من رديئه ومائله من مستقيمه ، وفى نفح الطيب وغيره من ذلك كثرة مستفيضة ، ولعل مما يكفى هنا أن أجتزئ بمثل واحد . هو مارواه المقرى عن عبدالرحمن الأوسط وقد غناه زرياب بهذين البيتين من شعر

العباس بن الأحنف (١)

قالت ظَلوم سمية الظلم   مالى رأيتك ناحل الجسم ؟
يامن رمى قلبي فأقصده   أنت العليم بموضع السهم

فقال عبدالرحمن : هذان البيتان منقطعان ، فلو كان بينهما مايوصلهما لكان أبدع ، فصنع عبيدالله بن فرناس هذاالبيت الآتى ليكون بين هذين الاثنين . فقال بديها

فأجبتها والدمع منحدر   مثل الجمان وَهَى من النظم

فاستحسنه عبدالرحمن وسرّ به وأمر له بجائزة .

لاأستطيع بعد الذى قدمت فى هذاالباب وغيره إلا أن اعترف أن أمراء الأندلس وملوكها كانوا أكثرالملوك عناية بالأدب وخدمة له ، وتعلقابه وحبافيه ، وأنهم كانوا أدباءوذوى لسن وفصحاءأولى بيان قدمنحهم الله ذلاقة الألسن وطلاقتها ووهبهم المنطق العذب والقول الأخاذ . وأقدرهم على التعبير عما يريدون بنثر بديع وشعر رقيق دل - بحق - على تمكن الأدب من نفوسهم - لفرط عنايتهم به وانصرافهم إليه - وبلوغهم منه مراتب عجز دون الوصول إليها كثير من ملوك المشارقة بل وممن تفرغوا للأدب وتوفروا على درسه

---

(١) نسب المقرى البيتين لأبى العتاهية ولكن الصواب ماروينامن نسبتهما للعباس

مجالس العلم والأدب

راجت مجالس العلم والأدب فى الأندلس رواجا كان الخلفاء أصحاب الفضل فيه وأكثر الداعين إليه ، لسنهم تلك الشرعة وتشجيعهم الناس على الاجتماع لذلك ، ومدارسة مسائل العلم والأدب ، وبحث نثره ونقد شعره . واشتراكهم معهم فى كل ذلك لإلمامهم بفنونه ومعرفتهم دقائقه

وقد كانت هذه المجالس محل وفادة أدباء الأندلس وعلمائها ، لعرض ثمرات أفكارهم ، وإلقاء ماتجود به قرائحهم ، وكل واحد من هؤلاء يرجو أن يكون السبق له والغلبة على سواه ، لذلك لايفتأ يهذب ماتهتدى إليه من مسائل العلم ، وينمق مايصنع من شعر أونثر ، ويتخير لذلك أرق الألفاظ وأسلس العبارات . حذرا من العيون التى ترقبه والألسن التى يخشى نقدها وخوفا من تَفَوّق غيره عليه وظفره بالتبريز دونه ، فيأتى فيما يريد أن يعرضه على أهل تلك المحافل بما يحسن مرآه ويستحب سمعه ويُرغب فى تدوينه وروايته .

ومما نقلته الكتب من هذه المجالس . مجلس المنصور بن أبى عامر الذى كان يعقده كل أسبوع للمناظرة بين العلماء والأدباء . قال صاحب المعجب «وكان للمنصور مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ماكان مقيما بقرطبة» وقد نقل المقرى فى نفح الطيب كثيراً مماكان يدور فى هذا المجلس، وإليك فاسمع هذه القصة الآتية شاهداً لما كانت تحويه هذه المجالس من تنافس وماكان يحدث بين حضورها ورغبة كل أن يكون علمها الفرد ، وواحدها المشار إليه ، ولو أدى ذلك إلى الاختلاق على مناظره

والتحقير من شأنه ، وما استتبع هذا من استحضار ذهن وإحسان بديهة وإجادة قول .

حكى المقرى فى أثناء حديثه عن صاعد البغدادى قال : « ومن أعجب ما جرى له أنه كان بين يدى المنصور فأحضرت إليه وردة فى غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلا :

أتتك أبا عامر وردة　　يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر　　فغطت بأكمامها رأسها

فسر بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضرا فحسده ، وجرى إلى مناقضته وقال لابن أبى عامر : هذان البيتان لغيره وقد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر وهما عندى على ظهر كتاب بخطه . فقال له المنصور أرنيه . فخرج ابن العريف وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن بدر وكان أحسن أهل زمانه بديهة فوصف له ما جرى فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتى صاعد :

غدوت إلى قصر عباسة　　وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها وهى فى خدرها　　وقد صرع السكر أناسها
فقالت : « أسار على هجعة ؟　　فقلت : بلى ، فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة　　يحاكى لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر　　فغطت بأكمامها رأسها
وقالت : خف الله لا تفضحن　　فى ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة　　وما خنت ناسى ولا ناسها

فطار ابن العريف وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى ومداد أشقر

ودخل بها على المنصور فلما رآها اشتد غيظه وقال للحاضرين : غداً أمتحنه فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ، ولم يبق فى موضع لى عليه سلطان ؛ فلما أصبح وجّه إليه فأحضر وأحضر جميع الندماء ، فدخل بهم إلى مجلس محفل قد أعد فيه طبقاً عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ، ووضع على السقائف لعب من ياسمين فى شكل الجوارى وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلئ مثل الحصباء وفى البركة حية تسبح فلما دخل صاعد ورأى الطبق ، قال له المنصور : إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا وإما أن تشقى بالضد عنا لأنه قد زعم قوم أن كل ماتأتى به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة وهذا طبق ماتوهمت أنه حضر بين يدى ملك قبلى شكله ، فصفه بجميع مافيه ، فقال صاعد بديهة :

أبا عامر هل غير جدواك واكف ؟ ... وهل غير من عاداك فى الأرض خائف ؟
يسوق إليك الدهر كل غريبة ... وأعجب مايلقاه عندك واصف
وشائع نَور صاغها هامر الحيا ... على حافتيها عبقر ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت ... عليها بأنواع الملاهى الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنسا ... تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب منها أنهن نواظر ... إلى بركة ضمت إليها الطرائف
حصاها اللآلى ، سابح فى عبابها ... من الرقش مشئوم الثعابين زاحف
ترى ماتراه الحسن فى جنباتها ... من الوحش حتى بينهن السلاحف

فاستغربت له يومئذ تلك البديهة فى مثل ذلك الموضع وكتبها المنصور بخطه وكان إلى ناحية من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوار تجذف بمجاذيف من ذهب ، لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أحسنت إلا أنك

أغفلت ذكر المركب والجارية فقال للوقت :

وأعجب منها غادة فى سفينة ... مكللة تصبو إليها الهواتف
إذا راعها موج من الماء تتقى ... بسُكّانها ماأنذرته العواصف
متى كانت الحسناء رُبان مركب ... تَصَرّف فى يمنى يديه المجاذف !
ولم تر عينى فى البلاد حديقة ... تنقلها فى الراحتين الوصائف
ولاغرو إن ساقت معاليك روضة ... وشتها أزاهير الربا والزخارف
فأنت امرؤ لورمت نقل مُتالع ... ورَضْوَى ذَرَتْهامن سطاك نواسف
إذا رمت قولا أوطلبت بديهة ... فكلنى له إنى لمجدك واصف

فأمر له بألف دينار ومائة ثوب ورتب له فى كل شهر ثلاثين دينارا وألحقه بالندماء .

وكذلك كان للمعتضد أبى عمر عباد بن محمد (والد المعتمد بن عباد) دار جعلها خاصة بالشعراء ، وكان يجلس إليهم ويستمع منهم فى يوم لايدخل فيه عليه غيرهم - وربما كان يوم الاثنين من كل أسبوع - ومن طريف مايروى أن ابن جاخ الصباغ ورد على المعتضد فى أحد أيام مجالسه هذه فدخل الدار المخصوصة بالشعراء ، فلما هموا أن يمنعوه قال إنى شاعر فطلبوا منه أن ينشدهم من شعره مايصدق دعواه فقال

إنى قصدت إليك ياعباد ... قصد القليق بالجرى للوادى

فضحكوا منه واستهزءوا به ، فلما أقبل المعتضد مؤذنا بانعقاد المجلس أجمعوا رأيهم على تقديم ابن جاخ حتى يظهر افتضاحه ويبين عجزه فيؤمر به بعيدا عنهم ويبرءوا من وصمته ، ثم استأذنوا المعتضد أن يسمح لابن جاخ بالكلام قبل سواه فأجابهم إلى مرادهم ، فصعد ابن جاخ المنبر ولكنه ألقى

قصيدة لم تخطر ببالهم ، افتتحها بقوله .

قطعت يايوم النوى أكبادى　　وحرمت عن عينى لذيذ رقادى
وتركتنى أرعى النجوم مسهدا　　والنار تضرم فى صميم فؤادى
فكأنما آلى الظلام ألية :　　لاينجلى إلا إلى ميعاد

وفيها يقول :

ولرب خَرْق قد قطعت نياطه　　والليل يرفل فى ثياب حداد
بشملّة حَرْف كأن زَميلها　　سرح الرياح وكل برق غادى
والنجم يحدوها وقد ناديتها　　ياناقتى عوجى على عباد
ملك إذا ماأضرمت نار الوغى　　وتلاقت الأجناد بالأجناد
فترى الجسوم بلا رءوس تنثنى　　وترى الرءوس لَقًى بلا أجساد
ياأيها الملك المؤمل والذى　　قدمًا سما شرفا على الأنداد
إنّ القريض لكاسد فى أرضنا　　وله هنا سوق بغير كساد
فجلبت من شعرى إليك قوافيا　　يفنى الزمان وذكرها متمادى
من شاعر لم يضطلع أدبا ولا　　خطت يداه صحيفة بمداد

فقال له المعتضد : أنت ابن جاخ ؟ قال نعم. فقال اجلس فقد وليتك رياسة الشعراء، وأحسن إليه ولم يأذن لأحد بعده أن يقول فى ذلك اليوم شيئا

واقتفى المعتمد ابن عباد أثر والده فى هذه المجالس وكان يتباحث مع جلسائه فى مأثور الأدب ومن ذلك نقده بيت المتنبي الذى زعم أنه أمير شعره وهو قوله

أزورهم وسواد الليل يشفع لى　　وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

قال للحضور : ما قصر فى مقابلة كل لفظة بضدها ، إلاأن فيه نقدا خفيفا

ففكّروا فيه، فلما فكروا قالوا له: ماوقفنا على شيء فقال: الليل لايطابق إلا بالنهار ولا يطابق بالصبح، لأن الليل كلى والصبح جزئى، فتعجبوا من ذلك وأثنوا على تدقيق انتقاده؛ وهكذا لم يدع المعتمد مجلسا يضم بين جوانبه عشاق الأدب ومجيدى الكلام إلا تباحث معهم فى هذه الشئون وتبارى وإياهم فى النظم أو الإجازة وبطون الكتب التى تحدثت عن أدب الأندلس وتاريخه ملأى بالشواهد على ذلك. ولقد كان نتيجة لعمله هذا أن كثر إقبال العلماء والأدباء عليه والتزامهم أبوابه حتى قيل عنه: «إنه اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس».

ومما تحسن الإشارة إليه أنّ ملوك الأندلس هم أصحاب الفضل فى مناصرة ذلك النوع من مجالس العلم المسمى «المجامع العلمية» والسمو بها إلى ما يحقق فائدتها ويديم نفعها، فقد أنشأ الحكم مجمعا فى قصر مروان يلتقى فيه الجهابذة وذوو الدراية ليخرجوا لأمتهم ما ليس فى استطاعة سواهم؛ وقلد كثير من الأمراء الحكم فى هذه البدعة الحسنة فأنشئوا لهم مجامع تبحث المعمى من المسائل وتهذب الملتوى من فروع العلوم حتى جاء أحمد بن سعيد النصرى فأنشأ فى طليطلة مجمعا علميا دعا إليه الأعضاء من طليطلة وما جاورها فانتظم بين جدرانه أربعين عالما، كانوا يعقدون اجتماعاتهم ثلاثة أشهر من العام مبتدئين عملهم بتلاوة آى الذكر الحكيم ثم يأخذون فى تفسير ذلك مستطردين إلى البحث فى نواح شتى من العلم والحكمة».

ولا يفوتنى فى النهاية أن أقول: إن مما هو من قبيل مجالس العلم والأدب

عندهم. تحين كثير منهم الفرص كلماضمهم محفل أونظمهم جمع مستبقين إلى بحث مسائل علمية أوأدبية أو إنشاد شعر أو قول نثر يصفون به ما يدور فى تلك المجالس وما يرون فيها.

ودونك نفح الطيب فاقرأ فيه ما شئت من أدلة ذلك وشواهده.

مجالس الغناء والطرب

ورث عرب الأندلس من سكانها الأصليين الشغف بالموسيقى ، إذ كان لها شأن عظيم بالكنائس وبيوت العبادة ، فنقلوها إلى قصور الملوك والأمراء، ومنها انتشرت وذاعت بين الخاصة والعامة . وجرت فى سبيل الرقى والتقدم شوطاً بعيداً .

أما الغناء فالعرب بطبيعتهم ميالون إليه واستعدادهم له أعظم من استعداد غيرهم ، لما عرف فيهم من رقة الطباع ولطف الأذواق وصفاء الخواطر، لذلك كانوا على جانب منه ورثوه سكان الأندلس كفاء ماورثوا عنهم من الموسيقى وآلاتها ثم اتسعت فيه معارفهم وافتنوا فى نغماته وألحانه ، وخاصة بعد أن وفد عليهم زرياب المغنى فنشر من غنائه وفنه ماصادف أرضاً خصبة ونفوسا مستعدة فنمى وازدهر وترعرعت أوراقه وتفتحت أزاهيره ومنح الأدب حللا قشيبة ومعانى جديدة وثروة طيبة [1]

(١) أنظر إلى قول بعضهم يستدعى عود غناء وقد بعث به إلى أحد معارفه « انتظم من إخوانك ـ أعزك الله ـ عقدشرب يتسابقون فى ودك ويعاطون ريحانة شكرك وحمدك ، وما منهم إلا شره المسامع إلى رنة حمامة ناد ، لاحمامة

وكان للسعة ورفه العيش الذى أحاط بالأندلسيين وشمل خاصتهم وعامتهم أكبر الأثر فوق ذلك فى جنوحهم إلى اللهو واللعب ، وعكوفهم على اللذات ومتع النفس وإقبالهم على الغناء وميلهم إلى الموسيقى ، وعقدهم لذلك المجالس والمقامات . يقبلون عليها فى أوقات راحتهم وساعات صفوهم لاستماع أطيب النغمات وأعذب الألحان ممن برعوا فى ذلك وانصرفوا إليه وتوفروا على إجادته وإتقانه .

ولم يكن الغناء بالأندلس مقصورا على فئة اتخذته حرفة ورضيته صناعة بل برع فيه غير تلك الفئة جمع من الخاصة وعِلْيَة الرجال ، اشتهر منهم عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ، وحيد عصره فى الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق ..... وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو واللعب والفكاهة والطرب ، وهو أعلم أهل زمانه بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعة اللحون ، وكثيرا مايقول المعانى اللطيفة فى

بطن واد والطول لك فى صلتنا بجماد ناطق قد استعار من بنان لسانا وصار لضمير صاحبه ترجمانا .

وإلى ما كتبه أبو عامر بن ينق إلى هند جارية محمد بن عبدالله بن مسلمة الشاطبى يدعوها إلى مجلسه لتشنف سمعهم بعودها وصوتها ، وكانت أديبة شاعرة لها صوت حسن وعلم بالموسيقى ، قال :

يا هند هل لك فى زيارة فتية ... نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا ... نغمات عودك فى الثقيل الأول

وما كان أظرفها وأرق أدبها إذ أجابته فى ظهر رقعته بهذين البيتين :

ياسيداً حاز العلا عن سادة ... شم الانوف من الطراز الاول
حسبى من الإسراع نحوك أننى ... كنت الجواب مع الرسول المقبل

الأبيات الحسنة ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة ، اختراعا منه وحذقا ، وكانت له فى ذلك قريحة وطبع ،

وكذا أبو بكر محمد بن باجة المعروف بابن الصائغ السرقسطى ، كان معروفا بالأدب والفلسفة والطب والموسيق ، مجيدا للضرب على العود ملحنا بارعا ، وإليه تنسب أكثر الألحان التى يتغنى بها فى الأندلس .

وكان للمغنين على اختلاف منازلهم شأن رفيع فى مجالس الخلفاء والأمراء ونصيب وافر من نوالهم وعطاياهم ، ولقد بلغ من حب الأمراء لهذا النوع من التسلى أن كانوا يستصفون من الجوارى من تكون عارفة بضروب الغناء بارعة فى توقيع الألحان ويبحثون عن صاحبة هذه المميزات فى بلاد عرفت بذلك ليجلبوها إلى مملكتهم ، لتكون زينة المجالس ومتعة الأسماع ومن هؤلاء «فَضْل» و «علَم» اللتان جلبتا إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل وكان يؤثرهما لجودة غنائهما ونصاعة ظرفهما وأدبهما ، ومنهن كذلك «قمر» جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى صاحب أشبيلية وكانت تقول الشعر وتلحنه ثم تغنيه ، ومما أثرعنها من ذلك قولها فى مدح مولاها :

ماقى المغارب من كريم يرتجى   إلا حليف الجود إبراهيم
إنى حللت لديه منزل نعمة   كل المنازل ماعداه ذميم

وكانت هذه المجالس فى بداية أمرها بريئة ساذجة لا يقصد بها غير الترويح عن النفس وقضاء فترات الراحة فى سرور وابتهاج ، فلم يخالطها إذ ذاك شراب ولا سكر ، لأن الخلفاء ومن إليهم كانوا على جانب من الدين عظيم ، لايجهرون بمعصية ولا يفاخرون بمحرم حتى لقد وجد منهم من أراد قطع أشجار العنب وإبعادها عن بلاد الأندلس توغلا فى

استئصال جرثومة الخمر و كراهية لوجود أصلها بين سمعه وبصره ولم يثنه عن عزيمته إلا إخباره بإمكان اعتصاره من غيرها واتخاذه من سواها .

ثم صارت لاتخلو بعد من الشراب بل كان الشراب عمادها وقوام أمرها لاستهتار من خلفوا الأمويين وتحدثهم عن الخمر وشربهم لها وعدم زجرهم مادحيها والمرغبين إليها .

ولعل ذلك كان فى مبدأ الأمر سرا وبمنأى عن العيون والأنظار كما يهدى إليه قول أبى بكر بن عبد العزيز

نديمى ، لاعدمتك من نديم　　　أدرها فى دجى الليـل البهيم
فخير الأنس أنس تحت ستر　　　يصان عن السفيه أو الحليم

ثم أصبحت شائعة فى مجالسهم مشتهرة فى نواديهم ، ورأينا من يدعى أنها مذهبة للهم مجلبة للفرح ويطلب السقيا منها بكؤوس مترعة عائبا على من لم يلب نداءها ولم يستجب لداعيها إذ يقول فى غير حياء ولا احتشام :

فعاطنى الراح إن تاركها　　　من سورة الهم غير منتعش
واسقنى بالكبار مترعة　　　فهن أروى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجل　　　دعاه داعى الصبا فلم يطش

بل رأينا ابن عباد ـ أعظم ملوك الطوائف ـ يتغنى فى ساقيها ويصفه بقوله

لله ساق مهفهف غنج　　　قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته　　　فى جامد الماء ذائب الذهب

ورأيناه يدعو أبا محمد المصرى إلى مجلس من هذه المجالس فى غير تورع عن إخباره بمعاقرة بنت الدنان مادحا لها محببا فيها ، إذ يكتب له رقعة بها هذه الأبيات :

أيها الصاحب الذى فارقت عينى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الراحة والسمع والغنا والغناء
نتعاطى التى تسمى من اللذْذَة والرقة الهوى والهواء
فأته تلف راحة ومحيا قد أعدا لك الحيا والحياء

تلك كانت حال مجالس الغناء وحال روادها من علية القوم وجمهرتهم .

ومما هو شبيه بهذه المجالس وإن شئت فأعطه اسم مجالس الطرب أو الأنس ، تلك المحافل التى كان يعقدها الرؤساء مع خاصتهم والمقربين إليهم ، يشربون ويطربون . ويغنون ويرقصون ، لايحتشم أحدهم من صاحبه ولايتورع عن فعل مالا يستساغ من مثله كأنما أبيح له فى تلك اللحظة كل محظور ورفع عنه كل حرج

وإليك شاهدا لذلك ماروى صاحب نفح الطيب من أن المنصور عزم أن ينفرد يوما من أيام البرد لايخرج فيه للناس ، فأمر بإحضار من جرى رسمه من الندماء والوزراء ، وأحضر ابن شهيد فى مِحَفَّة لنقرس كان يعتاده فأخذوا فى شأنهم فمرلهم يوم لم يشهدوا مثله ووقت لم يعهدوا نظيره ، وطما الطرب وسمابهم حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عباس ، فجعل يرقص وهو متوكئ عليه ويرتجل ويومى إلى المنصور ، وقدغلبه السكر ،

هاك شيخا قاده السكر لكا قام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفردا نقرس أخنى عليه فاتكا
من وزير فيهم رقاصة قام للسكر يناغى ملكا

أنا لو كنت كما تعرفني قمت إجلالا على رأسي لكا
قهقه الإبريق مني ضاحكا ورأى رعشة رجلي فبكى

ومن لطيف ما يروى أنه كان بالمجلس رجل بغدادي يعرف بالفكيك ، وهو من أصحاب ابن شهيد أحضره معه مجلس المنصور ، وكان الفكيك هذا حسن النادرة سريعها فلما رأى ابن شهيد يرقص قائما غير مبال بألم المرض الذي كان يمنعه الحركة قال له : لله درك ياوزير ، ترقص بالقائمة وتصلى بالقاعدة ، فضحك المنصور لذلك وأعجب به وأمر له وللحضور بهبات وعطايا سنية .

هذا ، وقد أثرت مجالس الغناء والطرب هذه في أدب الأندلسيين كما أثرت سابقتها كذلك ، وعادت على ذلك النوع الغنائي من الشعر - شعر الغزل - بمزايا طيبة . إذهذبته ورققته ، وحملت أصحابه ومنشئيه على التسابق في اختيار الألفاظ العذبة المستملحة والعبارات السلسة المستساغة كي يسهل تلحينها وغناؤها ، ويستجاد توقيعها واستماعها ، وعادت بذلك نفسه على ما غنى به من غير شعر الغزل ، كالمدح ووصف القصور والحدائق ومجالس الشراب وما إلى ذلك بما دعت إليه حال المعيشة هناك ، وأوحت به إلى نفوس الشعراء حياتهم الاجتماعية ، وأملاه عليهم رغد العيش وجمال البلاد

ولن يغيب عن البال أن هذه المجالس وذاك الغناء كان الباعث الفذ على ابتكار ذلك النوع الجديد من الشعر ، الذي عرف بعد بالموشحات

صورة من أدب النساء بالأندلس

النساء فى كل العصور ذوات أثرة يملن بطبعهن إلى استلاب مااختص به الرجال ويحببن التدخل فى كل شيء والاشتراك فيه ، لذلك تجد آثارهن على جيد الزمان واضحة جلية ، فى كل ناحية من نواحى الحياة وكل غرض من أغراضها ، ففى الدين لهن آثار وآراء وفى السياسة منهن زعيمات وقائدات وفى العلم برعت مفكرات ومخترعات .

وليس من غرضى أن أقف بك مع من أتحدث عنهن فى مَيْدان من هذه الميادين ولكنى أتجاوزها إلى مضمار الأدب ، ذلك المضمار الفسيح الجميل المحبب إلى النفوس وبما يزيد فى روعته وجماله ، أن ترى المستبقات فيه من الجنس اللطيف ، وأن تشاهد فى حلبته قيثارات الشعر تلعب بها أيادى غوان حسان يوقعن عليها من شعرهن مايستهوى النفوس ويسحر العقول ويستميل العواطف .

نعم كانت المرأة فى الأندلس على خير مايحب لها أنصارها العقلاء أن تكون ، كانت أديبة ماهرة وشاعرة مجيدة وكاتبة محسنة توصلت بإحسانها أن تكتب للخلفاء والأمراء فى شئون الدولة ومطالب المملكة ، وتقتعد أماكن الوزراء - على مالها من سمو ورفعة - ومن هؤلاء «مُزينة» كاتبة عبدالرحمن الناصر وصاحبة سره و «فاطمة» و «لُبْنَى» كاتبتى ابنه الحكم المستنصر ولهن من الشعر والأدب وحسن المعرفة ورشاقة اللفظ وسماحته حظ عظيم .

وكانت كذلك عالمة بفنون الأدب ووسائله ذات خبرة واضطلاع بمسائل

العلوم معقولها ومنقولها ، فهذه العروضية مولاة أبي المطرف بن عبد الرحمن الكاتب أخذت عن مولاها النحو واللغة فبذته فيما أخذت عنه ، ثم برعت في العروض واشتهرت به ، ولعل تسميتها بالعروضية ترجع إلى ذلك . ومما حكى عنها أنها كانت تحفظ كامل المبرد ونوادر أبي على وتشرحهما ، وقد حدث سليمان بن نجاح عن نفسه : أنه قرأ عليها الكتابين وأخذ عنها العروض

وهذه مريم بنة يعقوب الأنصارى كانت أديبة شاعرة مشهورة واحترفت التدريس لبنات جنسها فيما أجادته من فنون الأدب فكان لها فيه شهرة ذائعة وذكرنا به ؛ ومما يؤثر عنها أن المهدى أحد أمراء بنى أمية بعث إليها ماتستعين به على زمانها وكتب لها أبياتا منها :

يافذة الظرف فى هذا الزمان ويا وحيدة العصر فى الإخلاص والعمل
أشبهت مريما العذراء فى ورع وفقت خنساء فى الأشعار والمثل

فأرسلت إليه تمدحه وتشكره بهذه الأبيات التى تنم عن حسن معرفة وجودة إحكام ومتانة صوغ إذ تقول :

من ذا يجاريك فى قول وفى عمل وقد بدرت إلى فضل ولم تسل ؟
مالى بشكر الذى نظمت فى عنق من اللآلى وماأوليت من قبل
حليتنى بحلى أصبحت زاهية بها على كل أنثى من حلى عطل
لله أخلاقك الغر التى سقيت ماء الفرات فرقت رقة الغزل
أشبهت مروان من غارت بدائعه وأنجدت وغدت من أحسن المثل

وروى صاحب المقتبس عن عائشة بنت أحمد القرطبية أنه لم يكن فى زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة ، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ومن شعرها

ما ارتجلته وقد دخلت على المظفر بن المنصور العامرى وبين يديه ابن له فقالت تسره وترجو لابنه حسن المستقبل :

فسوف تراه بدرا فى سماء من العليا كواكبه الجنود
فأنتم آل عامر خير آل زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم لدى رأى كشيخ وشيخكم لدى حرب وليد

وفى نفح الطيب والذخيرة وغيرهما كثرة من أخبار ولّادة بنت المستكفى بالله الخليفة الأموى ، تلك التى كانت نجما لمع فى سماء الأدب بالأندلس فاستضاء به جمع وافر من الأدباء والأديبات ، واهتدوا بسيره ونوره .

وقد كانت شهرتها بالأدب ذائعة ، ومشاركتها لأهله لاتنقطع ، حتى كان مجلسها بقرطبة - كما قيل - منتدى الأدباء والشعراء ، ومعرض بنات الأفكار من شعر ونثر ونادرة ظريفة وملحة مستعذبة ، حدث عنها صاحب المغرب قال : إنها فى الغرب كعلية فى الشرق ، إلا أنّ هذه تزيد بمزية الحسن الفائق ، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة فى الغناء» . وقد تخرج على يدها فى الأدب بعض نساء الأندلس ومنهنّ مهجة القرطبية ، وليس بخاف على أحد ماكان بين ولّادة وابن زيدون من حب وغرام ولا ماأرسل كل منهما من شعر غزلى رقيق كان العشق مبعثه وحرارة الوجد مثاره .

والرُّمَيْكِيَّة وابنتها بثينة ، عالجا الأدب فبرعا فيه وعرفا فى حابته ، حكى المقرى فى حديثه عن بثينة قال : «وكانت بثينة هذه نحوا من أمها فى الجمال والنادرة ونظم الشعر» ويذكرون أن أدب الرميكية وحس بديهتها فيه كان السبب الفذ فى اختيار المعتمد زواجها من نفسه وقد كانت قبل من

الغاسلات فى قصره .

وإليك فاسمع شهادة من أبى محمد بن حزم يستخلص منها مايستخلص مما قدمنا من معرفة النساء للأدب وبراعتهن فيه ، وإجادتهن لضروبه وألوانه ، فقد حدث عن نفسه قال: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى ربيت فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ؛ ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب أوحين تبقل وجهى وهن علمننى القرآن وروينى كثيرا من الأشعار ودربننى فى الخط» .

إلى هنا ، ولنا وقفة قصيرة نستعرض فيها صورا أخرى من مأثور أدبهن وماجادت به تلك القرائح الصافية والألسنة القوالة تضم إلى تلك النقول التى أوردنا ، زيادة فى البرهنة على حذق كثيرات من نساء الأندلس لفنون الأدب وتجويدهن لها ومزاحمتهن الرجال فيه ، وأنهن لم يقفن جامدات مبهوتات ، وقد رأين تيار الأدب شديداً وإقبال الرجال عليه بالغا حده .

وقد كنت أحب أن أورد من ذلك نثراً وشعراً ، ولكننى أجدنى مضطرا إلى الاقتصار على إيراد الشعر دون غيره ، لا لأنى لم أجد لهن نثراً يروقنى ، معاذالله أن تكون تلك الألسنة المثقفة التى وهبت ذلك الشعر الرقيق العذب غير محسنة للنثر وهو أقرب مسلكا وأيسر منالا ، ولكن لأنى لم أرفيما اطلعت عليه من الكتب نثراً دون عنهن ويظهر أنها اكتفت بإثبات الشعر تسجيلا لبراعتهن وتعريفاً بنبوغهن ، ولأن صدوره أغرب وحذقه أدعى إلى حذق غيره وإجادته ، وقد أشرت فيما قدمت إلى أن منهن من تولت كتابة الرسائل لحاكم البلاد العام وتحلت بذلك الاسم .

هذا إلى أن النفس نزاعة إلى حفظه أكثر من النثر لألفاظه الغنائية ومعانيه الوجدانية وذلك هو السبب فى قلة المأثور من النثر - بالنسبة إلى قرينه - فى عصور الأدب جميعها

ومن أحسن ما يعرض على السمع من ذلك الشعر النسائى الخلاب، قول أم العلاء بنت يوسف الحجارية :

كل مايصدر منكم حسن وبعلياكم تحلى الزمن
تعطف العين على منظركم وبذكراكم تلذ الأذن
من يعش دونكم فى عمره فهو فى نيل الأمانى يغبن

وكذا قول حفصة بنت الحاج الركونية ، وهو يمثل غيرة المحب على حبيبه من كل شيء ومن لا شيء :

أغار عليك من عينى رقيب ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنى خبأتك فى عيونى إلى يوم القيامة ما كفانى

وقولها كذلك :

سلوا البارق الخفاق والليل ساكن أظل بأحبابى يذكرنى وهنا
لعمرى لقد أهدى لقلبى خفقة وأمطرنى منهلّ عارضه الجفنا

ومن ذلك شعر أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ملك المرية فى فتى جميل من العامة - من أهل دانية - يعرف بالسمار عشقته وكلفت به وخلعت عذارها فيه وخرجت على تقاليد الملك ونظام الأسر الشريفة ، وهى فى شعرها هذا تعترف بسطوة الحب ، ومبلغ تمكنه من قلبها إذ تقول فى ألفاظ غنائية ظريفة :

يا معشر الناس ألا فاعجبوا مما جنته لوعة الحب

لولاه لم ينزل بـدر الدجى من أفقه العلوى للترب
حسبى بمن أهواه لو أنه فارقنى ، طاوعه قلبى

وكذلك شعر زينب المرية الذى تدعى فيه أن صبابتها بمن تهواه فوق صبابات الناس جميعا، وأنها قانعة بما يرضيه ، مسرعة إلى ما يدخل عليه السرور ويستبق صداقته . استمع اليها تنشد :

يا أيها الراكب الغادى مطيته عرج أنبئك عن بعض الذى أجد
ماعالج الناس من وجد تضمنهم إلا ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبى رضاه وأنى فى مسرته ووده آخر الأيام أجتهد

واستمع كذلك إلى حمدة أو حمدونة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب إذ تنشدك فى النسيب أبياتا عذبة الألفاظ رقيقة الأسلوب فتقول :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقلّ حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيك وأدمعى ومن نَفَسى بالسيف والسيل والنار

ومن قولها وقد خرجت إلى «وادى آش» مع رفقة للرياضة فلما نضت عنها ثيابها وسبحت فى النهر جرى لسانها بهذه الأبيات :

أباح الدمع أسرارى بِوادى له فى الحسن آثار بَوادى
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يرف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة أنس سبت لبى وقد ملكت فؤادى
لها لحظ ترقده لأمر وهـذا الأمر يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

وإليك من شعر وَلّادة ما بعثته لابن زيدون تتشوق إليه وتشكو حالها وتتمنى لقاءه إذ تقول :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرّق   سبيل فيشكو كل صب بما لقى ؟!
وقد كنت أوقات التزور فى الشتا   أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت فى حال قطعه   لقد عجل المكروه ما كنت أتقى
تمرّ الليالى لا أرى البين ينقضى   ولا الصبر من رق التشوق معتق

ومما نطرف به هنا : أن متعة جارية زرياب المغنى التى أهداها لعبد الرحمن ابن الحكم حظيت عنده وأولع بها وبلغ حبها شغاف قلبه فأبدى لها رغبته أن تخفى أمر ذلك الحب وتكتم خبره فأبت - لما تعلم من منزلتها لديه ومكانتها فى نفسه - إلا إعلانه للناس بهذه الأبيات التى نظمتها وصنعت فيها لحنا غنته به فاشتهر أمرها وعلم الناس خفى خبرها ، وإليك ذلك اللحن الذى تقول فيه :

يا من يغطى هواه   من ذا يغطى النهارا !
قد كنت أملك قلبى   حتى علقت فطارا
ياويلتا أتراه   كان لى أو مستعارا ؟
يا بأبى قرشى   خلعت فيه العذارا

هذا ، ولعل فى ذلك كله ما يشعر بما كان للنساء هناك من منزلة فى الأدب قصر كثير من الرجال عن درك غايتها ، ولعل فيه ما يدل على مبلغ ما كان له هناك من ذيوع وشهرة . فالنساء إذا اشتركن فى شىء كان الرواج والإقبال حليفيه .

لمحة عن الحياة العلمية بالأندلس

إجمال وتفصيل ـ الحياة العلمية فى ظل حكام الأندلس ـ العناية بمعاهد التعليم ـ إهتمامهم بفروع العلوم المختلفة ـ فرض الجوائز للنابهين ـ قبول الطلبة على اختلاف نحلهم فى مدارسهم ـ تخرج كثير من رجال الأوربيين على أيدى علماء الاندلس ـ إعترافهم بفضل الأندلسيين وشهادتهم لهم ـ العناية بالكتب ودورها ـ بذل الجهد فى سبيل تملكها ـ الاعتداء عليها وتحريقها ـ الترجمة والتأليف .

لم تشتهر الأندلس قبل غلبة العرب عليها بكثير من أنواع العلوم ولم يؤثر عن أبنائها فى ذلك العهد صنوف العرفان ، وكل ماورووه عنها - على مايحدث به صاعد فى طبقات الأمم - أنه كان بها طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة منها . وقع الإجماع على أنها من عمل ملوك رومة إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم وتابعة لدولتهم .

ولم تزل غير مشتهرة بالعلم حتى دخلها العرب فنقلوا إليها بلاغتهم ولغتهم وهما كل ما كان فى طوقهم إبان افتتاحهم تلك البلاد ؛ ومنذ ذلك العهد ابتدأ نور المعرفة الصحيحة يشع فى جنباتها وضوء العلم النافع يلمع فى سمائها ، غير أن العصر الأول من حكم العرب المعروف « بعصر الولاة » لم يكن عصر هدوء واستقرار ، لاشتغالهم أول أمرهم بالغزو والجهاد وسهرهم على تثبيت أقدامهم فى تلك الولايات الجديدة ، وانصرافهم فى آخره إلى المنافسة على الرياسة ومحاربة بعضهم لبعض ، مما أدى إلى كثرة المناوشات والفتن فى داخل البلاد

هـذا إلى أنه فى تلك الفترة لم يكن التأليف فى الفنون العربية قد نضج ولم تستقر علومها فى بطون الـكتب لتبحث وتستنبط منها فروعها المتنوعة

فلم نر فى ذلك العصر - لما قدمنا - علوما نظرت ولا ثقافة نشرت

ولما آل أمر الأندلس إلى البطل المقدام صقر قريش [1] عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة المروانية هناك وهدأت بفضله الأحوال واستقرت له الأمور، وسكنت الفتن وأمحت الاضطرابات، أحب أن يبنى دولته على دعائم متينة وأسس قوية، فلم ير دعامات ولا أسسا تضارع فى قوتها ومتانتها العلوم والمعارف، فوطد العزم على أن يرفع دولته عليها وجد فى التنفيذ فابتنى من أجل هذا المدارس العامة بقرطبة كما ابتنى مسجدها العظيم وجعله مورداً عذباً تستق منه العلوم والمعارف وتُهرَع إليه الطلبة لترتوى من معينه الصافى المرىء، على أيدى علماء أجلاء، حبب إليهم الداخل سكنى الأندلس ورغبهم فى الهجرة إليها بما بذل من عطايا ورفع من درجات.

ثم حذا أبناء الداخل وأحفاده من بعده حذوه فى هذه الناحية الجديرة بالعناية والاهتمام، فأكثروا من إنشاء المساجد والمدارس ليتاق فيها أهل

---

(١) خلع هذه التسمية على الداخل، أبو جعفر المنصور العباسى، وحديث ذلك على مانقله غير واحد من الكاتبين: أن المنصور سأل أصحابه يوما فقال: من صقر قريش؟ قالوا أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء. قال ماصنعتم شيئا. قالوا فمعاوية قال ولا هذا، قالوا فعبد الملك بن مروان قال لا، قالوا فمن ياأمير المؤمنين؟ قال عبدالرحمن بن معاوية الذى تخلص بكيده عن سن الأسنة وظباة السيوف، يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلدا أعجميا فمصر الأمصار وجند الأجناد وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه - وعبد الملك ببيعة تقدمت له، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته؛ وعبدالرحمن منفرداً بنفسه مؤيدا برأيه مستصحبا لعزمه.

بمكتبتهم الجديدة علوم الفقه الإسلامى إلى جانب علوم اللغة العربية ، وكان لكل منهم فى ترقية الحال العلمية أسلوب خاص ومنهج جديد ، ولم يمض غير قليل من الزمن حتى عم التعليم معظم طبقات الشعب الأندلسى وتحدث عن ذلك أحد المؤرخين الغربيين بقوله : « إن التعليم يكاد يكون عاما بين جميع طبقات العرب بالأندلس فى حين أن الطبقة العليا بأوربا كانت من الأمية بمكان »

ورأى الحكم المستنصر أن الفقراء عاجزون عن تثقيف أبنائهم أو مواصلة السير بهم فى طريق التهذيب العلمى لعدم استطاعتهم الإنفاق عليهم . وعدم قدرتهم على القيام بما يستدعيه التعليم من نفقات . فدفعته تلك الرغبة الأكيدة فى نشر العلم ليعم الأفراد ويشمل الجميع . إلى افتتاح سبع وعشرين مدرسة فى قرطبة يتلقى فيها أبناء الفقراء واليتامى فروع العلم ومختلف الفنون وأمدهم بما لم يجهدوا معه بشىء لا تحتمله حالهم المادية الضعيفة

على هذا النحو سار الحكم مقتفيا آثار سلفه ، وعمل من جاء بعده بسياسته التعليمية الحكيمة حتى انتهت دولة المروانيين ، وجاء زمن ملوك الطوائف وقد استنارت الأذهان ونضجت العقول وازدهرت العلوم الدينية واللسانية وتركزت الفنون ووجدت أنصارا يعكفون عليها ويبحثون فروعها فازدادت الثقافة العلمية انتشارا وشع ضوء تلك المعارف وتضوع أريجها وقوى ذلك جميعه وأعان عليه ، تنافس الملوك فى تقريب العلماء وإكرامهم وإبلاغ ذوى المعرفة والدراية مراتب الفضل والإجلال ، وشمل هؤلاء وأولئك العطف وحسن التقدير فاندفعوا يبحثون ويستنبطون ، ممتلئة

نفوسهم ثقة بحسن المصير ومكافأة الجميل .

ثم خلف ملوك الطوائف ومن سبقهم خلْف من البربر صادروا العلماء فى كثير من عقائدهم وحرياتهم واضطهدوا جماعة منهم لاشتغالهم بمسائل لم يرضوا عنها، معتقدين – لقلة حظهم منها – أنها خطر على الدين وخروج على تقاليده ونظمه .

وكادت شمس هذه النهضة المباركة تتوارى وريحها تركد لولا أن أدركها الله بالموحدين الذين أباحوا للعلماء ما حرم المأثمون ، فانتعشت الحال العلمية وأقبل العلماء على ما كان قد حيل بينهم وبينه ؛ غير أن ذلك لم يدم طويلا حتى أصبح المشجعون معرقلين ، بل أساءوا إلى بعض العلماء الأجلاء وبالغوا فى إيذائهم والحط من كرامتهم (١)

ثم ورث بنو الأحمر الملك أو اغتصبوه آخر الأمر ، فأعادوا للعلوم نضارتها وللآداب زاهر عهدها ورفعتها . كما أعادوا للدولة مجدها السالف وعزها القديم، وجددوا المعاهد الدارسة وافتتحوا المدارس المغلقة ، وأجزلوا للعلماء المنح والعطايا ، فأقبلوا محوطين بعنايتهم وتشجيعهم على العلوم يبحثون فروعها ويظهرون أسرارها ، وعكف الشعب على أساتذته يتلقى عنهم ويفيد من بحوثهم ، ويدوّن نتائج الأفكار وثمار العقول .

ولم تزل الحال كذلك حتى اختلفت بينهم الأهواء وتقسمتهم الأغراض

---

(١) بعد أن رفع الموحدون اقدار كثير من العلماء كالفيلسوف ابن رشد وأبي جعفر الذهبي وأبي عبد الله بن إبراهيم الأصولى وأنزلوهم منازل تليق بعلمهم وفضلهم رجعوا فحكموا عليهم بالزندقة والمروق من الدين على ملأ من الناس فى المسجد الجامع ثم أُمر بنفيهم والتفريق بينهم وإحراق كتبهم وما ماثلها .

وتنازعتهم الضغائن وفرقتهم الأحقاد. فضاع الملك من أيديهم واندك صرح المملكة الإسلامية بأوربة والحياة العلمية والأدبية ماتزال مسرعة التقدم ضاربة فى ذلك أروع المثل وأعلاها.

تلك كلمة مجملة ؛ لعل من تفصيلها أن نقول : إن الأندلس أيام خضوعها للحكم الإسلامى وقيام العرب على شئونها ، كانت مثابة الطلاب النجباء من أنحاء المعمورة . وكعبة العلوم والمعارف يحج إليها كل من حدثته نفسه بتذوق ثمار علومها الناضجة للاغتراف من بحارها الفياضة العذبة ولم يك هناك فن من فنون العلوم المختلفة إلا كان له بها حظ ولكثير من أبنائها به ذكر وشهرة.

نعم كان بها مدارس تُعَلِّم فيها تعلم الهندسة والحساب ، والفلك والكيمياء والطبيعيات والفلسفة، وأنواع الصناعات المختلفة والفنون الجميلة ، كل أولئك إلى جانب فروع الدين الإسلامى واللغة العربية على كثرتها وتعددها ، وكان للطب بها أربع كليات إحداها بأشبيلية والأخرى بمُرْسيَة والثالثة بطليطلة ورابعتها بقرطبة التى كان بها كثرة من المساجد العظيمة أوْصلها بعضهم إلى نيف وستمائة كلها كانت معاهد لتدريس العلوم وتثقيف النشء ولعل ذلك لم تتيسر أسبابه لمدينة أخرى من بلاد العرب أو غيرها .

ونحن لانزال نقرأ إلى اليوم أن كثيرا من علماء المسلمين الأعلام وأئمتهم المبرزين ومؤلفيهم ذوى البراعة فى التأليف والهمة العالية فيه ، هم من المتخرجين فى مدارس الأندلس وأبناء معاهدها العلمية المشهورة ؛ ولولا خشية الإطالة لأتيت بكثير من رسالة العلامة ابن حزم التى أورد فيها جمهرة من علماء الأندلس ذاكرا مالهم من آثار طيبة ومؤلفات قيمة

مفاخرا بهم المشرقيين مثبتا للأندلسيين الشهرة والعلو والتبريز فى كل ماطرقوه وعالجوا أبحاثه ، منتهيا من ذلك إلى قوله قبيل ختامها :

«وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء . فقد ذكرنا من تآليف أهله ماإن طلب مثلها بفارس والأهواز، وديار مضر وديار ربيعة ، والشام واليمن ، أعوز وجود ذلك على قرب المسافة فى هذه البلاد من العراق التى هى دار هجرة الفهم وذويه ، ومراد المعارف وأربابها »

وكم رجال من اليهود والمسيحيين تلقوا بجامعات الأندلس المعارف وتثقفوا بين جدرانها بفضل سماحة العرب والإسلام ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذين تغذوا بلبان العلوم العربية وتخرجوا على أيدى علمائها : « ليون الثمين » أحدملوك إسبانيا و « جربرت » الذى أصبح — بعد إتمام دراسته على الأساتذة الأندلسيين — بابا رومة باسم « سلفستر الثانى »

وإلى جانب ذلك ، كان ملوك أوربة يستقدمون أطباء الأندلس وخبراءها الفنيين للاستعانة بإرشاداتهم وتجاربهم والعمل بما يرونه ويشيرون به . كما نستدعى نحن اليوم خبراء الأوربيين مع ما هناك من فروق بين خبراء الأندلس واليوم .

والأندلسيون — على ماترويه الكتب عنهم — هم الذين أنشئوا جامعتى « سالبرت » بإيطاليا و «مونبلييه» بجنوب فرنسا ، وإليهم ينسب أول مرصد فلكى بأوربة ، ذلك الذى أقاموه بمدينة اشبيلية من بلاد الأندلس، ولهم من الفضل فى هذه الناحية العلمية مايشهد به المسيو « لاجير دومستيم » فى خطبته التى ألقاها بمؤتمر المستشرقين الذى عقد بمرسيليا سنة ١٨٧٦ بعد الميلاد إذ يقول ماترجمته :

«أما العرب فقد تركوا فى البلاد التى احتلوها أثرا لايزالون يذكرون به إلى الآن، لأنهم لم يقتصروا على إدارة شئون هذه البلاد التى وضعوا يدهم عليها مثل «ناربون» و «بروفانس» وغيرهما، بل قاموا بعمارتها فى وقت كانت فيه دولتهم قائمة على أساس متين من الحضارة والمدنية، ولقد كان شانسوا «شانجة» أميرليون يذهب إلى بلادهم لاستشارة أطبائهم بالذات، كما أن الراهب جربيرا تعلم فى مدارسهم قبل أن ينتخب لكرسى البابوية باسم سلفستر الثانى، وكذلك بطرس فنزايل وقسيس كولونى تعلما فى مدارس قرطبة؛ وإلى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف أسماء المؤلفين اليونانيين إلا من طريق ترجمة كتبهم فى إسبانيا الإسلامية، وقد أخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة وأساليب الزراعة، وتعلمنا منهم حفر الترع والخلجان ونظام الرى، وأخذنا منهم حاصلات الشرق من الحبوب والأشجار والنباتات التى زاولوا زراعتها فى الأندلس وعالجوها حتى صارت صالحة للزراعة فى أوربا» (١)

وإذا شهد ذلك بمبلغ ما وصل إليه عرب الأندلس فى العلوم وبكون دولتهم منبع المعارف ومحط رحال راغبى الثقافة والتهذيب، فإنه يدل كذلك على مبلغ ما كان لهم من حضارة عظيمة ومدنية زاهرة، تتضاءل أمام سموها وكبريائها كثير من المدنيات الحالية التى يفاخر بها أصحابها.

ولم يقصر خلفاء الأندلس وملوكها عنايتهم على مدارس العلم وجامعاته والإنفاق عليها بسعة وبذخ بل توجهوا إلى النابغين والإخصائيين فى فروعه وألوانه فنشروا مؤلفاتهم على نفقاتهم الخاصة اعترافا بالمجهود

(١) نقلا من كتاب «رحلة الأندلس» لمحمد لبيب البتنونى بك

وتقديرا لأصحابه ، وأمدوهم فوق ذلك بجزيل العطايا وكريم الهبات وبما حرك نفوسهم إلى الازدياد مما هم عليه وحبب سواهم فى الحصول على هذه الأوسمة الفخرية المشرفة .

ولقد زاد الحياة العلمية نشاطا وقوة ، ورغب الناس فيها على اختلاف مشاربهم وأغراضهم ، كثرة المؤلفات العلمية وانتشارها ، وعناية الخلفاء بدور الكتب وبذلهم فى سبيل إنشائها وتعميم منافعها كل مرتخص وغال حتى أصبح بالأندلس أكثر من ستين مكتبة عامة مفتحة الأبواب للرواد والراغبين فى توسيع دائرة الاطلاع والمعارف ، وكان أشهر هذه المكاتب مكتبه قرطبة التى عُنى بها الحكم المستنصر أجلّ عناية فجعل لها عيونا فى جميع البلاد شرقها وغربها يستطلعون الكتب النادرة والمؤلفات الحديثة ويشترونها بأعلى الأثمان ويبعثونها إلى مكتبته حتى جمع لديه من ذلك الشيء الكثير وأصبحت دار كتبه تحتوى على أربعمائة ألف مجلد من قيم الكتب ونادرها ، ورتب لها الخدم والمغيرين تحت إمرة مولاه « تليد الخصى » وجعل أخاه « عبدالعزيز » مديرا لها ومحافظا عليها .

وسرت الرغبة فى جمع الكتب من الخاصة إلى العامة ومن الرجال إلى النساء (١) فاقتنوا كثيرا منها وتنافسوا فى الحصول عليها وأقبلوا على نقلها وشرائها ؛ إذ كانت أنفس ما يدخر عندهم وأحسن ما يفتخر به

(١) روى المؤرخون عن « فاطمة » كاتبة الحكم المستنصر أنه كان لها مكتبة عظيمة جمعت بين جوانبها أجل الكتب وأنفسها ، وكذلك رووا عن « بثينة » بنت المعتمد بن عباد ، وكانت تنزل إلى سوق الكتب متنكرة فتشترى ماتشاء وتنازع الراغبين فى نادر المؤلفات حتى تغلبهم أو يغلبونها

ويتشرف بذكره ، وكاد يكون فى بيت كل ثرى مكتبة خاصة يفسح المجال فيها لمن يشاء من معارفه وأصدقائه

وكانت بقرطبة سوق خاصة يسمونها « سوق الكتب » يختلف إليها عشاقها المتنافسون من رجال ونساء وتحمـل إليها نوادر الكتب من أمهات المدن لتعرض هناك على أنظار هؤلاء الذين لا يبالون بما ينفقون فى سبيل تملكها

ولطالما أجزل ملوك الأندلس الصلات لمؤلفيهم ومؤلفى المشارقة كذلك حتى يذكروا فى مقدمات تآليفهم : أنهم ألفوها برسم خزائنهم ومن أجلهم ؛ ومن طريف مايروى فى ذلك مااتفق عليه ابن حزم والشقندى فى رسالتيهما : من أن أباغالب اللغوى حين ألف كتابه فى اللغة بعث إليه أبو الجيش مجاهد العامرى ملك « دانية » ألف دينار ومطية وكسوة على أن يجعل الكتاب باسمه ويزيد فى ترجمته : « أنه مما ألفه أبو غالب لأبى الجيش مجاهد العامرى » فلم يقبل ذلك أبو غالب وأقسم لو بذل له الدنيا على ذلك ماقبل ولا استجاز الكذب ، وقال : « كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى ، أجعل فيه اسم غيرى وأصرف الفخر له ! لا أفعل ذلك » ورد الدنانير إلى صاحبها ، فلما بلغ ذلك مجاهدا استحسن أنفته وهمته وضاعف له العطاء

وكانت هذه الكتب التى وجد منها بالأندلس ما لم يوجد بغيرها من الأقطار سببا فى انتشار شمس المعارف بأوربة وإخراجها من ظلمات الجهل والشك إلى نور العلم واليقين إذ أقبل الكثيرون من الأندلسيين وغيرهم من تلامذة مدارسها على ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية كما ترجموا

كتب اليونان إلى العربية كذلك فاستفادوا بما حوته هذه الكتب جميعها من معارف وعلوم ، ومن هنا انتشرت مدنية المسلمين وعلومهم فى الممالك الغربية جميعها، فاقتبسوا منها واستنبطوا من فروعها مايفاخروننا به اليوم ونحن وإياهم فى ذلك كما يقول الشاعر:

كالبحر يمطره السحاب وماله   فضـل عليـه لأنه من مائه

ولقد يؤيد ذلك ويؤكده ما ورد فى صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية فى هذا المعنى إذ تقول ما ترجمته :

« إنا لمدينون للعرب كثيراً ولو قال غيرنا خلاف ذلك ؛ فإنهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديما بمدنيتها حديثا ، وبنجاحهم وسمو همتهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف واستفاقوا من نومهم العميق فى الأعصار المظلمة ، ونحن لهم مدينون أيضا بترقية العلوم الطبيعية والفنون الصادقة النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت أوربا علما ومدنية ».

ولولا ما أصاب هذه الكتب النفيسة من الاعتـداءات والتحريق ، والبعثرة والتمزيق لكانت حال البلاد الأوربية وبلاد الشرق كذلك غير ما هى عليه اليوم ، ولاستطاع الكثيرون أن يعلموا - علما لا يتطرق إليه شك أواحتمال - كيف كانت الحال العلمية بالأندلس، فى تلك العصور التى كانت مظلمة فى معظم ممالك المعمورة .

على أن ماسلم من هذه الحملات المنكرة أكبر شاهد لبلوغ الثقافة العلميـة هناك ذروة مجدها وأوج عزها ؛ حدث المؤرخون أن العامة فى أواخر حكم الأمويين وفى زمن المرابطين والموحدين ، اعتدوا على كثير من

كتب المنطق والفلسفة مبررين عملهم هذا بأن فيها ما يخالف قواعد الدين ويتعارض وأحكام الشريعة ، وحدثوا أيضا أن الأسبانيين بعد استيلائهم على الأندلس اشتطوا فى القضاء على آثار العرب بها وحرقوا لذلك من الكتب ماقد يتردد السامع كثيراً فى تصديقه ، وخاصة فى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه مطابع ولا آلات كاتبة تساعد على التوسع فى ذلك والإكثار منه ؛ وقد جاء فى المجلد الثالث من المقتطف مايشهد بأن الأسبانيين حرقوا بأمر « كردينالهم شيمنر » ثمانين ألف كتاب بلغت مجلداتها على ما أحصاه المؤرخ « ربلس » ألف ألف وخمسة آلاف مجلد خطها كلها أقلام العرب وألفها علماؤهم ، وأنهم صادروا ثلاث سفن كانت مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وقاصدة ديار سلطان مراكش ؛ ولم تك هذه الكتب أسعد حظا من غيرها . بل كان نصيبها بعد هذه المصادرة أن التهمتها نيرانهم بحيث لم يسلم منها غير ١٨٥١ كتاب أودعت بعد مكتبة « الاسكوريال » سنة ١٠٨٢ هجرية

كل ذلك برهان ساطع على رقى التأليف والنقل وذيوع الكتب وشيوعها . وهو بالتالى دليل واضح على مبلغ ما وصلت إليه الحياة العلمية بالأندلس من سمو ورفعة لم تنلهما فى دولة سواها .

وليس بعجيب على بلد هذه حاله العلمية وتلك عناية أهله بالكتب أن نرى بين أبنائه من يكون له من المؤلفات مايبلغ أربعمائة مؤلف فى فنون متنوعة كالفيلسوف أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى ، ومن يضع كتابا واحداً تبلغ أسفاره مائة كاملة كأحمد بن أبان بن سيده مؤلف كتاب « العالم » فى اللغة بدأه بالفلك وختمه بالذرة وهو - كما قيل - فى غاية الإيعاب ، وكالمظفر بن الأفطس ملك بطليوس الذى ألف فى فنون الأدب

كتابا فى مائة مجلد كذلك ولم تشغله الحروب ولا شئون المملكة عن همة الأدب وتدوين طرفه ونوادره .

* * *

إِلَى هُنَا : وأرجوا أن أكون قد وفقت فى رسم صورة واضحة يلمح القارئ من رؤيتها ما كانت عليه الأندلس من الثقافة العلمية التى كان لها أكبر الفضل وأعظمه فى ترقية أدبهم وتهذيبه ، وجعله مقبولا عند الأسماع محبوبا لدى النفوس .

وَبَعْدُ

فلعلى أكون كذلك قد هديت إلى الصواب فيما كتبت ، ولعلى أكون قد أعطيت أدب الأندلسيين بعض مايستحق من بحث وعناية ذلك ماأتمناه ، والله الكريم أسأل أن يكون قد بلغنيه ، كما أسأله تعالى أن يهب ذلك المجهود من القبول ماأرجوه له وأن يجعله سببا إلى السعادة وحسن المستقبل ، إنه عز وجل ولى ذلك والقادر عليه .

وَصَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

عبد العزيز محمد عيسى

أول المحرم سنة ١٣٥٥ هـ

فهرس

كتاب الأدب العربى فى الأندلس

تمت